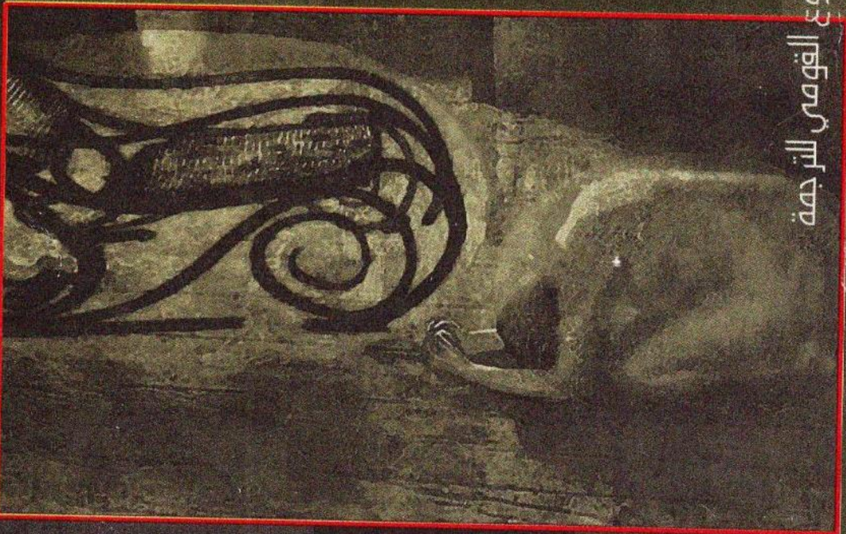
المشروع القومى للترجمة

فلسفة الولاء



تأليف: جوزايا رويس

ترجمة: أحمد الأنصارى

مراجعة: حسن حنفى

337

المجلس الأعلى للثقافة

المشروع القومى للترجمة

فلسفة الولاء

تأليف

جوزايا رويس

ترجمة

أحمد الأنصارى

مراجعة

حسن حنفى

٢٠٠٢

المشروع القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد ٣٣٧
- فلسفة الولاء
- جوزايا رويس
- أحمد الأنصارى
- حسن حنفى
- الطبعة الأولى ٢٠٠٢

ترجمة لكتاب:
THE PHILOSOPHY OF LAYALTY
تأليف JOSIAH ROYCE
الصادر عن The Macmillan Co.
New York 1930

تهدف إصدارات المشروع القومى للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارىء وتريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

مقدمة المترجم

أولا : أهمية دراسة الولاء :

إن لفظة الولاء تبدو من الوهلة الأولى من الألفاظ المثيرة للجدل، وتثير فى الذهن معانى سياسية وأخلاقية، وقديما ارتبط مفهوم الولاء بالسلطة والحرب، خاصة فى النظم العسكرية، وبالأرض والمحافظة عليها فى البيئة الزراعية، والقبيلة أو العشيرة فى البيئة الصحراوية، وأخيراً بالدولة ونظامها وسياستها، بات الولاء إحدى القيم الأخلاقية التى يطالب الفرد بالتمسك بها، وبالرغم من ذلك دائما مايثير مفهوم الولاء مشكلات كثيرة، منها ما يتعلق بطبيعته ومدى الحاجة إليه، وما إذا كان فطريا أو مكتسبا ومنها مايختص بأنواع الولاء، وصفات القضايا التى يتم الولاء لها، وأخيراً منها ما يرتبط بما يسمى بتعارض الولاءات والصراع بينها، ومع تطور المجتمعات، وتشعب العلاقات بين أنظمة المجتمع، اكتسب مفهوم الولاء أهمية كبرى لعلاقته بتماسك المجتمعات وتطورها، وظهرت أهمية مراجعة القيم الخلقية لمواكبة هذا النمو والتطور، بدأ الاتجاه لدراسة أسس الحياة الخلقية وطبيعة القانون الخلقى؛ فإنسان العصر الحاضر يعانى الحيرة والارتباك تجاه المثل العليا والواجبات الرئيسية وانتشر الشك فى الأحكام الأخلاقية، وزادت المطالبة بتغيير القيم تغييراً جذريا.

ولما كانت الفلسفة تدرس المبادىء والأسس، وجوهرها نقد الحياة، جاءت فلسفة الولاء تنظر للولاء بوصفه مبدأ أخلاقيا، وتدرس المشكلات المتعلقة به دراسة نقدية تحدد معنى الولاء وطبيعته وأنواع القضايا المستحقة للولاء وصفاتها، وأمكن تأسيس العالم الأخلاقى على مفهوم عقلى للولاء، وتم تركيز الفضائل والواجبات حول مفهوم واحد، يساهم فى توضيح كثير من مشكلات العصر الأخلاقية، وينهى الصراع بين الولاءات، ويربط مفهوم الولاء بنظرية فى الحقيقة والواقع .

ولما كانت الوحدة الوطنية من المسائل الضرورية لنهضة المجتمعات، والدول ذات

التركيبات السكانية الخاصة تحتاج دائما لما يؤكد وحدتها الوطنية، وتحقيق تماسك مجتمعها. والمجتمع المصرى مجتمع فرضت عليه تركيبته السكانية تعدد جنسيات سكانه منذ القدم، فلقد كانت مصر دولة جاذبة للسكان بحكم موقعها، وبوصفها واحة كبرى وسط الصحراء، يخترقها نهر، يحمل شريان الحياة، وفرت موطنا للاستقرار، وتهيأت سبل الحضارة، ولكن بحكم موضعها بين قارتين وربطها بين بحرين كان المهاجرون يفدون إليها من كل مكان، وباتت مسألة صهر هذه الهجرات مع سكانها الأصليين من المشكلات التى تفرض نفسها دائما. ومثلما كانت جاذبة للسكان، كانت أيضا جاذبة للأديان. فاستقرت بها عقيدتان من العقائد الدينية الثلاث. وبات خطر الفتنة يهددها من حين لآخر. وإذا كانت هناك عدة عوامل منذ القدم، تساعد على تحقيق الوحدة بين سكانها، فالعامل الاقتصادى جعل التعاون والوحدة ضرورة ملحة، بوصفهما مصدرا لإشباع الحاجات الضرورية. والعامل السياسى المتمثل فى وجود السلطة المركزية التى تتحكم فى توزيع الأراضى والمياه، فكان الخضوع لسلطانها أمرا ضروريا للحياة. والعامل الدينى واتفاق الإسلام والمسيحية فى الأصول الواحدة. بوصفهما ديانتين سماويتين، نابعتين من ديانة إبراهيم، ودعوتهما للعيش فى محبة وسلام. فلئن كانت هذه العوامل الثلاثة تساعد على تحقيق الوحدة والاستقرار للمجتمع المصرى إلا أنها تتعرض دائما لعوامل القوة والضعف، الأمر الذى يهدد دورها فى تحقيق الوحدة الوطنية، فتتعرض مصر من حين لآخر لخطرالفتنة، وصراع الولاءات. فإذا كان الولاء يعنى التفانى من قبل الذات، تجاه قضية معينة (١) فإن الوحدة الوطنية بوصفها المشروع القومى الكبير، تمثل القضية الكبرى المستحقة للولاء. قضية تضم كل الولاءات الصغيرة، فى منظومة واحدة. ولما كان من طبيعة الولاء الحق عدم تحطيم ولاء الآخرين، فإن مبدأ تحقيق الولاء، يسمح لكل مواطن مهما كان وضعه الاجتماعى أن يحقق ولاءه. فروح الولاء تنتشر بين كل المخلصين فتوحدهم، وتذيب الفوارق بين الناس والطبقات.

إن نظرة سريعة للواقع المصرى المعاصر، تؤكد زيادة عوامل الفرقة، وانتشار التفاوت الطبقى بسبب اختلاف المستوى المادى والثقافى والاجتماعى بين أفراد الطبقة الواحدة، بين القديم والجديد. فالهوة تزداد اتساعا، بسبب التطور العلمى والثقافى، أو

(1) Josiah Royce : The Philosophy of loyalty, Macimillan , 1430 P. 15 .

بين الجنسين، فالرجل يسعى لإحكام سيطرته، والمرأة تطالب بمزيد من الحريات. أو بين الفرد من جانب، وأنصار الحرية الفردية، وأنصار سيطرة المجتمع والدولة من جانب آخر. والواقع أن لكل طرف، من أطراف تلك الثنائيات، مثله الأعلى، والقضية التى يسعى لتحقيقها. فباتت المسألة فى حقيقتها، صراعا بين الولاءات، فإذا كانت فلسفة الولاء، تحقق الانسجام بين الولاءات، وترفض التعدى على ولاءات الآخرين. فسلوك الولاء يجمع أصحابه، ويوحد بينهم، خاصة عندما يكون ولاؤهم، ولاء لقضية الولاء للولاء. أى إذا سعى كل فرد للتفانى فى خدمة القضية التى يخلص لها، لحقق هذا التفانى الوحدة بين الناس. فلكل قضيته وولاؤه. ولأن من شروط القضية الجديرة بالولاء، مشاركة أكبر عدد من الأفراد فيها، وخدمتها لغاية اجتماعية عامة، فالولاء طريق الوحدة الوطنية. ولما كان الولاء لايتعارض مع الفردية والتفرد، على عكس مايشاع عنه، ولايعنى الموالاة أو الخضوع الأعمى للسلطة أو للقضية، فالفرد يختار قضيته، ويحق له التخلى عن ولائه لها إذا اكتشف خيانتها لقضية الولاء للولاء. فالوحدة الوطنية لا تعنى القضاء على التفرد والحرية الفردية. وإذا كانت نظرة الفرد للآخر، من المشكلات الكبرى التى تهدد التماسك الاجتماعى، فالآخر مجرد آلة، أو واقعة من وقائع الحياة، يتم التعامل معه بمنطق الفعل ورد الفعل، أو اعتباره مجرد قوة خارجية تؤثر على مصالح قد يحبها أو ينفر منها تبعا لمدى استفادته منها. فإن فلسفة الولاء، تطلب من الفرد النظر للآخر بوصفه كيانا نفسيا، له رغباته وآماله وآلامه وأحزانه وولاءاته. فالآخر يشبه ذات الفرد المستقبلية [1] أى النفس التى يفترض الفرد وجودها. دون رؤيتها فى الواقع العينى المحسوس ويفترض إمكانية التواصل معها، والارتباط بها، بالرغم من عدم وجودها الواقعى المستقل. فالآخر كيان نفسى، يتحقق وجودنا من خلاله.

وإذا كانت قضايا التنمية الاقتصادية والاجتماعية، لاتقل أهمية عن قضية الوحدة الوطنية والتماسك الاجتماعى فى مجتمعنا المصرى، فإن مفهوم الولاء وفلسفته، يعدان ذو أهمية لخدمة هذه القضايا وتحقيقها، حقيقة قد يبدو للوهلة الأولى، صعوبة وجود علاقة مباشرة يبين فلسفة الولاء وقضايا التنمية، أو قد تبدو العلاقة مسألة تعسفية إلى حد كبير. فالولاء نظرية أخلاقية وقضايا التنمية تتعلق بأوضاع المجتمع الاقتصادية، إلا

(1) Ibid ., : P 330

أن تداخل مجالات الحياة الإنسانية فى العصر الحديث، يثبت صعوبة الفصل بينها. فإذا كان مفهوم الولاء يعنى التفانى فى خدمة قضية معينة، فإنه يمتد ليشمل جميع أنواع القضايا. حقيقة أن قضية التنمية، ترتبط بالدرجة الأولى بالمعلومات والتقدم الفنى من جهة وبالموارد المتاحة ورأس المال من جهة أخرى، إلا أن عنصر العمل مازال العنصر الأكثر أهمية فى مجال التنمية الاقتصادية، وعناصر الإنتاج بالدرجة الأولى، ولئن كان المقصود بالعمل بوصفه عنصراً إنتاجيًا، دراسة احتياجات العامل، وعدد ساعات العمل، إلى آخر ما هو معروف فى دراسة هذا العنصر، إلا أن هناك جانبًا فى غاية الأهمية، مازال من الصعب دراسته والتحكم فيه، لأنه لا يخضع لأى قوانين وضعية أو مادية بالمعنى الواسع، ويصعب مراقبته والتحكم فيه، ويرتبط بوعى الفرد الباطن، أو ما يسمى بالضمير، حقيقة من الممكن مراقبة العامل من الخارج، إلى آخر ما هو معروف من عناصر الإدارة الناجحة، ولكن يظل هناك جانب الإتقان فى العمل والتفانى فيه، أو ما يسمى بروح العمل. وقديمًا حاولت الأخلاق الدينية الاهتمام بسريرة الفرد وحياته الباطنية، والاعتماد على مسألة الخوف من الله، إلا أنها لم تنجح فى ضبط بواعث الفرد. قال فلاسفة الأخلاق، بوجود ما يسمى بالضمير الأخلاقى، الذى يوجه سلوك الفرد ويحاسبه، إلا أن القول بالضمير زاد المسألة غموضًا، فلا يعلم الفرد مصدر هذا الضمير، ولا دوره ومسئوليته، وباتت المذابح ترتكب، بسبب صراع الضمائر، أو الفصل بين النظر والعمل، أو بين المصلحة الذاتية والمصلحة العامة، أو ازدواج الشخصية فاختلطت المفاهيم وتصارعت المثل العليا، وإن توافقت، يعجز تطبيقها فى الواقع، إما بسبب ثباتها النسبى، وتغير الواقع المستمر والسريع، أو بسبب عدم اقتناع الفرد بها، لأنه لم يشارك فى صنعها واختيارها. فإذا كانت فلسفة الولاء توحد الداخل بالخارج، وبين ما يرغب الفرد وما يفرضه المجتمع، وتجمع بين الإذعان الإرادى، وتحقيق حرية الفرد، ووحدة الذات، فإنها فلسفة قادرة على حل إشكالية، هذا الجانب الباطنى للفرد المسمى بالضمير. فولاء الفرد يشكل ضميره، ويوجه سلوكه، فلا يرى ولا يسمع إلا بما تأمر به القضية، ويضحى بكل شئ فى سبيلها، وتضمه مع الآخرين المشاركين فيها وتتوحد الغاية، وتصبح القضية الهدف البعيد الذى يجب تحقيقه والتضحية فى سبيله. إن الولاء للقضية، يحدد السلوك الواجب لتحقيقها، ولا يتركها مجرد شعار صورى زائف، ومن لا قضية له لا وجود له، ولا غاية يسعى إليها،

أو جماعة ينضم إليها، فقضية الفرد ضميره. وإذا كان الولاء يحدد للفرد غايته وهدفه، فإنه يحقق للأمة نهضتها وإن استحالت نهضة الأمة بدون ولاء لأبنائها، فإنه لا حياة لفرد دون أمة تحتضنه، تحقق له الحرية والحياة الكريمة، وتستمد وجودها من ولائه. فالولاء الغذاء الروحى للأمة. فإذا كانت قضايا التنمية وزيادة الإنتاج، والديمقراطية ووحدة الأمة، و محو الأمية، وحرية المرأة وحقوق الفرد، من القضايا الملحة والضرورية لنهضة مجتمعنا المصرى[1] فإن الولاء، أفضل طرق إنجازها وتحقيقها، ويستطيع كل فرد اختيار القضية التى يخلص لها، فلا تعارض بين القضايا، طالما أنها تخدم قضية الولاء الكلى، والولاء للولاء.

والسؤال الذى يفرض نفسه الآن، إذا كانت قيمة الولاء من القيم الاخلاقية العميقة التى ترتبط بطبيعة الإنسان وحاجته، فما العوامل التى أدت إلى قلة انتشارها فى العصر الحاضر؟ حقيقة أن قيمة الولاء، مازالت من القيم الأسرية فى المجتمع المصرى، إلا أنها قاربت على الاختفاء من سلم القيم الأخلاقية، ولم يعد لها نفس مكانتها بين المثل العليا، فقل انتشارها، وطمست معالمها، وتركت لسرائر الناس، ولتفسيرات تعسفية ضيقة. يغلب عليها ضيق الأفق والمصلحة الشخصية. بات الولاء فكرة مجهولة المعالم، يتجاهلها الأدب الشعبى والفن، وتعمد إساءة عرضه، إذا تمت الإشارة إليه. فاختفت نماذج الولاء، وتم إهمالها، والسخرية منها، فالتفانى فى خدمة قضية ميئوس منها، أو قد لا يجنى الإنسان ثمار ولائه لها فى حياته، باتت مسألة تبدو للفرد العملى غير منطقية، لأنه يريد نجاحاً مادياً سريعاً، ولا يؤمن بما يتجاوز حياته الشخصية. ولا تقتصر المشكلة على تجاهل الولاء، وإنما تكمن أيضاً فى أن التأكيد عليه، أو الاعتراف بقيمته، نادراً ما يتم فهمه بمعنى الولاء للولاء. إن مشكلة الولاء إننا لا نعرفه، وإن عرفناه، لا نفهمه بمعنى الولاء للولاء. فهناك حاجة ماسة لمعرفة معنى الولاء والتدريب عليه.

ويتأثر الولاء بعلاقة السلطة بالشعب. فانفصال السلطة عن الشعب وعدم مشاركة الفرد فى القرارات السياسية المصيرية، وعدم مراعاة السلطة التنفيذية لمصالح الأفراد، يؤدى إلى شعور الفرد بالاغتراب، وتقل درجة ولائه، وتصبح قوى السلطة أشبه بقوى

(١) د. حسن حنفى ، الموقف من التراث، هموم الفكروالوطن، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية ، ص ٤٦٣ .

الطبيعة، لا تبالى بالإنسان فى أعمالها، وينظر لها الفرد بوصفها قوى جبرية قاهرة لا يسعى إلا إلى التقليل من أضرارها، وتتحول العلاقة بينها وبين الفرد إلى علاقة سيد بعبد، وتصبح أخلاق العبيد على قمة الفضائل. إن الولاء الحق للسلطة يرفض الخوف منها، ويقوم على التفانى لخدمتها وينفذ قرارتها، بنوع من الاستسلام الإرادى، القائم على الاختيار الحر وإذا كان التعاون سمة الحيوانات والحشرات كالنمل والنحل فهناك نوع من الواجب العام، لخدمة الجماعة، إلا أن المشكلة، تتمثل فى أن النمل أو النحل، لم يبدع الفنون والاكتشافات العلمية، والتعاليم الدينية، فحياة جماعاتها، حياة ميكانيكية ثابتة، فالمشكلة الحقة التى تواجه علاقة الفرد بالسلطة دائمًا، هى كيف يتم الربط بين درجة المبادأة الفردية، التى تعد ضرورية للتقدم، مع درجة التماسك الاجتماعى الذى يعد ضروريًا للحياة ؟[1]

إن فلسفة الولاء، تؤكد على صنع الفرد، فالذات الإنسانية هدف، فذواتنا لا تسبقنا، وإنما تسعى إليها، وتطالب فى نفس الوقت، بتحقيق التماسك الاجتماعى، فلا وجود لذات دون مجتمع يمدها بالحياة. ومن المخاطر التى تقع فيها السلطات التنفيذية تركيز الولاء فى المدنية، فباريس فى فرنسا، وموسكو فى روسيا، والقاهرة فى مصر، ويتم إهمال، ما يسمى بالولاء الريفى والمحلى. فيتم اختزال الدولة فى عاصمتها، وتفقد الأطراف قيمتها. إن الولاء يرتبط بالاتصال المباشر، ولذلك يجب أن يبدأ من الأسرة، فالقرية فالمحافظة فالوطن، فإذا كان الولاء الأسرى، أولى درجات الولاء، فإن الولاء للوطن قمة نموه الطبيعى.

إن التفرقة بين الولاء الوطنى والولاء الدينى، تعد من أخطر ما يواجه الولاء فى مصر. فيرى أنصار الولاء الوطنى، أنه يؤدى إلى تماسك الأمة ويجنبها الفتنة، ويتهمون الولاء الدينى بالتعصب والتمسك بالماضى، والتضحية بالعالم الأرضى، والسمو فى عالم السماء. بينما يرى أصحاب الولاء الدينى أنه الأكثر شمولاً، إذ يكون ولاء الفرد لقيم روحية سامية، ويرون أن الولاء الوطنى يرتبط بالعنصرية والفاشية وضيق الأفق، ويمهد الطريق للحروب مع الدول الأخرى، ولئن كان هناك من يرى أن المصرى، يحيا

---

(1) Russell , Bertrand : Authority and the Indiridaul , Unnunpa perlacks , Gorge , Allen Yunvin , London P. 12

منتميًا للدوائر الثلاث المصرية والعربية والإسلامية، إلا أنه يرى أن الحيرة تتعلق بالسؤال، إذا ما كان المصرى عليه أن يختار بين ولائه الوطنى والولاء الدينى فأيهما يختار ؟ [1] إن سر الولاء يكمن فى شعور الفرد فى عمق وجدانه، بأنه لا يستطيع العيش وحده فريداً فى هذا الكون الفسيح. يريد أن يجد آخر، يتحد معه، فإذا ما وجد هذا الآخر تمسك به وأخلص له، ومن هنا كان الولاء ضرورة حيوية، لكل ما من شأنه أن يجعل وجودنا أغزر معنى، و أوسع نطاقًا، وأدوم بقاء، فالولاء يكون لله سبحانه وتعالى، لأنه مالك يوم الدين، والولاء يكون للوطن، الذى بغيره ينعدم أهم أركان الهوية فى الدنيا، والولاء يكون لأى مجموعة تمثل فكرة لها دوام، وأنتمى إليها، عضواً فيها، وعاملاً مع غيرى على تحقيق هذه الفكرة [2]. والحقيقة أن مفهوم الولاء بهذا المعنى يظل مفهومًا ضيقًا. ولا يقدم حلاً لصراع الولاءات. فالولاء الدينى كان سببًا للحروب الصليبية ونشأة الدولة الصهيونية، والولاءات الوطنية أدت إلى حربين عالميتين، ويلاحظ فى العصر الحاضر سيطرة عقيدتين على ولاء الناس ومعظم البشرية، الأولى عقيدة الشيوعية وإن كانت قد قل انتشارها بعد سقوط الاتحاد السوفيتى، والثانية ما يسمى بقصيدة الأسلوب الأمريكى فى الحياة. لم تعد المسألة، قاصرة على الولاء الدينى والولاء الوطنى بالمعنى الضيق. فإنسان العصر الحديث يواجه ولاءات كثيرة، لا تقل أهمية عن الولاء التقليدى للدين أو للوطن. وتستفيد من الولاء النظرى الذى كان الإنسان الأول يحيا به، فالآلية النفسية للإنسان مازالت، تخدم الولاء، ولم تتغير الطبيعة الإنسانية الفطرية كثيراً، بسبب نمو الوعى العقلى والعلمى للإنسان، ومازال الإنسان يقسم الناس فريقين، الأصدقاء والأعداء.

والحقيقة أن الفهم الخاطئ لمعنى الولاء. وضيق مفهومه، وحصره فى قضايا جزئية يؤدى فى النهاية إلى صراع الولاءات. إن الولاء يعنى تجسيد الأبدى فى الأفعال التى تقوم بها الذات الإنسانية[3] تجسيد الوحدة الروحية الواعية والتى تجاوز دائماً حياة أى نفس جزئية، فى مجموعة من الأفعال الإنسانية. إن الولاء، لا يعنى مجرد الانتماء

---

(١) زكى نجيب محمود، رؤية إسلامية، الهيئة العامة، القاهرة، ص ١٤٥ وما بعدها ١٩٩٥ .

(٢) زكى نجيب محمود، قيم من التراث، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٩، ص٣٩ .

(3). josiah Royce The Philosophy of loyalty, P. 356 .

لفكرة، أو مجرد الاعتقاد فى شئ أبدى، وإنما التعبير عن هذا الاعتقاد فى الحياة العملية للإنسان، وإذا كان العالم الواقعى، هو ما يثبت صحة اعتقاد ما، ويشبع هدفًا إنسانيًا، فإنه لن توجد إلا قضية الولاء للولاء، وتحقق وحدة الأبدى والزمنى ويختفى صراع الولاءات، فالولاء للوطن ولاء لله، والولاء للدين يتجسد فى الولاء للوطن. والعبادة بروح أخلاقية، تعد خدمة لقضية اجتماعية .

إن الولاء يربط الأمة بتاريخها، ويحقق التواصل بين أجيالها، ويوحد شعبها بقادتها، بصرف النظر عن القضية التى يخلص لها القائد، فالقضايا لا تموت بموت أصحابها، وإن فشل فى تحقيقها فى حياته، وبدت قضية ميئوسًا منها، فإن الولاء لها، يحافظ على وجودها فى عالم أبدى، يحوى قضايا المخلصين، وبالتالى لا يصبح معيار الحكم على القادة، معيارًا نفعيًا براجماتيًا، بل معيارًا مثاليًا يحقق لهم الخلود فى التاريخ، ولقضاياهم التى بدت ميئوسًا منها وخاسرة فى لحظة تاريخية معينة، الاستمرارية والاكتمال فى لحظات تاريخية أخرى. إن الولاء يمد القضايا بمقومات الحياة، فهو التربة التى تنبت فيها والهواء الذى تتنفسه. فالولاء روح القضية وبالتالى لا تنقطع صلة الأمة بماضيها وتراثها، ويتحقق تواصل الماضى بالحاضر. فالقضية التى يتم الولاء لها، تحقق وحدة الأمة وتاريخها. لأن الحاضر يسعى لتحقيق القضايا، التى لم يستطع المخلصون لها تحقيقها فى الماضى. فالقضايا المستحقة للولاء والجديرة به، إن كانت قد دفنتها المصالح الشخصية والأهواء فى فترة من حياة الشعوب، وتعرضت للانكسار فى لحظة من لحظات الضعف، فإن بذورها كامنة فى أعماق الشعوب، تستمد غذاءها من قيمتها الذاتية، ومن الولاء لها. يختارها الأفراد اختيارًا حرًا فى كل لحظة، فتظهر من جديد، بالرغم من اختفاء أول المبشرين بها ودعاتها. فالولاء يحقق للقضايا خلودها، وللأفكار تواصلها، فيكمل اللاحق ما بدأه السالف، ولما كانت القضية التى يثبت تعارضها مع قضية الولاء للولاء، يتم التخلص منها، فإن فلسفة الولاء تستوعب التغيير والتجديد، فلا تتمسك بالماضى، لمجرد الحفاظ على القديم وثبات العادات السلوكية، وإنما تفسح المجال للجديد من القضايا التى تعبر عن مطالب الجماهير. فالقضية جوهرها اجتماعى إنسانى، وسلوك الولاء سلوك ابتكارى مبدع. حقيقة قد يبدأ بالتقليد أو النقل(1) و لكنه يستقل ويتحول إلى الإبداع والابتكار. فإن كان الولاء

(1) The Philosophy of loyalty, P. 33.

يربط الأمة بماضيها، فإنه لا يتوقف عنده، ويتحول إلى عبادة للأسلاف. وإنما يقوم بتطويره، لأنه تعبير عن الأبدى فى السلوك، وإن كانت فلسفة الولاء قد نبتت فى بيئة تعانى التشتت والحروب الأهلية وفقدان الثقة فى المثل العليا، والتشكك فى دين الكنيسة التقليدى، والانقسام بين صفوف المؤيدين، وموحدى الدين والأخلاق، ومطالب لضرورة الفصل بينهما، وحيرة أخلاقية بين القديم والجديد، وسلطة سياسية لا يتم احترامها، بسبب الولاء لها، وإنما بسبب الخوف من بطشها، انشقاق بين المثقفين بسبب الخلط بين الحرية الوهمية والحرية الواقعية، بيئة تبحث عن هويتها ومكانتها، فإننا فى أمس الحاجة لهذه الفلسفة. إن فلسفة الولاء، تعد مطلباً ضرورياً، إذا ما شعر الفرد بالحيرة، وغاب عنه نور البصيرة، وتساءل فى سريرته إلى أى جماعة أنتمى وإلى أى قضية أهب حياتى، وما القضية الجديرة بالولاء ؟

ثانياً : فلسفة الولاء :

يعتبر "جوزايا رويس" [(١)] الولاء محور الفضائل كلها، وروح الأخلاق العاقلة، وإذا تم قيام وحدة صحيحة بين الأخلاق ونظرية فلسفية عن العالم الواقعى، تحققت وحدة الدين بالحياة العملية. يبدأ كتاب فلسفة الولاء، بعرض لطبيعة الولاء، وتوضيح لمدى حاجة الإنسان إليه وبمحاولة بيان أساس الحياة الأخلاقية، وطبيعة القانون الخلقى، ومدى الحاجة لمعايير أخلاقية جديدة ترتبط بالحياة العملية، وإلى اكتشاف المعانى الحقيقية للاخلاق التقليدية القديمة. ويعرف "رويس" الولاء، تعريفًا أوليًا، ثم يعود إلى تكملته فى المحاضرة الأخيرة، بأنه التفانى الإرادى العملى المستمر، من قبل فرد ما، تجاه قضية معينة. يعرف منها ما ينبغى أن يكون، وما ينبغى أن يقوم به من الأفعال. ولابد أن تتصف هذه القضية بالذاتية والموضوعية، وتضم أكبر عدد من الأفراد فى رابطة واحدة. والولاء ضرورى، لأنه يقضى على حالة التردد والحيرة الأخلاقية، ويحقق به الفرد الخير لنفسه. لأنه يكمن فى معرفة الفرد لواجبه، ومثله الأعلى فى الحياة، فالفرد لا يستمد خيره من الخارج، ولا يعرف واجبه منه، ودائماً ما يلجأ إلى الداخل، لاستشارة إرادته العاقلة. ولكن عندما يفتش فى ذاته، لا يجد غير رغبات متغيرة، ومشاعر مختلطة. وبالتالى فلا الخارج يرشده، ولا يوجد مثل أعلى مفطور فى عقله. فيعود مرة أخرى يرتد للخارج للبحث عن واجبه، مقلداً النماذج الاجتماعية ومعتمداً على التدريب الاجتماعى. ولكن التدريب، لا يعلمنا إلا الثورة على المجتمع، ولا يولد لنا إلا الرغبة فى التمرد، فنرتد إلى ذواتنا مرة أخرى، نفتش فيها عن واجبنا. ولذلك لا أحصل من الداخل أو من الخارج، على ما يسمى بخطة مستقرة للحياة، إلا اذا كان بينهما وحدة راسخة، وحدة بين العالم الاجتماعى وعالم الذات، بين أسلوب الآخرين وأسلوبها، ولا يمكن أن يحدث هذا التوافق الاجتماعى، إلا بالولاء.

إن الانسان بطبيعته كائن اجتماعى، ولا يحيا بدون العواطف الاجتماعية، والتواجد مع الآخرين، الأمر الذى يتطلب منه دائمًا التضحية بالذات للتوافق معهم. فيقوم الولاء بتحويل التضحية بالذات إلى تأكيد لها، ولوجودها، ويحقق الأنا أعلى درجات إعلاء

(١) فيلسوف أمريكى معاصر (١٨٥٥ – ١٩١٦) من الهيجليين الجدد فى أمريكا ومن ممثلى المثالية المطلقة ، ومن أهم مؤلفاته " الجانب الدينى للفلسفة " ١٨٨٥ ، " روح الفلسفة الحديثة " ١٨٨٩ ، " العالم والفرد " ١٩٠١ ، فلسفة الولاء ١٩٠٨ ، مشكلة المسيحية ١٩١٣ .

الذات من الشعور بالاستسلام الذاتى، فإذا كانت الدوافع الاجتماعية، تؤدى إلى إثارة الشعور الذاتى، فإن الولاء يوجه انتباهنا لقضية خارجية توحد بيننا ويقدم لنا فرصة تحقيق الذات وحلاً لتناقض وجودنا الطبيعى بأن يوجهنا فى الخارج، تجاه القضية الجديرة بالخدمة، ويوضح لنا فى نفس الوقت، الإرادة التى تسعد بتقديم هذه الخدمة، والتعبير عن نفسها فيها. فتصبح قضية الفرد ضميره تخبره بواجبه، وتوحد دوافعه، ومثله العليا، وتحرره من الشكوك الأخلاقية. فكلنا نحتاج للولاء، لأنه يخطط حياتنا، ويوحد حياتنا الأخلاقية، ويوفق بين الإرادة الذاتية والإرادة الاجتماعية، ويحدد لنا الواجب الخلقى، ومعنى الخير، فيعطى قيمة لحياتنا. نحتاج الولاء لتحقيق خيرنا الفردى، وبوصفنا كائنات اجتماعية نحتاج دائماً لقضايا تستحق الولاء، لأنه يقدم حلاً لأصعب مشكلاتنا الاجتماعية، وإجابة عن لماذا نحيا هنا؟ ولماذا نفعل الخير ؟ وما الحاجة لوجودنا ؟

ولا تتعارض روح الولاء مع الاستقلال الأخلاقى للفرد. يقول أنصار المذهب الفردى فى الأخلاق إن الولاء سبب الكوارث الإنسانية، واستغله الطغاة للسيطرة على شعوبهم، ويتعارض مع حرية الفكر والاستقلال الخلقى، ويستطيع الإنسان أن يعتمد على النور الفطرى الداخلى لمعرفة واجبه والشعور بالسكينة، ولا حاجة للولاء. يرد رويس على هذه الانتقادات، بشرح لولاء الساموراى اليابانى، حيث لا يتعارض شعوره بالولاء مع إحساسه بكرامته وكيانه الخاص، ولا يتعارض ولاؤه مع وحدة الأمة، ويرى أن الاخلاق الفردية لا تستقيم إلا بالولاء، فكل غاية فردية، لا يتم الولاء لها، يفشل الفرد فى تحقيقها. وإذا كانت الأخلاق الفردية، ترى أن خير الفرد فى السعادة فإنها تحتاج للنظام الاجتماعى لمعرفة طرق السعادة. وفى النهاية تهاجمه وقد تثور عليه. وإذا قيل بأن القوة أو السلطة هى المثل الأعلى الأخلاقى، والسلطة قمة الخيرية، فهناك حاجة للمجتمع لمعرفة نماذج السلطة، كذلك لا يكون للسلطة قيمة، إلا إذا كان هناك غاية أعلى منها، نسعى لتحقيقها. إن الاستقلال الخلقى، والتفرد الحقيقى، لا يتحقق إلا بالولاء، لأنه يعنى تكريس الذات لخدمة قضية معينة، وإلا يصبح استقلالاً فارغاً، لا قيمة له. وينتهى رويس من مناقشة أنصار النزعة الفردية، بأن دفاعهم عن وجهة نظرهم، وتمسكهم بالحرية الأخلاقية والاستقلال الفكرى، يعد فى حد ذاته نوعاً من الولاء لهذه القضايا، وبذلك كل من يرفض مبدأ الولاء، يعود لتأكيده مرة أخرى.

يعرض "رويس" لنظرية عقلية للواجب. فيرى أن سلوك الولاء، يعد سلوكاً مبتكراً وأصيلاً لا يقوم على التقليد، وغير مستمد من الروتين، ويجمع بين التواضع والاعتداد بالذات، يتوافق مع القديم ويبتكر الجديد، والقضية المستحقة للولاء، لابد أن تحقق وحدة الأفراد، ووحدة حياتهم الأخلاقية، ولابد أن تكون شخصية ذاتية، ومجاوزة فى نفس الوقت لحياة الفرد الجزئية، تتصف بالشعور بالانجذاب نحوها، والإعجاب بها، ولا تهدم ولاء الآخرين، تحقق خير الفرد والجماعة وتؤدى إلى تعزيز ولائهم. ولا تعد قضية خيرة، إلا إذا حققت الولاء للولاء، فتوحد بين الداخل والخارج، بين الاهتمام الطبيعى والاختيار، وتضم القضايا المختلفة فى نسق واحد، وقضية كلية واحدة. فكل الواجبات الإنسانية عبارة عن أمثلة لقضية الولاء للولاء، ولكى يبسط رويس مفهومى الخير والواجب، يرى أن كل واجباتنا تقوم على الولاء. والمبدأ الأخلاقى الأول، هو الولاء للولاء يرشد الفرد لفعل الواجب ويحقق خيره، ولأن ولاء الفرد يعنى خيره، والخير العام وليس خاصاً، فإن كل من يسعى لتحقيق القضية الكلية للولاء، يكون محققاً الخير الأقصى للبشرية. ويجب أن تؤدى حياة الولاء إلى نشره وزيادة تمسك الناس به. وإذا اكتشف الفرد معارضة قضيته، لولاء الآخرين، ومبدأ الولاء للولاء، يجب عليه التخلى عنها. إن مبدأ الولاء للولاء، يحل التناقضات الأخلاقية الكبرى كالتناقض بين العدل والرحمة، ومن يفهم طبيعة المبدأ، يكتشف محبته لكل الفضائل، ويعرف ما ينبغى عليه القيام به، ويكون مرشداً عملياً له، فى كل الأحوال والظروف.

ينطلق رويس من مبدأ الولاء للولاء إلى صياغة نظرية جديدة للضمير. ويؤكد بداية أنه لا يمكن فهم الطبيعة الحقة للضمير، إلا بفهم طبيعة الأنا. فلا يوصف الأنا، الذى يحيا لحظة بلحظة بأنه شخصية، إلا إذا كانت له خطة وأهداف. ولا تكون هناك نفس، إذا لم تتوحد الأهداف واللحظات. فالأنا الواحد هدف واحد وبذلك تقدم لنا قضية الولاء للولاء الوحدة المطلوبة لحياة الفرد، وتحدد شخصيته، وتوحد نشاطه، فالشخصية هدف متجسد فى حياة. فإن كنت ذاتاً واحداً، وعلى ولاء لقضية واحدة، فالقضية هى المثل الأعلى الذى أسعى لتحقيقه، وأحكم على الأفعال من خلاله. لذلك القضية هى الضمير والمثل الأعلى، لأنها تضع الخطة أمامى، وتأمر باستمرار مقارنتها، بدوافعى اللحظية وسلوكى العملى. فالضمير نوع من الوعى، وليس فطرياً أو معصوماً من الخطأ، ينمو بالولاء، يبدو من الخارج، سلطة توجه الفرد وتقوده، لأنه قضيته، ويمثل فى الداخل

روحه الذاتية الخاصة، والمثل الأعلى الذى يجعل منه كائنًا أخلاقيًا عاقلاً. وينتهى رويس بتعريف الضمير بأنه المثل الأعلى للأنا، الذى يظهر فى الوعى، بوصفه أمراً مباشراً يطلب من الفرد بأن يحيا حياة الولاء. ولكن الولاء لماذا؟ الولاء للولاء. وإذا تصارعت الولاءات، يخاطب الفرد قائلاً " يجب أن تقرر الولاء، لما آمرك به بوصفى التعبير المثالى عن طبيعتك الواعية واللاواعية. ولا تخف من الخطأ. فالحسم مطلوب منك، والإخلاص واجبك .

ولكى يتم تدريب الأفراد على الولاء، يجب أن ندرك أولاً، أن الولاء يعطى للقضية مسحة اجتماعية ودينية فى نفس الوقت. لأنه يعطى للحياة الإنسانية قيمة تجاوز حياة الفرد الشخصية. ويضم أكبر عدد من الأفراد. ولذلك يتطلب التدريب على القدرة على إدراك القضايا الاجتماعية، والحسم فى الاختيار، والوفاء والالتزام فى التنفيذ. ويبدأ التدريب متدرجًا مع السن المناسبة. فيكفى إثارة خيال الطفل بقصص الأبطال، وتشجيع الطرق التلقائية للولاء، والبعد عن المنافسة والحماس الزائد. ومع نمو الطفل وتقليد القادة والتأثر الشخصى بهم وتعقيل القضية، يتم اكتسابه سلوك الولاء. فوجود القضية المثيرة للحماس، والقائد المتوحد بها، والذى لديه القدرة على الإقناع، يؤدى إلى تحويل القضية إلى مثل أعلى. كذلك يلاحظ أن هناك صفات فى القضية ذاتها، تساعد على تحويلها إلى مثل أعلى. فالقضية الميئوس منها تتحول إلى مثل أعلى بسبب الفشل فى تحقيقها. لأن الحزن على فشلها يؤدى إلى إثارة الخيال والتفكير فيما ينبغى أن يكون، ويدفع بصاحبها إلى التدين، لأنه يشعر بوجودها فى عالم مجاوز لحياته الشخصية، فيرتبط الولاء بالدين، وينتهى رويس إلى أن الانتباه المتعمد إلى أفعال قادة الولاء، والاستخدام الواعى لكل إمكاناتنا وقدراتنا، لتحويل القضية إلى مثل أعلى، كدراسة القضايا الخاسرة فى التاريخ، وممارسة العلوم التى تنمى الشعور بالوحدة، كالفن والحكمة، والإيمان الدينى بوجود عالم مجاوز لحياتنا الإنسانية، كلها أمور تحقق الولاء، وتساعد على اكتسابه.

وعن علاقة الولاء بوصفه نظرية أخلاقية بعالم الحقيقة والعالم الواقعى، يتساءل رويس عن خيرية الولاء، ومدى صحة اعتقادنا فى خيرية القضية، وتجاوزها لحياة الفرد الشخصية ألا يمكن أن يكون هذا الخير وهما؟ أهناك حاجة لنظرية فى الحقيقة

والواقع، يتم تأسيس النظرية الأخلاقية عليها؟ وما حقيقة العالم، إذا كان الولاء خيراً حقيقياً ؟ وإذا كان الفرد يؤمن بخيرية القضية. وباستقلالها عنه، وبوجودها فى عالم روحى مستقل، وليست مجرد واقعة فى الشعور، وبوجود وحدة تربط أصحاب الولاء، فهل هذه الوحدة، توجد فى وعى أعلى من الوعى الإنسانى ومجاوزة لمستواه ؟ وينتقل رويس من تحليل طبيعة الولاء وخيرية القضايا، ووحدة أصحاب الولاء، إلى ضرورة وجود كيان مجاوز لعالمنا الإنسانى، ووعى أعلى من الوعى الإنسانى، تكمن فيه هذه الأشياء، لأنها تجاوز بطبيعتها الحياة الجزئية للأفراد. فالولاء له جانبه الميتافيزيقى لأنه محاولة لإدراك حياتنا الإنسانية من منظور أعلى ومجاوز لحياتنا، ونرى من خلاله منظماتنا الاجتماعية، عبارة عن وحدات فعلية للوعى تتصف بالخيرية التى نشارك فيها جميعاً. فوحدة المحبين، يكون لها وجودها المستقل عن الأفراد. وتنتمى لمستوى أعلى من الوعى الإنسانى، ولكن يكون لها فى نفس الوقت صلة. بشخصياتنا المنفصلة عنها ظاهرياً. فإذا تم التسليم بهذا الافتراض، لا يصبح الولاء مجرد انفعال، ولا يكون خير القضايا خيراً وهمياً، ويصبح الاتحاد بين التضحية بالذات وتأكيدها، اتحاداً واعياً، بوجود وعى اجتماعى أعلى من وعينا الإنسانى، نحيا به، ونستمد قيمتنا منه، وبخيرية أفعالنا المخلصة. فالولاء يحقق الخير للقضية (الوحدة العليا الخيرة)، وخيرنا الأقصى فى نفس الوقت، لأنه يحدد وضعنا الحقيقى فى عالم الإرادة الاجتماعية الذى نحيا بها وفيها، وبالتالى يمكن القول، بان اعتبار الإرادة الاجتماعية كيان ملموس، وله وجود واقعى مثل وجودنا، يمثل اتجاهاً عاماً، لدى كل أصحاب الولاء. ولابد من رؤية الحياة الإنسانية فى وحدة واحدة، ويجب أن تكون فلسفة الولاء جزءاً من فلسفة، ترى العالم كله، بوصفه وحدة من الوعى، الذى يتألف من وحدات أقل وعياً. وإذا كانت الحقيقة أنواعاً، فكل حكم من أحكامها، يتضمن الاعتراف بأن عالم الحقيقة الذى نتحدث عنه، عالم له وحدة عقلية روحية، وخبرة كلية، ونمط من الوعى أعلى من وعينا الإنسانى، ولكن حياته مثل حياتنا جزء من كائن حى. وبأنه العالم الذى نعترف به أيضاً إذا آمنا بصدق قضية أخلاقية معينة. ولما كان أصحاب الولاء، يؤمنون بوجود القضية وخيريتها، فإنهم يؤمنون بوجود عالم خير واحد للحقيقة، فمن كان على ولاء كان باحثاً عن الحقيقة، فحياة أصحاب الولاء والباحثين عن الحقيقة حياة واحدة.

وينتقل "رويس" من نظرية فى الحقيقة إلى نظرية فى العالم الواقعى. فكل حكم

صادق أو خاطئ من أحكامنا، يعترف بوجود عالم من الوقائع، وخبرة معينة ووعي منبثق من الوقائع ، ولذلك العالم الطبيعي مهما كانت بنيته، لابد أن يكون موجوداً وجوداً واقعياً، ويكون هناك فى نفس الوقت، وحدة شاملة لوقائع الخبرة، وفكر شامل يحويها، فمهما كانت صحة أو كذب أى حكم من أحكامى عن هذه أو تلك الواقعة، فإن العالم الواقعى، الذى يثبت صحة أفكارى، أو يفند أحكامى الزائفة، يكون عبارة عن النظرة الشاملة لكل الخبرة، وهذا الكل يكون على صلة بحياتى العملية، خاصة إذا كان هدف حياتى الدخول فى وحدة مع العالم كله. ولابد أن يكون هذا الكل لمجمل الخبرة، مجملاً لكل الوقائع كما هى موجودة بالفعل، وحقيقة أبدية. أى شمول هذا الكل من الخبرة لكل الأحداث الزمنية، وكل التغييرات، طالما نقصده ونريده، لكى يكمل كل محاولاتنا الفاشلة ويقبل الناجحة منها. وبذلك يعتبر العالم الذى يشمل حياتنا ويضمها عالماً أبدياً ومجسداً لوعى واحد، يحقق كل غاياتنا وأهدافنا العقلية، ويشكل الصورة التى نسعى إليها جميعاً، لأنه يكون عالماً واعياً بذاته، ومتوحداً، وكاملاً، من كثرة التضحيات المثالية، وأفعال الولاء، التى توحدت، وتعاونت، حتى تحقق وجوده الكامل وتشكل كيانه. وبذلك ينتهى رويس باقتراح تعريف جديد للولاء" بأنه إردة تجسيد الأبدى، أى الوحدة المجاوزة لحياة الإنسان فى صورة أفعال تقوم بها ذات إنسانية ". أو بمعنى آخر، يتفق مع المنهج البراجماتى هو "إرادة الاعتقاد فى شئ أبدى، والتعبير عن هذا الاعتقاد فى الحياة الإنسانية لفرد ما".

إن النظرة للعالم الواقعى بهذه الصورة، تساعد على فهم أفضل للحياة، وعلينا أن نعترف بأن حياتنا اليومية تعتمد على الاعتقاد فى موجودات، نؤمن بصحة وجودها، بالرغم من وجودها خارج مجال خبرتنا العادية. فنعتقد فى وجود عقولنا وعقول الآخرين والأحداث الماضية، وليس لدينا دليل على صحتها. كذلك يستحيل القول بوجود واقع مستقل عنا، فلقد عرفنا بوجود العالم من خبرتنا. ومن تحديده وتعريفه بأفكارنا، والتعامل معه بوصفه موضوعاً لكل أفعالنا العملية. من جهة أخرى، القول بوجود شئ ما، يعنى الحكم بأن له مكانه فى عالم الخبرة، سواء كانت خبرة إنسانية أو غير إنسانية، ويعنى الحكم أيضاً، بأن عبارة ما، تعد عبارة صادقة، ولا تعد مصداقية العبارة واقعة جامدة، مستقلة عن الخبرة والأفكار، وإنما عبارة عن إشباع ناجح لمطلب معين، مطلب يمكن التعبير عنه، فى عبارة ما، أو حكم معين، ولا يتحقق إلا عندما يكون

هناك جزء من خبرة معاشة، تحوى ما يقابل هذا المطلب. ولذلك يرى رويس أن العالم الواقعى، ليس شيئاً مستقلا عنا، ومادته وبناؤه من طبيعة الخبرة، ويضمن بناؤه تحقق أفعالنا، وتسمح طبيعته للتعبير عنها، بالأفكار والمعانى الكلية العقلية، وفى المقابل يعطى هذا العالم لأفكارنا الجزئية، المعانى المترابطة والوحدة الفكرية، ولا يعترف رويس بوجود حقيقة نظرية فقط أو لواقع غريب عن طبيعة الخبرة، ومن الواضح أن كل من يحيا كل هذه الحياة الواعية، يكون كائناً مجاوزاً للإنسان، وأرقى وعياً، فلا يعرف العالم الواقعى فقط، وإنما يكون هو العالم الواقعى، فكل من يكون واعياً بكل محتوى الخبرة يملك الواقع، وعندما نحاول اكتشاف العالم الواقعى، نحاول اكتشاف معنى حياتنا الفردية، ولن نستطيع معرفتها، إلا إذا كانت هناك حياة شاملة واعية تضم حياتنا وحوادثها وتحقق فيها أفكارنا أهدافها تحققاً كاملاً. معنى ذلك عندما أفكر فى العالم الواقعى، أكون جزءاً من هذا الكل، ولكن لا أعرفه معرفة كاملة، ويجب أن أبذل الجهد لمعرفته، وقد أصيب أو أخطئ، وسواء حصلت على الحقيقة، أو أخطأت فى التفاصيل، فإن ولائى للبحث عنها يؤكد صحة وحدتى مع الحياة الواعية للعالم. وأخيراً يتساءل رويس أليس هذا العالم الواقعى، هو العالم الذى يعترف به الدين؟ وإذا كان الولاء يعنى الاعتراف بوجود القضية فى عالم يفوق عالمنا، وتتحول القضية إلى مثل أعلى، كلما تمسك الإنسان بالولاء لها وخدمتها، ألا تتحد الأخلاق بالدين؟ إن الولاء يجعلنا ندرك الوحدة الحقة لحياة العالم، وهى وحدة قريبة منا، لأننا نحيا فيها، وبعيدة عنا فى نفس الوقت، لأننا لا نعرف فى خبراتنا، إلا تفاصيل بسيطة عنها. وحدة أبدية نحقق فيها أهدافنا وغاياتنا، فالولاء يحقق الوحدة الأبدية لحياتنا الإنسانية.

ومن الواضح أن فلسفة الولاء، تؤكد الصلة بين الفلسفة المثالية والحياة العملية، وعلى ارتباط الفلسفة بهموم الفكر والوطن. فإن كان "وليم جميس" قد ساهم فى تشكيل الروح الأمريكية، وباتت الفلسفة البراجماتية العملية السمة المميزة للفكر الأمريكى. فإن "جوزايا رويس" كان الفيلسوف، الذى حاول صياغة هذه النزعة العملية صياغة مثالية فقال بالبراجماتية المطلقة. ولئن كان "وليم جميس" قد حاول إحياء هذه الروح بمنطق عملى براجماتى، تمثل فيه الفردية المقام الأول، فلكل فرد معياره الخاص للصدق، وله تجربته الدينية الخاصة، فإن رويس قد حاول بعث هذه الروح بصهر الشعوب والأجناس التى كونت المجتمع الأمريكى فى وحدة واحدة. وإن كان جيمس قد ربط قيمة الفرد

بعملية ونتائج هذا العمل فى الواقع فإن رويس قد جعل من مبدأ الولاء للولاء. مقياساً لقيمة الفرد، وحلاً لمشكلة ولاء المهاجرين لأوطانهم الأصلية. وإذا كان " وليم جميس" قد قدم حلاً للمشكلة الدينية والأخلاقية التى ظهرت نتيجة للحرب الأهلية الأمريكية، وتشكك الأفراد فى قيمة الأخلاق الدينية التقليدية، وقال بالأشكال المتعددة للخبرة الدينية كحل عملى، وبديل لفقدان ثقة الأفراد فى الدين التقليدى، فإن رويس قد أقام فلسفة الولاء لمعالجة مشكلة المسيحية، وتحقيق الوفاق بين الدين والأخلاق. فاستبدل الولاء بالمحبة، وأسس فلسفة أخلاقية عقلية، ونظرية فى الواجب والضمير. فجاءت فلسفة الولاء حلاً للفتنة السياسية، ودعوة للوحدة الاجتماعية.(1)

وتظهر الرغبة فى التوفيق واضحة فى فلسفة " رويس "، فكل خلاف ظاهر، والتآلف جوهر التناقض الظاهرى، هناك وحدة تجمع الكل. فلا تناقض بين الفلسفة والدين، أو بين المثالية والواقعية وإن التوفيق لصالح المثالية، ويتم الجمع بين الحسى والعقلى فى المعرفة، والفرد والمجتمع، والعمل والنظر، فالذات الحقة تكمن وراء العقل النظرى والعقل العملى عند كانط، وإن كانت الحقيقة عند هيجل تكمن فى صراع الأضداد، فإنها تحويهم عند رويس. فالخطأ جزء أساسى من الحقيقة، ولا وجود لخطأ حقيقى، إلا فى وجود الحقيقة الكلية. وبغض النظر عن سبب هذه الرغبة فى التوفيق، أو أنها تجسيد للتسامح المسيحى ونموذج للمحبة، أو تأكيد لصحة المبدأ الأخلاقى الذى يطالب بتحقيق التناغم بين الإرادات المتصارعة. فإن الوحدة النهائية هى الغاية البعيدة التى يسعى إليها رويس، كان حدسه الأساسى تجاه نمو الوحدة، فى الذات والفكر والواقع.

فلا ذات بدون وحدة بين ماضيها وحاضرها ومستقبلها، ولا وجود لفكرة منعزلة، ومستقلة عن الأفكار، أو لا تسعى إلى ربط الداخل بالخارج، ولا معنى لواقعة خارجية مستقلة، لا تحقق وحدة الفكر والواقع. وهناك عالم واحد، يضمه وعى شامل أبدى، يعبر عن نفسه فيه، وكأنه يعبر عن جوهر اسبينوزا، بعض أن أكسبه أخلاقية فشتة، ومبدأ الهوية عن "شلنج". والحقيقة أن الدعوة إلى الوحدة كانت حدساً رئيسياً فى فلسفة رويس، بصورة عامة وأحدث أشكالاً متعددة فى مؤلفاته، ففى كتابه "الجانب الدينى

(١) د. أحمد الانصارى: فلسفة الدين عند "جوازيا رويس" ، رسالة دكتوراة، جامعة القاهرة ,١٩٩٧.

للفلسفة" وحدة الفلسفة والدين، وفى كتاب "العالم والفرد" بجزءيه وحدة العالم، وفى مبادئ المنطق وحدة النسق، وفى كتاب فلسفة الولاء، وكتاب مشكلة المسيحية، وحدة الفرد والمجتمع والأخلاق والدين، فالولاء محاولة لتجسيد الأبدى فى السلوك الإنسانى، ولا قيام لتفرد إلا فى مجتمع، ولا وجود لمجتمع إلا فى حرية أفراده .

ويمكن اعتبار فلسفة الولاء تبحث فى أصل الواجب الكانطى، أو تمده بروح هيجلية فالولاء يوضح للفرد واجبه. ويوحد الإرادة الذاتية والجمعية. فعندما يواجه الفرد موقفاً أخلاقياً محيراً، يبحث عنه فى داخل الذات، ثم يفتش عن حل له فى الخارج، ثم يعود إلى الذات مرة أخرى، لإصدار الحل لهذا الموقف. ولذا ينتج سلوك الولاء من ممارسة الفرد للجدل، من الداخل إلى الخارج ثم إلى الداخل من جديد، ويصبح سلوك الولاء نتاجا مركبا من الداخل أى رغبات الفرد، والخارج أى قيم المجتمع وتقاليده، فإذا كان الولاء أصل الواجب، فأصل الولاء التناقض، لأنه نتاج إرادتين متصارعتين دائماً، إرادة خيرة وإرادة شريرة، أو إرادة الفرد وإرادة المجتمع وبذلك يكتسب الواجب روحاً هيجلية، وحركة جدلية، وصيغة عملية، ويفقد صرامته وجموده وتجريده الشديد، ولئن كان يرتد فى النهاية إلى الذات العاقلة، وينبع منها، إلا أنه يكون قد حوى فى باطنه المواقف الاجتماعية، أو كأن الإرادة الجمعية، تمثل الجانب السلبى، أو تعد مرحلة من مراحل بناء الواجب. وبذلك تعتبر قضية الولاء محاولة للتوفيق بين كانط وهيجل، والحقيقة سواء أكانت فلسفة الولاء حلاً لمشكلة كانطية، أو توفيقاً بين كانط وهيجل، فكلا الأمرين مع الاتجاه العام لفلسفة رويس[١] .

غلب على المحاضرات أسلوب الخطاب الشفاهي، باستثناء القليل منها، الذى غلب عليه الطابع الفلسفى، الأمر الذى جعلها أقرب للخطابة منها دعوة للتأمل، ومحاولة لإثارة حماس المستمع نحو قضية الولاء للولاء، وكأن رويس يحاول أن يسهم فى حل مشكلات المجتمع، فكان حديثه أقرب لمخاطبة الجماهير، منه مخاطبة للمتخصصين، وإن كان يحاول استغلال انبهار العامة دائماً بالفلسفة. فاختار عنوان محاضراته فلسفة الولاء. غلب عليها التكرار والإسهاب، وكأنه يحاول تأكيد الأفكار، فكان داعية أكثر منه فيلسوفًا، يخطب ود المستمعين ولا يسعى لتثويرهم، يدافع عن

(١) فلسفة الدين عند "جوزايا رويس" ص ٤٥٩

كيان إجماعى قائم، ويسعى لإصلاح بؤر الخلل، مثل مشكلة المهاجرين وعلاقة الشباب بالمجتمع، وإن كان لم يتطرق لمشكلة التفرقة العنصرية، التى كانت فى تلك الفترة تعد من أعقد المشكلات التى تواجه مجتمع الحرية. ويسعى رويس لتحقيق الوحدة والتوافق الاجتماعى، فلا تعارض بين ولاء الفرد وحريته، ولا قيمة لقضية، لا يشارك الآخرون فيها. ويحقق الولاء إشباعاً لحاجة ضرورية لدى الفرد. ويمهد الولاء الطريق إلى التدين، بغض النظر عن جوهر هذا الدين، فإن كان المرء مؤمناً بعقيدة معينة، فالولاء أفضل طرق ممارستها وتأكيدها. وكأنه يبحث عن سند من الدين لفلسفة الولاء، فلا تعارض بين فلسفة الأخلاق والدين، أو يجيب عن سؤال متشكك يطرحه المتدينون عن فائدة فلسفة الأخلاق، أو يحاول الاستفادة من مخزون نفسى لدى الناس، أو من سلطة قائمة لها مكانتها فى نفوس الأفراد. ومبدأ الولاء للولاء. ليس مجرد نظرية أخلاقية نسترشد بها، أو مبدأ خيراً فى ذاته، وإنما يمهد الطريق للكشف عن حقيقة الوحدة الروحية، وبذلك لا يصبح الولاء مجرد قاعدة أخلاقية، بقدر ما هو وسيلة للسمو الروحى، وكشف عن حقيقة أبدية، وإدراك لعالم مجاوز للعالم الإنسانى. ومما يؤكد ذلك، محاولة رويس ربط المعاناة والآلام بالولاء للقضية، واعتبار القضايا الميئوس منها، أو التى تبدو خاسرة أفضل القضايا المستحقة، لأنها تثير الخيال، ويدفع الأمل فى تحقيقها إلى تصور عالم آخر مجاوز لحياتنا الإنسانية تتحقق فيه. وكأن رويس يود القول، بأن لولا صلب المسيح وآلامه (كما تقول المسيحية) لما استمرت المسيحية. ولكن لو تصورنا جدلاً، أن المسيح لم يعان الآلام، ونجحت دعوته للمسيحية، أكان ذلك مقللاً من الولاء لها. وإذا كان رويس يرى أن السعادة من أخطر العقبات المهددة للولاء، لأنها تحقق الشعور بالرضا والسكينة (١). أيعنى ذلك أن أصحاب الولاء كتبت عليهم التعاسة والشقاء والآلام والتعاسة أفضل طرق للخلاص .

ولئن كان "رويس" يرى أن الاتحاد بين الدين والأخلاق يأتى تلقائياً، إلا أنه يعد اتحاداً مشروطاً يجعل الأخلاق أسبق من الدين. فالشرط الأساسى لتحقيق هذا الاتحاد، يتمثل فى معاناة المخلص وشعوره بالحزن، نتيجة إخلاصه، لقضية تبدو ميئوساً منها، حتى يتوفر له الإيمان بعالم مجاوز لحياته، تكسب منه القضية اليائسة قيمتها ووجودها، من جهة أخرى، يجب تفسير الدين، على أنه عبارة عن نظرية أخلاقية

(١) المرجع السابق ، الفصل التاسع .

فى طبيعة الأشياء، وإيمان بحقيقة أبدية واحدة. فلئن أكد رويس، أن المخلص يحيا حياة دينية، إلا أنها حياة بمفهوم خاص. فالمقصود هنا دين العقل أو التأويل، وليس الدين التقليدى، ويصبح الدين تجربة عابرة فى حياة الولاء، إذا ما خضع للشروط يثريها ويتحد بها. ويمكن تبرير الاتحاد بين الدين والأخلاق من خلال انفعال الحزن والخيال، فيدفع الحزن المخلص، بعد خسارته للقضية، وبمساعدة الخيال، إلى الإيمان بوجود عالم مجاوز للإنسان، وكذلك المتدين يؤمن بوجود قضايا، لا يملك دليلاً على صدقها، ويصاحب إيمانه بالمعاناة، ولذا يمكن القول بأن الاتحاد بين الدين والأخلاق، يكون تلقائياً فى الجانب الوجدانى، أو العاطفى، ومشروطاً فى الجانب العقلى. وبالتالى يكون الوجدان هو التربة التى ينبت فيها الاتحاد بين الأخلاق والدين، وقيام العقل بتأويل الدين، وتحويل القضايا إلى مثل عليا، يعد الشريان المغذى لهذا الاتحاد. ولكن رويس لم يوضح فائدة الربط بين الأخلاق والدين، أو مخاطر الفصل بينهما، فيكفى أن يكون الفرد صاحب ولاء حتى يحقق خيره الأقصى، ويقتصر دور الدين على أنه، وإذا تم تأويله، وتحويله إلى رموز، يحقق للمخلص، بعض اللمحات عن وجود عالم مجاوز للإنسان، الأمر الذى يجعل هذا الدين، مجرد دين الولاء مصحوباً بنظرة صوفية للكون، يمكن له أن يحيا بدونها، كأن رويس يتفق مع كانط فى أن الدين لا يوضح للإنسان، كيف يكون سعيداً، أو يعلمه ما لا تستطيع الأخلاق مده به. فمن الواضح أن الولاء يستوعب الأديان، وله جذوره فى الطبيعة الإنسانية، وله ميتافيزيقاه، وسلوكه العملى، الذى يحقق للفرد خلاصه، ويشكل له معياراً للقيم، وله رسله، وأنبياؤه، الذين يضحون بأنفسهم فى سبيل قضاياهم، فيصبح الولاء ديناً وسلوك المخلص عبادة.

والحقيقة أن "رويس" لم يرفض النزعة الفردية، وبالرغم من مثاليته، واهتمامه بالمجتمع الذى يصل إلى حد التقديس، والنظر لروحه، على أنها المستحقة للولاء، إلا أن نظرته ترتبط بروح المجتمع الأمريكى القائم على النزعة الفردية، المؤمنة إيمانا جازما، بأنه لا تقدم، إلا بالتفرد والاستقلال الفردى. فكان أن قال، بأن خدمة الفرد لمصالحه، واهتماماته، وعدم القضاء على ولاء الآخرين، يعد خدمة للقضية، وبالأخص قضية الولاء للولاء[1].

(1) The Philosophy of loyalty P. 432

فيهتم رويس بالفرد بالرغم من مثاليته المطلقة، ونقده للمثالية الذاتية، فالفرد محور اهتمامه، بالرغم من دعوته الاجتماعية الواضحة، فحاول أن يبين أن قاعدة الولاء الأولى، أى مبدأ الولاء للولاء، لا يتعارض مع الفردية أو المذهب الفردى، فخدمتك لذاتك تحقيقاً لمبدأ الولاء للولاء، وبالتالى يصبح هناك نوع من تدعيم الفردية بأساس فلسفى أخلاقى ثابت، فافعل ما شئت، وتوقف عن التردد، واحسم الاختيار، فأنت تخدم الولاء للولاء. وإن كان هناك بعض الضوابط، مثل عدم القضاء على ولاء الآخرين والسعى إلى نشر الولاء، وضرورة اتصاف القضية الجديرة بالولاء، بالذاتية والموضوعية، فكلها أمور يمكن تفسيرها، بحيث تؤكد المذهب الفردى وتدعمه. وفى حقيقة الأمر لم ينكر رويس إيمانه بالمذهب الفردى، وإنما يحاول إعادة صياغته بصورة لا تتعارض مع التماسك الاجتماعى، فبات المجتمع مصبًا لرغبات الأفراد وغاياتهم، وليس سلطة قاهرة عليهم، يشكلهم فى قوالب مسبقة، إن الجمع بين نقيضين أو التوفيق بينهما، دائماً يميل إلى أحد الطرفين فى الحقيقة، أى بالرغم من تناقضهما الظاهرى، نلاحظ دائماً أن أحدهما يستوعب الآخر، إذا تم تحليلهما تحليلاً نقدياً وتأويلهما. ومن الواضح أن النزعة الفردية روح كامنة فى أخلاقية رويس بالرغم من مظاهرها الاجتماعية، وتقديسه لفكرة المجتمع. فغايات الأفراد تشكله، ويلجأ إليه الفرد ليرتد إلى ذاته مرة أخرى، فالمجتمع وسيلة وليس غاية، والذات هى البداية والنهاية، والمجتمع مصب لغاياتنا وليس منبعاً لها.

وبالرغم من مهاجمة "رويس" للمذاهب الواقعية، التقليدية والجديدة، ورفضه لاستقلال العالم عن الأفراد، أو وجود عالم مستقل هناك، منفصل عن الذات، وأن له كيانه القائم ووقائعه المستقلة، سواء وجد الفرد أم اختفى، فإن مذهبه لا يخلو من عناصر الواقعية، فيجد نفسه مضطراً لإثبات وجود عالم مستقل، وإن كان مجاوزاً للعالم الإنسانى، تحيا به القضايا المستحقة للولاء. فبالرغم من أن القضايا تشكل جزءاً من الوعى الفردى، أو من وعى مجموعة من الأفراد، إلا أن وجودها يكون وجوداً مستقلاً فى عالم أبدى، حقيقة إن هذا القول يتسق مع اعتبار العالم الواقعى، عالماً مجسداً للأبدى، إلا أن ذلك لا يفسر العالم الذى توجد به هذه القضايا المستحقة للولاء، فلا توجد فى عالم العقول الفردية، بل فى عالم مجاوز لحياة الإنسان، وكأن عالم المثل الأفلاطونى قد عاد من جديد، لم يوضح رويس صفات هذا العالم المجاوز للإنسان أو تلك الحياة التى تحيا بها المثل العليا، وربما قال بهذا العالم المجاوز لعالمنا الإنسانى

تشجيعاً لأصحاب الولاء، وإعطاء مسحة دينية، وأمل بعيد يغرى به أصحاب العقول المحبطة والفاشلة ولكنه فى جميع الأحوال ينسب وجوداً واقعياً له.

وإذا كان الولاء لقضية معينة، يبدأ بالإعجاب بها، ولا يعرف الفرد صلاحها أو فسادها، إلا بعد خدمتها، حقيقة أنه يطبق بعض المقاييس الصورية، ولكن المحك النهائى لا يتأتى إلا من ممارستها فى الواقع ؟ [١] السؤال الذى يفرض نفسه الآن، ما الذى يؤدى إلى إعجاب المرء بقضية معينة من بين القضايا ؟ إن الاعتماد على انفعال الإعجاب، يجعل الانفعال والعاطفة أساس الأخلاق، وبذلك يقترب "رويس" من برجسون فى اعتباره الانفعال أساس الأخلاق. يكون الولاء نتيجة حب وإعجاب بالقضية، وإذا احتار الفرد فى الاختيار، عليه الالتزام بمبدأ الولاء للولاء، والاختيار وعدم التردد، الأمر الذى يدفع الفرد إلى الأختيار اعتماداً على حسه الخلقى، أو الوجدانى، وبذلك يصبح الولاء نوعاً من الحماس العاطفى، وليس قائماً على فهم وإدراك الوعى. وإذا ما اكتشف الفرد فساد القضية عليه التوقف عن الإخلاص لها[٢] وكأن الولاء الأعمى أحد مراحل الولاء والتجربة هى المحك لإصلاح أو فساد القضية، وتظل أخلاق الوجدان أخلاقاً ناقصة إلى أن تؤيدها التجربة المعاشة ولئن كان رويس يعتبر وجود القضية الفاسدة جزءاً ضرورياً من الخير الكلى، إلا أن هذه القضية الفاسدة، التى يتم اختيارها بالاستناد إلى العاطفة، دون العقل، لمعرفة نتائجها، لا تمثل خطأ ضرورياً، وإنما خطأ حياتى اجتماعى، وكم من نتائج اجتماعية، تترتب على الولاء لقضية فاسدة، وكانت سبباً فى الانهيار الاجتماعى، واندلاع الحروب بسبب الولاء الأعمى لها، حقيقة شعور الفرد بالحزن والمعاناة، عندما يكتشف فساد القضية التى يخلص لها، إلا أنه لم يوضح مدى الضرر الاجتماعى الذى قد ينتج عنها، وبذلك تظل الأخلاق فى جوهرها ذاتية، وإن كانت فى ظاهرها اجتماعية، وسلوك الولاء، مازال سلوكاً انفعالياً، أكثر منه عقلياً. ومع ذلك يسن رويس قاعدة هامة ويطالب بأن يكون الإنسان على استعداد دائم للتفانى فى خدمة قضية معينة، ولا ينظر لمدى نجاحها أو فشلها، أو لثمار يجنيها من الولاء لها، وكأنه يعيد صياغة القاعدة الإسلامية التى تطالب الإنسان بإتقان العمل، بصرف النظر عن نوعه، ونتائجه الحسية. وإن كان الإنسان يشعر أحياناً، بأن جهده ضائع، أو

(1) Ibid P. 186
(2) Ibid P. 182

باليأس والإحباط، ويفقد الأمل فى المستقبل، فإن ذلك نوع من الوهم. وليس صحيحاً على الإطلاق، ففلسفة الولاء تثبت لنا، أن ما من جهد يبذله الإنسان، فى عمل من الأعمال، أو فى شئ من الأشياء، يمكن أن يضيع، حتى ولو بدا لنا فى الظاهر، أنه ضاع وتبدد. فالحقيقة أنه باق، وله مكان معين فى زمان ما، أثر نبيل. ونتائج طيبة، فالمهم أن يخلص الإنسان، فى أداء ما يقوم به من أعمال، ولا ينتظر النتائج السريعة، فليس هناك جهد إنسانى يضيع ويتبدد، وكما قال طاغور شاعر الهند العظيم "الجهد الإنسانى لا يموت" وكل جهد إنسانى له ثماره الخيرة، حتى لو تصورنا أنه جهد ضائع، فيجب احترام جهد الإنسان، وممارسة الولاء للولاء، فالولاء الحقيقى تجسيد للأبدى فى الأفعال الإنسانية.

د. أحمد الأنصارى

القاهرة ٢٠٠١

تمهيد

في عامى ١٩٠٦ و ١٩٠٧ وأثناء قيامى بالتدريس فى الفصل الدراسى الصيفى فى جامعة "هارفارد". ألقيت مجموعة محاضرات، بعنوان "مقدمة فى الأخلاق وعلاقتها باهتمامات المدرسين"، وقمت بإلقاء ملخص، للمبادئ الأساسية، لهذا المذهب الأخلاقى، الذى تم تقديمه فى صيف عام ١٩٠٦، أمام جمع من الأكاديميين، أثناء زيارتى المختصرة لجامعة "ألينوى" فى شهرى يناير وفبراير من عام ١٩٠٧. ولقد قمت أيضاً بعرض جزء من آرائى فى الأخلاق، فى عدة أماكن مختلفة فى الشرق والغرب ففى صيف ١٩٠٧، قمت بإعادة تدريس، أربع محاضرات عامة فى الموضوع، أمام الفصل الدراسى الصيفى لمادة اللاهوت فى جامعة هارفارد. ولقد تم عرض المحاضرات التى تشكل موضوع هذا الكتاب، لأول مرة فى معهد "لوويل فى بوسطن، فى شهرى نوفمبر وديسمبر من عام ١٩٠٧.

وعند تقديم هذا العرض الجديد للموضوع فى معهد لوويل، كانت هناك فرصة الاستفادة من الانتقادات التى قد تم توجيهها للموضوع، أثناء عروضى الأولية والسابقة للموضوعات الرئيسة، التى تضمها فلسفة الولاء. فالمحاضرات التى تم تدريسها، كانت عبارة عن إعادة صياغة للموضوع، بصورة جديدة. فقط المحاضرة الخامسة، بعنوان "مشكلات أمريكية"، تعد محاضرة جديدة نسبياً، حيث لم أعرضها، عرضاً تفصيلياً من قبل. وقد يلاحظ أن المذهب العام الذى تضمه فلسفة الولاء قد تمت مناقشة العديد من جوانبه، وموضوعاته مع الكثير من الأصدقاء، والطلبة، والنقاد. ولذلك، آمل أن يظهر هذا العمل، قيمة الآراء التى قد اكتسبتها، من الحوارات المتعددة، والمناقشات المختلفة، التى أجريتها فى أماكن عديدة.

ولقد قمت بتدريس المذهب الأخلاقى، الذى أعرضه فى هذا الكتاب. أثناء العام الدراسى ١٩٠٧ - ١٩٠٨ بوصفى أستاذاً زائراً لجامعة، بيل، لطلبة الدراسات العليا، وفى سلسلة من المحاضرات الأسبوعية. وبالرغم من أن العمل الذى أعرضه الآن، يتعلق بمحاضرات أكاديمية، إلا أنه لا يعد مرجعاً أو بحثاً فلسفياً أكاديمياً. وإنما

عبارة عن مرشد، لكل قارئ يعشق المثل العليا أو يرغب فى مراجعة مثله العليا، بروح فلسفيه جديدة. حقيقة أن الولاء، كلمة قديمة، ولها قيمتها الخاصة، والفكرة العامة عن الولاء، أسبق زمنياً من الكلمة نفسها بل وأكثر قيمة. ولكنها تظل دائماً، فكرة مشوشة، غير واضحة فى عقول الناس، بسبب علاقتها بمسائل أخلاقية واجتماعية، فكل فرد سمع كلمة الولاء، ويمدحها الكثير من الناس، ولكن عددا قليلاً جداً، من يفهم معناها الحقيقى. ويدركها بوصفها محور كل الفضائل، والواجب الرئيسى بين كل الواجبات .. ولكى يستطيع المرء أن يدرك هذا المعنى الأصيل للولاء، عليه أن ينقى الكلمة من كل الشوائب التى علقت بها من ارتباطها بهذه أو تلك العادة الاجتماعية. ولن يستطيع تحقيق ذلك، إلا إذا عرف المصطلح تعريفاً دقيقاً، وبصورة أكثر تحديداً وضبطاً عن تلك التى يتناولها التعبير الشائع. والواقع أن تخليص فكرة الولاء من كل ما قد يكون قد علق بها من تفسيرات خاطئة أو علاقات زائفة بأفكار أخرى، وإثبات أن روح الولاء هى الروح الحقيقية للحياة الأخلاقية والعاقلة للإنسان – هو ما أعتبره جديداً فى فلسفتى عن الولاء". ويشكل مفهوم "الولاء للولاء" الذى عرضته فى المحاضرة الثالثة، الجزء الهام من هذا العمل الفلسفى الأخلاقى. وأما باقى المحاضرات، إذا كانت فلسفتى الأخلاقية تعد فلسفة جديدة إلى حد ما، أحاول أن أعرض فيها. لما أعتبره ممثلاً ومعبراً عن المعنى العميق والروح الحقة لكل أصحاب الولاء، مهما كانت ولاءاتهم وتعريفهم للولاء ولمعنى الولاء .

إن إدراك الواجب فى ضوء مفهوم الولاء، والذى أحاول توضيحه، لن يمتد ليشمل المجال الأخلاقى فقط، وإنما يمتد ليؤثر فى نظرة كثير من الناس لكل من الحق، والواقع والدين. ولئن قد قمت بعرض آرائى الفلسفية العامة فى كتب متنوعة، وبصورة تفصيلية فى كتابى المعروض فى جزئين، بعنوان " العالم والفرد ". وليس لدى ما أضيفه لآرائى الميتافيزيقية الرئيسة. إلا أنى لم أقدم أى عرض شامل لآرائى الأخلاقية، منذ العرض المختصر الذى قدمته للمشكلات الأخلاقية فى الجزء الأول من كتابى " الجانب الدينى للفلسفة " (طبع عام ١٨٨٥). ولما كان الإنسان ينضج أخلاقياً مع مرور العمر فإنى أعتقد أن عملى هذا، قد يساعد على الأقل بعض القراء، على إدراك أن الفلسفة المثالية، التى دافعت عنها طويلاً، ليست فلسفة منفصلة عن الحياة العملية، بل وعلى صلة وثيقة بأمور الحياة العملية، وأن كلاً من الدين والحياة العملية، قد يحققان الكثير، من وجود

ارتباط ووحدة صحيحة، تقوم بين الأخلاق ونظرية فلسفية عن العالم الواقعى .

ويكثر الحديث فى التيارات الفلسفية الأدبية عن "طبيعة الحق"، "والمذهب البراجماتى" ومن الطبيعى أن تستفيد أى دراسة أخلاقية من هذا الموقف أو الوضع، وتناقش العلاقة بين " العملى" و "الأبدى". ولقد ناقشت هذه العلاقة فى الفصل الختامى من هذا العمل ولكى أستطيع إنجاز ذلك، كان لزاماً على الدخول فى جدل معين بالنسبة لمشكلة الحقيقة. أعارض فيه آراء معينة أعلنها حديثاً، واحد من أعز أصدقائى، ومن أكثر الناس ولاء، وأستاذ لى فى شبابى، وزميل مخلص لسنوات عدة، وهو الاستاذ "وليم جميس". والواقع أن وجود مثل هذا الجدل، فى كتاب يناقش الولاء، كان من الممكن أن يعتبر نوعاً من الحشو الزائد، إن لم نكن كلانا، قد اتفقنا على أن "الحقيقة، هى الصديق الأكبر لنا". وأشك كثيراً فى قدرتى على إنجاز مثل هذا العمل، الذى أعرضه الآن، إن لم أكن ممن تتلمذوا على يد الأستاذ "جميس". ولابد أن أعترف صراحة بالدين الكبير له. ولئن كان لكل منا نظرته الخاصة للحقيقة. ونختلف فى رؤيتنا للحق، فإننا مازلنا نحتفظ بصداقتنا، وأعتقد أن موقفنا هذا، خير تعبير عن روح الولاء.

والواقع أنى لا أكتب هذا الكتاب للفلاسفة فقط، وإنما لكل محبى المثل العليا، بل ويمكن أن أضيف أيضاً، لكل محب لوطنه.. ولمن يسعى للحياة المثالية، ولكنه يعانى من كثرة وتعقد مشكلاته السياسية والاجتماعية. إن تبسيط المبادئ الأخلاقية للناس وتنقية العقول للنور الأبدى، وإثارة الحماس للولاء، يعد عملاً غاية الأهمية لمواطنى هذا البلد. وآمل أن يساهم هذا الكتاب، ولو بنصيب ضئيل فى إنجاز هذه المهمة وتحقيق هذه الغاية.

ومن بين العديد من الأصدقاء (المؤيدين والمعارضين منهم)، والذين أدين لهم، لمساعدتى فى إنجاز هذا العمل، سواء لما قدموه من انتقادات، واقتراحات لابد أن أخص بالذكر، أولاً زوجتى التى ساعدتنى بالمشورة، وفى مراجعة الكتابة، ثانياً أختى، الآنسة "روث رويس"، المقيمة فى "سان جوزيه" بكاليفورنيا، والتى ناقشت معها خطة هذا العمل فى صيف عام ١٩٠٧، ثم أخص بالشكر أيضاً الدكتور " كابوت " فى بوسطن، والدكتور بوتنام، وأخيراً زميلى العزيز الاستاذ " جورج بالمر " .

المحاضـــرة الأولـــى

طبيعـــة الولاء والحاجـــة إليـــه

من أهم الاتجاهات السائدة فى عصرنا الحاضر، الاتجاه نحو مراجعة التقاليد، ودراسة الأسس التى تقوم عليها معتقداتنا القديمة، وأحياناً قد نصل إلى درجة هدم ما كان يبدو لنا من المسائل المسلم بها، والواضحة بذاتها ولئن كان هذا الاتجاه. كما نعرف جميعاً مألوفاً فى عالم النظريات الاجتماعية والمعتقدات الدينية. إلا أن العلوم الدقيقة أيضاً، لم تسلم من تأثير المولعين بالمراجعة المستمرة للثوابت من القواعد.

ولقد بات هذا الاتجاه الحديث واضحاً فى مجال الأخلاق. فشاركت الأخلاق التقليدية كلا من الدين والعلم الدقيق فى المعاناة من معاول النقد. ولئن كان القانون الخُلقى يتعرض على مر العصور للهجوم من قبل العصاة، إلا أن ما يميز موقفنا الأخلاقى اليوم، أن القانون الخلقى، لا يتعرض للهجوم من قبل العصاة والأشرار فقط، وإنما شاركهم الكثير من المصلحين وأنصار المصلحة العامة، والمبشرين بالوحدة الروحية لأجيال المستقبل، وكل محبى الإنسانية، فى المطالبة بتغييرات كبيرة فى المعايير الأخلاقية التى تحكم حياتنا، لقد بات مألوفاً من أجيال قليلة مضت.. أثناء فترة انتشار المذهب الاشتراكى والمذهب الفردى، عند كارل ماركس، وهنرى جورج، وإبسن ونيتشه، وتولستوى .. أن نسمع كثيراً من المحبين المخلصين للإنسانية، يعلنون أحياناً، أن قوانيننا المتعلقة بحقوق الملكية، لا تتصف بالأخلاقية، ويهاجمون باسم الفضيلة الروابط الأسرية، بوصفها روابط لا قيمة لها، ولا تستحق اعتبارها من المثل العليا. إن المذهب الفردى ذاته وفى كثير من صوره المتطرفة، نجده يؤكد على أنه يتحدث باسم الأخلاقية الحقة للمستقبل، والحركة التى بدأت فى ألمانيا على يد نيتشه - أى الاتجاه لما أسماه أصحاب الفكر الفلسفى "تحويل طبيعة القيم الخلقية تحويلاً تاماً" .. أدت فى السنوات الأخيرة، إلى شيوع الدعوة القائلة، بأن كل الأخلاق التقليدية القديمة، مهما كانت قيمتها، أو نفعها فى عصرنا الحديث، تعد أخلاقاً زائفة، وما هى إلا مرحلة انتقالية من مراحل التطور ولابد من تغييرها جذرياً وتبديلها كلية. إن المثل المشهور القائل "بأن

المناسبات الجديدة تعلمنا واجبات جديدة"[1] يلخص روح الثورة الحديثة ضد الأخلاق التقليدية.

والآن إذا نظرنا للمحاولات الأخلاقية الحديثة ووجهات النظر المختلفة، التى نتجت عن هذه الانتقادات، سريعاً ما نشعر بالحيرة والتحفظ. فإذا تم توجيه النقد لأسس العلم مثلاً، من دعاة الإصلاح فى عصرنا، نعرف جميعاً، أن العلوم لديها القدرة على تدبير أمرها. وكذلك بالنسبة للدين، ولئن كان كثير من أصحاب القلوب الرقيقة، يقعون فى الحيرة والارتباك، إلا أن كلا المؤمنين والشكاك لا يزالون ينظرون لهذا الوضع، على أنه من مقدرات عصرنا، سواء كانت الشكوك الدينية مصدرها، أو نتجت بسبب طريقة الله فى التعامل مع عالم متقلب، أو أنهما علامة ودليل على انتقال الإنسان إلى درجة أعلى من درجات التنوير .

ولكن المسألة تختلف بالنسبة للأخلاق، فكثير منا لا يميل للتشكيك فى أسس الأخلاق. لأن المسألة تتعلق بكل من العالم المرئى والعالم اللامرئى، بالحقائق التى تبرر الجهد المبذول على العلوم الرقيقة، وبالآمال فى انتشار المحبة التى يسعى إليها المتدينون. وما قيمة العلم، وما قيمة الدين، إذا كانت الحياة ليس لها معايير أخلاقية، يستطيع بها المرء قياس قيمتها؟ فإذا ما تم التشكيك فى معاييرنا الأخلاقية ذاتها، فسريعاً ما يشعر على الأقل البعض منا - بنفاذ سهام الشك إلى قلوبنا.

- ١ -

لذلك وفى ضوء الاتجاه الحديث لمراجعة التقاليد والآراء القديمة وانتقال هذا الاتجاه لمجالات جديدة وبالأخص الميدان الأخلاقى، فإنى أرى أن قيام دراسة لأسس الحياة الخلقية، قد بات أمراً ملحاً. ولذلك سوف أتناول فى هذا العمل القيام بهذه الدراسة. وأهدف من هذه المناقشات إلى غايتين عملية وفلسفية.

وأكون سعيداً حقاً، إذا سمح لنا الوقت المتاح أن نناقش معاً كل المشكلات

(١) العبارة من أقوال الشاعر الأمريكى "جيمس راسل لويل" ١٨١٩ - ١٨٩١ . (المترجم) .

الأخلاقية. ونجرى مراجعة منهجية لمشكلاتها الرئيسة. إذ أود أن أناقش معكم طبيعة وأساس وحقيقة القانون الأخلاقى، بحيث نبحث المشكلة من جميع الزوايا التى تهم الفلاسفة. ولئن تمنيت طرح بعض هذه الجوانب، فى هذه المحاضرات إلا أن المحاضرات الثمان، لا تكفى لمعالجة هذا الفرع من الفلسفة المسمى بالأخلاق كما أعلم تماماً، أنكم لم تأتوا إلى هنا، لتستمعوا لما قد يقوله أحد دارسى الفلسفة حول موضوع أو مشكلات خاصة به. وبناء عليه، لن أحاول، عرض أى نسق فلسفى أخلاقى، وأكتفى بعرض الغاية العملية فى هذه المحاضرات.

إن عصرنا، عصر يعانى من الحيرة والارتباك، تجاه المثل الأخلاقية العليا، وتجاه الواجبات الرئيسية، ويتشكك فيما، إذا كانت هناك خطة مثلى للحياة الإنسانية، ولا يواجه عصرنا هذه الحيرة، بسبب طبيعته المتمردة، أو إهمال عام للواجبات الأخلاقية. وإنما يشعر بها بسبب دعاتنا من الأخلاقيين ومصلحينا. وسواء كان هؤلاء المعلمون للأخلاق، على خطأ أو صواب فى ثورتهم على الأخلاق. فقد أصابونا بالحيرة والارتباك، ودعوا إلى الشك فى أحكامنا الخلقية، وإلى المطالبة بتغيير طبيعة القيم تغييراً جذرياً. فتأثرت حياتنا العملية وفقد الكثير منا الثقة، التى كان يحتاج إليها للقيام بالأعمال الخيرة، واتجه أصحاب الضمائر للتشكك فى قيمتها وتأثيرها. لذلك، لن تؤدى أى محاولة لشرح الأسس التى تقوم عليها الحياة الخلقية، إلى رؤية واضحة، وإنما إلى وجود أساس قوى ومتين لأفعالنا. ولتحقيق هذه الغاية، لا أطلب منكم، أثناء هذه المحاضرة، أن تفكروا فى المشكلات الأخلاقية للبحث عن حلول لها وإنما أن تتجهوا مباشرة إلى تنفيذ الأفعال. وإذا ما حاولت عرض أجزاء من الفلسفة الخلقية، فسوف أحاول تبريرها بتطبيقات عملية لها. ولا أهتم كثيراً بموافقتكم على الآراء والصيغ الأخلاقية التى أعرضها عليكم، وإنما أرغب أن تساعد هذه الصيغ، على نمو روح معينة، تساعدكم على تفسير الحياة، التى نرغب جميعاً أن نحياها، ولا أرغب فى هذا العرض، تقديم نقد لهؤلاء المصلحين والأنبياء[1]. الذين سببوا حيرتنا تجاه تقاليدنا الأخلاقية، أو أنضم إليهم مشجعاً على مزيد من الحيرة والارتباك، إن مرادى وعلى قدر استطاعتى، عرض بعض الوسائل، التى تساعد على فهم وإدراك موقفنا الأخلاقى.

(١) المقصود هنا أصحاب المذاهب الأخلاقية الكبرى من الفلاسفة .

أتفق مع الدعوة المطالبة، بضرورة نقد ومراجعة معاييرنا الأخلاقية التقليدية فنحن فى حاجة إلى أسماء جديدة، وأرض جديدة ويعد الشروع فى البحث عنهما، مطلباً ضرورياً مهما كانت الصعاب التى قد نواجهها، ومهما كانت الشكوك فى وجودهما. وإذا كان شعورنا بالقلق تجاه المسائل الأخلاقية، يتضمن إحساساً يمثل هذه الحاجة، فإنه يعد شعوراً مفيداً. وباستخدام المقارنة التى اقترحها نقاد الإنجيل المحدثون .. فإن أخلاقنا تشبه بالفعل الأسفار الخمسة الأولى من التوراة، تكونت من مجموعة من الكتابات القديمة، ويعاد طبعها دائماً من جديد، وتحتاج لمراجعة نقدية، ولما كنت دارساً للفلسفة، فإن النقد، مهنتى الرئيسية. ولن أقترح أمراً أو فكرة فى هذه الدراسة، دون إخضاعها لمعايير النقد، وللمراجعة المستمرة ولكن ومن جهة أخرى، لا أعتقد أن القلق يعد الغاية أو الوضع النهائى، ولا أرى أن غاية الحكمة الإنسانية، إثبات أن الحقيقة، يتعذر الوصول إليها. إذ أنها متجددة ومتغيرة. فأنا مؤمن بالأبدى، وأسعى إلى الأبدى. ولا أحب أن تكون المعايير الأخلاقية على وجه الخصوص، وكما يشيع فى أيامنا، متصفة بالاغتراب الروحى وعدم الألفة، وأن تكون المثل العليا بعيدة عن الوضوح العقلى. وأريد معرفة الطريق الذى يقودنا إلى حياتنا العملية الإنسانية، حتى لو كان طريقاً طويلاً ولا نهاية له. ولا أتذمر لمجرد الرغبة فى التذمر، وليس مرادى، مساعدتكم قدر استطاعتى على مراجعة بعض المعايير الأخلاقية التى تعتنقونها، وإنما مساعدتكم لأن تجعلوا لهذه المراجعة غاية ومنهجاً .

ولما كانت المعايير الأخلاقية كما قالت "أنتجون"، ليست معايير اليوم أو الأمس، فإنى أعتقد أن المراجعة، لا تعنى فى هذا المقام، مجرد القطيعة مع الماضى .

ولقد قضيت أنا نفسى حياتى كلها فى مراجعة آرائى. ومع ذلك كنت كلما قمت بالمراجعة الفاحصة لمعاييرى الخلقية، أجد نفسى قادراً على اكتشاف مزيد من المعانى الحقيقية، للأخلاق التقليدية، غالباً ما تخفى وراءها روحاً طيبة، يعجز الناس عن إدراكها. وغالباً ما نستطيع عند مراجعتها أن ندرك هذا المعنى السامى الكامن فى صيغ أخلاقية، قد تبدو قديمة وبالية، أو ربما قد تبدو حسب تعريفها السطحى القديم

(١) المقصود انتجون ابنة أوديب وردت قصتها فى أغلب كتب الاغريق والرومان ، وتناولها شعراء التراجيديا الثلاثة، أيسخولوس، سوفوكليس، يوربيديس، وذاعت شهرة "أنتجون " بأنها شهيدة الإخلاص والواجب، ونمط لحيرة الإنسان بين القانون الإلهى والقانون الوضعى "المترجم"

صيغاً ضارة أو شريرة. فلا تعنى المراجعة مجرد الهدم. وتستطيع أن تقول دائماً للتعاليم القديمة إن البذور لا تنمو سريعاً، إلا إذا ماتت. ولكننا نستطيع دائماً فى عالم الفكر أن نجد نوعاً من البعث للميت.. بعث يظهر فيه ما كان مشيناً، شريفاً وعظيماً، وما كان فاسداً، سليماً ومعافى. فدعونا ندفن الجسد الطبيعى للتقاليد، ونبحث عن جسدها السامى وروحها الخالدة.

- ٢ -

لقد عنونت هذه المحاضرات " بفلسفة الولاء ". وأعترف صراحة أنى استلهمت هذا العنوان، فى الصيف الماضى، أثناء قراءتى للعمل المتميز للعلامة فى علم الأجناس، الدكتور " رودلف شتاين متز، فى جامعة هاجو، والمعنون باسم "فلسفة الحرب". فلقد كانت فكرتا الحرب و الولاء، فكرتين بينهما علاقة وثيقة. وجانب كبير من عملى أو مهمتى فى هذا العمل، وتلك المحاضرات، أن أفصل بين هاتين الفكرتين، وأقضى على هذا الارتباط القديم بينهما فى تصوراتنا وتفكيرنا، وأبين كيف غمض المفهوم الحقيقى للولاء، بسبب اعتبار المحارب، النموذج الكامل والممثل الأفضل للولاء الفكرى. ولقد كان شتاين متز، على أية حال، من أصحاب النظرة التقليدية للولاء. وطبقاً لوجهة نظره، أن الحرب توفر فرصة هامة ونادرة للإخلاص النابع من الولاء، فإذا ما اختفت الحروب، تفقد المدنية واحدة من أفضل قيمها. ولئن كنت واعياً بالتقابل الشديد والحاد بين نظرية "شتاين متز" ونظريتى، فإنى أتفق معه، كما تلاحظ فيما بعد، حول أهمية الولاء، بوصفه مبدأ رئيسياً للحياة الخلقية، ولا أتفق معه على الاطلاق بالنسبة لعلاقة الحرب بكل من الولاء الحق والمدنية بصورة عامة. ولقد أوحى لى هذا التناقض باقتباس صيغة العنوان، الذى استخدمه، شتاين متز.

والمقصود بعبارة فلسفة الولاء، أن تبين أولاً، أننا نعتبر الولاء هنا، مبدأ أخلاقياً. لأن الفلسفة تتناول المبادئ الأولى. وتعنى ثانياً، أننا نرغب دراسة المسألة دراسة نقدية وعملية فى نفس الوقت. لأن الفلسفة فى جوهرها، ما هى إلا نقد الحياة. ولا يمكن أن نطلق صفة الولاء على كل عمل، ولا نستطيع أن نعتبر كل صورة من صور الولاء،

صورة معبرة عن المعنى القديم للكلمة. ولما كان مصطلح الولاء، قد علمناه، بوصفه كلمة قديمة شائعة تعبر عن الخير، بدون تحديد دقيق لمعناها. فإن من واجبنا أن نحاول تعريف المصطلح وتحديده، تحديداً دقيقاً بقدر الإمكان، وتحافظ فيه على روح المصطلح القديم. كذلك علينا عند تقدير مكانة الولاء فى الحياة الخلقية ألا نخضع للسلطة التقليدية، ولا نستمع لصوت أهوائنا الشخصية الخاصة. ونعتمد على العقل قدر الإمكان، لأن الفلسفة ما هى إلا محاولة وضع الأسباب والتبريرات لآرائنا. علينا ألا نمدح، دون ترو وفحص، ولا نرفض تبعاً لأهوائنا وعواطفنا.

فأينما تظهر خيرية الولاء، علينا أن نعرف لماذا، وعندما يؤدى الولاء، أو ما اصطلح الناس على تسميته بالولاء إلى الضلال والضياع، علينا أن نعرف، أين يكمن الخطأ. ولما كان الولاء مصطلحاً نسبياً، ويتضمن دائماً، وجود موضوع معين، وقضية معينة، يكون الولاء موجهًا إليها، فلابد من معرفة الموضوعات المناسبة للولاء. وللإجابة على هذه الأسئلة المتنوعة، لابد أن تحاول فلسفتنا عن الولاء، أن تغوص فى أعماق السلوك الإنسانى، وتصل إلى أسس المعايير الأخلاقية، بقدر ما يتوفر لدينا من وقت هذه المحاضرات .

وعندما يتم بذل كل هذه المحاولات، تجاه معالجة فلسفية لموضوعنا، ويتم تحديد الفرق بين الولاء الصحيح والولاء الخاطئ، ونضع شروط الموضوعات المستحقة والمناسبة للولاء، ونضح البراهين العقلية لآرائنا، فإننا نحصل على درس عملى عظيم واحد، أو عبرة عملية هامة، أود الإشارة إليها بسرعة الآن، وأعود إليها تفصيلاً فى خاتمة المحاضرة. هذا الدرس هو : أن الولاء إذا تحدد تحديداً صحيحاً، يعد التحقق الكامل لكل القانون الخلقى.. ويمكنكم، وبكل ثقة، أن تقيموا نظامكم الأخلاقى وتؤسسوه على مفهوم عقلى للولاء. فالعدالة والمحبة والواجب والحكمة والحياة الروحية، مصطلحات تصبح قابلة للتعريف فى ضوء مفهوم عقلى للولاء. وأستطيع القول بأن مثل هذه النظرة للعالم الخلقى.. وهذا التركيز المتعدد لكل أنواع الواجبات ولكل الفضائل حول مفهوم واحد للولاء العقلى.. يؤدى خدمة عظيمة لنا بوصفه وسيلة لتوضيح المشكلات الأخلاقية المحيرة فى عصرنا وفى حياتنا.

وهكذا أكون قد وضحت المهمة التى يكلفنا بها العنوان الذى أخترناه. وأما باقى

هذه المحاضرة، فمخصصة لتمهيد الطريق، ووضع نظرة مبدئية لموضوعنا. فبداية لابد أن أضع تعريفاً جزئياً مؤقتاً لمصطلح الولاء، إذ أنى مستخدم هذا المصطلح. ولئن كنت أود وضع تعريف كامل ونهائى، ولكنى شعرت بعدم مقدرتى على تحقيق ذلك.. وتستطيعون أن تعرفوا سبب عجزى فى محاضرات لاحقة. ولكن الآن. أود أن ألفت انتباهكم، قدر استطاعتى، لبعض الصفات التى أعتبرها صفات أساسية لمفهومى للولاء عن الولاء.

- ٣ -

ويعنى الولاء طبقا لهذا التعريف الأولى، التفانى الإرادى والعملى والدائم، من قبل فرد ما تجاه قضية معينة. فيتصف الفرد بالولاء، أولاً، إذا كان لديه القضية التى يتجه بولائه لها. وثانياً، عندما يهب نفسه لخدمتها طواعية. وثالثاً عندما يعبر عن هذا الإخلاص والتفانى للقضية، بطريقة عملية مقبولة، وبخدمة القضية بصورة فعالة ودائمة. ومن أمثلة الولاء، إخلاص المواطن لوطنه، واستعداده للتضحية بحياته من أجله. إخلاص المؤمن لدينه. تفانى قائد السفينة فى تأدية وظيفته، فإذا ما واجهت السفينة كارثة، لا يغادرها الإ بعد بذل قصارى جهده لإنقاذها، ومغادرة كل طاقمها وكل من عليها، ويكون مستعداً للغرق معها، إذا اقتضت الضرورة .

وتعد هذه الصور نماذج تقليدية للولاء. ومن الواضح أنها تتضمن رغبة صاحب الولاء فى خدمة قضيته. فلا تستحق قضية معينة ولاء فرد ما، إلا إذا كانت لديه رغبة حقيقية لخدمتها. ويكون إخلاصه نابعاً من ذاته. فيختارها ويتمسك بها فى كل الأحوال ولابد من ترجمة إخلاصه ترجمة عملية. وعندما يقوم بعمل، لابد أن يكون فى خدمة قضيته. إن الولاء لم يكن أبداً مجرد عاطفة. كذلك تتضمن خدمة الولاء، نوعاً من استسلام وخضوع رغبات الفرد الطبيعية للقضية. فيستحيل الولاء بدون وجود نوع من التحكم الذاتى. وعندما يخدم الفرد قضيته، لا يتبع رغباته فقط، وإنما يتخذ من قضيته مرشداً له. إذ ترشده القضية لما ينبغى القيام به، وعليه تنفيذ الفعل. وأخيراً لابد أن يكون الإخلاص كاملاً، فيكون الفرد مستعداً لأن يحيا أو يموت، تبعاً لتوجيهات القضية ومتطلباتها.

أنتقل الآن إلى كلمة أخيرة عن الجزء الأكثر صعوبة فى هذا التعريف المبدئى. فلقد قلت إن صاحب الولاء لديه قضية. ولم أقل إن لديه قضية حسنة أو خيرة قد تكون قضيته قضية شريرة أو سيئة. ولم أوضح بعد، ما الذى يجعل قضية معينة، قضية خيرة ومستحقة للولاء. فكل ذلك ندرسه فيما بعد. ولكن أستطيع بداية أن أقول : إذا اختار فرد ما الولاء لقضية ما، فإنها لابد أن تكون قضية ذات قيمة شخصية له وإلا كيف يكون مخلصاً لها؟ ولذلك لابد أن يكون مهتماً بها، ومحباً لها، وسعيداً بها من جهة أخرى، لم يعن الولاء، مجرد الشعور بالمحبة تجاه القضية، ولم يكن أبداً مجرد وسيلة تحقق بها سعادتك الخاصة، أو مصلحة ذاتية. لأنه إذا كنت مختاراً للولاء، فإنك تنظر لقضيتك، بوصفها كياناً مستقلاً عنك فى الخارج. فإذا كنت تحب وطنك، مثلاً وتستغرق القضية كيانك كله، فإنها تظل بالرغم من ذلك، أكبر وأكثر اتساعاً من ذاتك الخاصة. وتعتقد أن لها قيمتها الخاصة. وأن هذه القيمة تظل كائنة، حتى إذا فقدت اهتمامك الشخصى بالقضية. وبذلك تؤمن بأن لقضيتك قيمة موضوعية، وأنها شئ موضوعى مستقل عن ذاتك الخاصة. لا يستمد قيمته من مجرد سعادتك به، أو لمجرد رغبتك فيه، وإنما المسألة على العكس من ذلك إذ تعتقد أنك تحبه بسبب استقلاليته وقيمته الخاصة، التى يظل محتفظاً بها، حتى بعد وفاتك، وربما كان ذلك السبب، الذى يجعل الفرد مستعداً للموت من أجل قضيته. على أية حال، عندما يخدم الفرد قضيته، لا يكون ساعياً لميزة خاصة أو لمصلحة شخصية.

كذلك لا تتصف القضية التى يختار الفرد الولاء لها، بأنها قضية غير شخصية كلية، لأنها تكون محور اهتمام أناس آخرين غيره. فالولاء اجتماعى. وإذا كان الفرد خادماً وفياً لقضيته، فلابد من وجود من يشاركه هذه الخدمة، ولكن يلاحظ من جهة أخرى أنه طالما تتجه القضية إلى توحيد وجمع العديد من القائمين بخدمتها فى عمل واحد، فإنها دائماً ما تبدو لعاقد الولاء، على أن لها استقلالها، وصفتها اللاشخصية أو المجاوزة لحياته(١) فتستطيع أن تحب فرداً ما، ولكنك لا تستطيع الولاء إلا إلى رابطة معينة، تجمعك مع الآخرين فى نوع من الوحدة، والولاء للأفراد من خلال هذه الرابطة فقط. إن القضية التى يمكن الولاء لها، تتصف دائماً بتحقيق وحدة بين الشخصى وجانبها المجاوز لحياة الفرد الشخصية وتربط العديد من الأفراد فى خدمة واحدة. فالأحباء

(١) تم ترجمة اللفظ الإنجليزى Supperhuman بمعنى المجاوز للحياة الإنسانية، ولا يقصد رويس، بمثل هذا العالم للمجاوز للحياة الإنسانية، بأنه عالم مفارق لعالمنا أو مستقلاً عنه كلية أو أنه عالم أشبه بعالم المثل الأفلاطونية، أسبق من عالمنا، أو تحاكى حياتنا حياته. "المترجم"

الأوفياء مثلاً، لا يختار كل منهم الولاء للآخر بوصفهم أفراداً مستقلين، وإنما يعقد كل منهم ولاءه، للحب الجامع بينهم، والرابطة الموحدة لهم، والتى تبدو فوقهم. وشيئاً مستقلاً عنهم، إذا نظر إلى كل منهم بوصفه ذاتاً مستقلة.

وهكذا نجد أن نظرتنا الأولى للولاء، وتعريفنا الناقص للولاء، لم يقدم لنا حلاً للمشكلات المتعلقة بطبيعة الولاء، وإنما فجر لنا مشكلات جديدة، ولكن على العموم بات لدينا فكرة مبدئية عن الطبيعة العامة للولاء.

- ٤ -

فإذا ما تقدمنا خطوة تالية، نجد أن كثيراً من الناس، يشعرون بأنهم فى حاجة للولاء وأن الولاء مصدر خير لهم. ولكن إذا تساءلتم عن لماذا يحتاج فرد ما للولاء، فإنكم سريعاً ما تشعرون بصعوبة الإجابة وتعقدها. فقد يحتاج المواطن فى رأيكم للولاء أولاً بسبب حاجة وطنه لخدماته، وربما قد تفيضون بأنه مدين بالفعل بهذه الخدمة، ولذلك يحتاج للقيام بواجبه، حتى يتصف بالولاء. وهكذا تصبح الطريقة الأولى لتفسير حاجة فرد ما، لولاء معين قائمة على التأكيد بأن القضية المحددة تتطلب خدمة معينة من إنسان ما. فالقضية قضية خيرة ومستحقة للولاء، ويجب على هذا الفرد خدمة هذه القضية. لذلك يحتاج للولاء. ولهذا الولاء بالتحديد. ولكن من الواضح أنك لكى تحدد حاجة هذا الفرد المعين للولاء، عليك أن تحدد ما هى القضايا المستحقة للولاء، ولماذا يجب على هذا الفرد، أن يخدم قضيته، والإجابة على مثل هذه الأسئلة، تفترض مسبقاً وجود نسق كامل من الأخلاق، وهو نسق لا نعرف عنه شيئاً حتى الآن، فى هذه المرحلة من بحثنا.

ولكن تظل هناك طريقة أبسط وأسهل لتقييم الولاء وتقديره. فنستطيع أن نتخلى على الأقل الآن، عن كل الأسئلة المتعلقة بقيمة القضايا. وسواء كان الفرد عاقداً ولاءه لقضية خيرة أو قضية فاسدة ، فإن سلوكه الشخصى، إذا كان يحيا حياة الولاء، يتصف بصفة عامة معينة . فكل من يحيا حياة الولاء، يكرس نفسه للقضية مهما كان نوعها ، ويكون مخلصاً ونشيطاً ، ومسلّماً لذاته، ومحباً للقضية، ومؤمناً بها. لذلك من يحيا حياة الولاء، يشعر بحالة عقلية معينة، لها قيمتها الخاصة لديه. فإن تحيا حياة

الولاء، مهما كانت قضيتك، يعنى أن تحيا متحرراً من كل مصادر القلق وعدم الرضا النفسى. ولذلك غالباً ما يقضى الولاء على حالة من التردد، لأن من الواضح أن القضية توجه الفرد لما يجب القيام به من أفعال. ومرة أخرى يتجه الولاء إلى تحقيق وحدة الحياة، واستقرارها وثباتها.

ومن الواضح الآن، أن هذه الجوانب الخاصة بالولاء، تعد من الأمور الخيرة للإنسان، الذى يحيا حياة الولاء. ونستطيع بالفعل أن نعرف سبب حاجتنا للولاء تعريفاً أوليا نعتمد فيه على هذه النظرة الأدنى للولاء. فننظر له، بنوع من التجريد المتعمد، وبعيداً عن القضية التى يختار الفرد الولاء لها. وبذلك نستطيع أن ننظر للولاء، حتى هذه اللحظة، على أنه سلوك شخصى، يحقق به الفرد الخير لنفسه، أو يتصف بالخيرية. إن هذه النظرة الضيقة أو الأولية للولاء، هى ما أود منكم الانتباه إليها فى الجزء المتبقى من هذه المحاضرة. وكل ما أقوله الآن مجرد عرض مبدئى. فالنتائج سوف نصل إليها فى حينها فيما بعد. فدعونا ببساطة نهمل مسألة، ما إذا كانت القضية التى يعقد الفرد الولاء إليها، قضية تستحق من الناحية الموضوعية ولاءه أم لا. ودعونا نسأل، ما الذى يحققه أو يكسبه الفرد من كونه من أصحاب الولاء؟ ولنفرض أن إنساناً، قد راقت له قضية خارجية وترتبط فى نفس الوقت بذاته الخاصة، فما هو الخير الذى يتحقق له شخصياً من ولائه لهذه القضية؟ ولكى تتم الإجابة على هذا السؤال، حتى فى هذه الصورة الأولية، فلابد من الخروج قليلاً عن موضوعنا، وأعرض عليك واحدة من أعقد مشكلات حياتنا الشخصية وأصعبها .

- ٥ -

ما الذى نحيا من أجله؟ ما هو واجبنا؟ ما هو المثل الأعلى الحق للحياة؟ ما هو الفرق الحقيقي بين الصواب والخطأ ؟ وما هو الخير الحق الذى نسعى إليه جميعاً؟ إن من يبدأ دراسة هذه الأسئلة دراسة جادة، سريعاً ما يلاحظ، إن كان له أن يجيب عن هذه الأسئلة إجابات صحيحة، مجموعة من الحقائق الهامة المتعلقة بالحياة الخلقية.

الحقيقة الأولى أن أول معرفتنا، بما يجب علينا القيام به، وبما يجب أن يكون مثلنا

الأعلى، وعموماً ما تعلمناه عن القانون الخلقى، قد جاء من سلطة خارجية مستقلة عن إرادتنا الخاصة. فلقد اكتسبنا معرفتنا عن الصواب والخطأ من مدرسينا ومن آبائنا ورفاقنا فى اللعب ومن المجتمع والعادات وربما من الكنيسة أيضاً. إن القانون الخلقى قد جاءنا من الخارج. ودائماً ما يبدو لنا شيئاً مستقلاً عنا وغريبا عن إرادتنا شيئاً يهددنا أو يلزمنا اجتماعياً، يضغط ويقيدنا من الخارج، وطالما ظل تدريبنا الخلقى ناقصا. يظل القانون الخلقى، مرتبطاً بهذه السلطة الخارجية، حتى يحظى باحترامنا. ولكن إذا كان لنا أن نكتسب القانون الخلقى، أو أى جزء منه، ولم نعد نسأل، عن كيف بدأنا نتعلمه، أو عن بداية معرفتنا به، أو عن كيف يمكن معرفة المزيد عن واجبنا، أى لو كانت المسألة على العكس من ذلك وسألنا : "ما السبب الذى يمكن أن أبرر به لنفسى، أن فعلا ما من الأفعال يعد فعلاً صحيحاً ؟ وما هو السبب الذى يجعل واجبى واجباً؟".. حينئذ، لن تجد بالفعل أى سلطة خارجية يمكن أن تقدم سبباً واحداً لما يجعل أى فعل من الأفعال صائباً أو خاطئاً. فقط مجرد نظرة عاقلة هادئة، لما أريده أنا شخصياً .. تستطيع حسم هذا السؤال. فيكون واجبى ببساطة هو إرادتى، وقد أصبحت واضحة أمام الوعى الذاتى. وما أدركه بوصفه خيراً بالنسبة لى هو ببساطة عبارة عن رغبتى، أو موضوع رغبتى العميقة، وقد بدا واضحاً وظاهراً أمام البصيرة لأنه بمجرد أن تصبح إرادتك ورغبتك الخاصة واضحة للوعى الذاتى، فإنها تبين لك السبب الوحيد، الذى تستطيع أن تعرف منه، ما هو صواب وما هو خاطئ.

ويعد هذا الطرح الذى أقدمه لطبيعة القانون الخلقى، أمراً مألوفاً لكل دارس جاد للأخلاق. بل ويتم الاعتراف بصورة أو بأخرى من قبل أشد أنصار القول بالسلطة الخارجية تطرفاً، بأن السلطة الخلقية النهائية لكل فرد منا، تحددها إرادته العاقلة. وقديماً وضّح سقراط هذا المبدأ، عندما قال لا يوجد إنسان شرير بإرادته. وطور كل من أفلاطون وأرسطو مذاهبهما الأخلاقية انطلاقاً من هذا المبدأ. ولئن اعتبر القديس أوغسطين فى فقرة من "اعترافاته" إرادة الله هى الإرادة الوحيدة، التى تجد فيها إرادتنا الراحة والسلام، وأنها الإرادة الوحيدة المتحكمة فى الكون، إلا أنه قد بين أن معرفتنا بالإرادة الإلهية الحقة وصوابها هو أن الله قد جعل الطبيعة الداخلية لإرادتنا، لا تهدأ ولا تسكن، إلا إذا انسجمت مع الإرادة الإلهية. ولذلك إحساسنا بعدم الراحة، فى لحظات عدم الانسجام، يبين لنا سبب شعورنا بصواب استسلام إرادتنا الذاتية.

إذن، فإذا أردت أن تعرف ما هو صواب وما هو خير لك، عليك أن تجعل إرادتك الخاصة واضحة للوعى الذاتى. فواجبك هو ما تريد ذاتك أن تفعله، طالما كان لديك فكرة واضحة عمَّن تكون، وعن المكان الذى تحتله فى العالم. وهذا بالفعل من المبادئ الأولى لكل بحث فلسفى. ولقد سماه كانط بمبدأ الاستقلال الذاتى، أو التوجه الذاتى، للإرادة العاقلة لكل كائن أخلاقى .

ولكن سريعاً ما نجد مبدأ ثانياً يساوى هذا المبدأ الأول، ولا يقل أهمية عنه، وهذا المبدأ هو، أنى لا أستطيع أن أكتشف إرادتى، أو أعرف ماهيتها، من مجرد التأمل فى رغباتى الطبيعية، أو من ملاحظة رغباتى اللحظية المتلاحقة. فلست إلا مستودعاً لتيارات متغيرة لا حصر لها، وإذا ما نظرت إلى من لحظة لأخرى، وبعيداً عما تعلمته لن تجدنى إلا مجموعة من الرغبات. ولا توجد رغبة واحدة، أشعر بها دائماً، وأجدها واضحة أمامى لذلك، إذا ما تركت لذاتى وحدها، لن أستطيع معرفة إرادتى.

وقد يعترض أحدكم مستنداً على الدعوة القائلة، بأن هناك دائماً رغبة وحيدة، أسعى إليها، وبالتحديد رغبة الهروب من الألم والحصول على اللذة. ولكن عندما تحاولون تطبيق هذه النظرية على وقائع الحياة، سريعاً ما تكتشفون أنها دعوة باطلة، وفى أفضل الحالات، تردكم مرة أخرى وتحت مسميات مختلفة، إلى فوضى العواطف والمصالح والاهتمامات المتعارضة، والتى تشكل بعيداً عن التدريب والتربية، حياتكم الطبيعية. إن ما نرغبه يتحدد دائماً بغرائزنا الطبيعية وبنوع من التربية والتدريب الذى قد تتلقاه فنزيد التنفس، وتناول الطعام، والمشى، والجرى، والحديث، والرؤية، والسمع والمحبة والتقاتل، وأشياء أخرى كثيرة، من بينها رغبتنا فى المعقولية. والآن، إذا دفعتنا إحدى رغباتنا الغريزية فى أى لحظة، إلى القيام بفعل ما فإننا عادة ما نشعر بسعادة من هذا الفعل، طالما حقق إشباعاً للرغبة. وذلك لأن الفعل تبعاً للرغبة، يعنى التخلص من التوتر، ودائماً ما يرتبط بالسعادة. ومن جهة أخرى، إذا لم نعطل النشاط نشعر بالألم. ولكن يلاحظ أنه تحت ظروف معينة، قد يمكن لهذه السعادة أو هذا الألم الناتج من تحقيق الفعل أو عدم تحقيقه، أن يشكل موضوعاً لرغبتنا. فنحن نحب السعادة ونكره الألم، ولكن كثيراً من الأشياء التى نرغبها، تحكمها الغريزة بعيداً عن تذكر الألم أو اللذة أو توفيقهما، ودائماً ما تأتى متعارضة، مع ما قد نستمد منه لذة أو ألماً. فيعد

أمراً طبيعياً أن يرغب المرء الطعام، لأنه جائع، وليس بسبب محبته للسعادة التى يستمدها من مائدة الطعام. والباحث عن الماء فى الصحراء ليروى ظمأه، لا يبحث عن اللذة أو الألم، وإنما يبحث عن الماء الذى يطفئ ظمأه. ولأن إحساسه بالألم، يظهر فى الوعى الذاتى مرتبطاً بالرغبة فى الماء. فإن الألم قد يكون شراً بالفعل، ولكنه يعد ثانوياً بجانب الرغبة المحرومة أو غير المشبعة، وحتى عندما يظهر الألم بوصفه واقعة فى الشعور، ونكرهها بالفعل، فإنه يكون فى هذه الحالة واحداً من الشرور الكثيرة فى الحياة. وواحداً من الأشياء العديدة غير المرغوبة.

وقد يكره الطفل الذى أصيب بحروق النار، ولكن الطفل الذى يتسلق الأشجار والمحب غريزياً لحياة أسلافه القدماء من ساكنى الأشجار، نادراً ما يردعه الألم الذى قد يسببه السقوط المفاجىء .

كذلك إذا اعترفت، بأنى أرغب اللذة دائماً، أو أتجنب الألم، ولا شئ هناك غير ذلك، فإنى لن أعرف من هذا المبدأ ما الذى يجب أن أفعله حتى أستطيع التعبير عن رغبتى فى السعادة، أو لكى أهرب من الألم. ولأنه ليس هناك فن أصعب من فن الحصول على السعادة. ولا أستطيع اكتساب هذا الفن وحدى، فإنى لن أستطيع تحديد إرادتى الخاصة، أو معرفة واجبى، تبعاً لمبدأ اللذة والألم.

- ٦ -

وهكذا نجد أنفسنا أمام موقف يتصف بالتناقض الظاهرى ويمثل الموقف الأخلاقى لكل منا. فإذا أردت معرفة واجبى، لابد أن أستشير إرادتى العاقلة. فأنا وحدى القادر على أن أبين لنفسى لماذا أعتبر هذا أو ذاك واجباً لى. ولكن من جهة أخرى عندما أفتش فى ذاتى، عمّا أرغب، أو عمّا أريد، وعن طبيعتى الفردية الخاصة، وبعيداً عمّا اكتسبته من معارف وتدريب، لا أجد أى إجابة عن سؤالى، ماذا أريد ؟

فحسب طبيعتى، لست إلا ضحية الأسلاف، وكتلة من البواعث والعواطف المتعلقة بالتقاليد القديمة، وأشعر بالسعادة والتعاسة، تبعاً للظروف، وتتغير رغباتى حسب تغير

الأحداث، وحسب إلحاح هذه الرغبة أو تلك من رغباتى الطبيعية. إذن بدون تلقى تدريب معين، وبالركون إلى الفطرة فقط، لا أستطيع معرفة ذاتى، وليس لدى إرادة شخصية، ولذلك يعد من أحد وأهم واجباتى الرئيسة فى الحياة أن أتعلم، أن تكون لى إرادة خاصة. فإن تعلم ماذا تريد، وأن تخلق وتبنى إرادتك الخاصة، تعد مهمة من أشق مهامك الإنسانية.

ويكمن التناقض الظاهرى فى أنى وحدى القادر على أن أبرر لنفسى خطتى للحياة. ولا تستطيع أى سلطة خارجية أن تبين لى السبب الحقيقي للواجب الذى ألتزم به. ولكن فى نفس الوقت، إذا تركت لذاتى لا أستطيع أن أكتشف أبداً خطة لحياتى. فليس هناك مثل أعلى فطرى، يكون كامناً فى ذاتى، إذا ما التجأت إلى طبيعتى، لن أجد إلا إرادة ذاتية مشوشة تماماً، تعصف بها الرغبات اللحظية.

إذن متى أستطيع أن أتعلم أى خطة من خطط الحياة ؟ إن التربية الخلقية لأى إنسان متحضر من السهل ان تنبهكم إلى مدى خصوصية هذا السؤال فى بعض جوانبه، ولكن طالما أن النظام التربوى العادى مازال مستمراً، فإن من الممكن إجابته. فيستطيع الفرد منا، أن يتعرف على الخطط المختلفة للحياة، من النماذج التى يمارسها أقرانه. ففى البداية تأتى لنا خطط الحياة مرتبطة وضمن الأنشطة التقليدية، التى نحاكى بها أفعال الآخرين.

وتبدأ عملية تقليد الآخرين منذ نعومة أظافرنا وتستمر مدى الحياة. فنتعلم اللعب والكلام والتعامل مع العالم الاجتماعى، وممارسة أدوارنا فى الحياة الإنسانية ولئن كان هذا النشاط الاجتماعى القائم على المحاكاة، يعود إلى غرائزنا بوصفنا كائنات اجتماعية، إلا أن الأنشطة الاجتماعية بدورها، هى التى تتجه فى البداية إلى تنظيم كل غرائزنا، وتحقيق الوحدة لعواطفنا ودوافعنا، وتحيل حالة الفوضى التى تكون عليها رغباتنا الطبيعية إلى نوع من النظام فتجعل لنا نسقاً خاصاً لجمعها، حتى وإن كان عادة نسقاً غير مكتمل. إن وجودنا الاجتماعى، بوصفنا كائنات مقلدة، يقدم لنا، كل أنماط الخطط الحياتية، التى قد نكتسبها عندما نحترف مهنة ما، أو نمارس عملاً فى الحياة، أو عندما نكتشف مكانتنا فى العالم الاجتماعى.

فكل خططنا الفعلية فى الحياة، وبالأخص الحرف التى نمارسها، وأنشطتنا اليومية المستقرة نسبياً تأتى لنا كلها من الخارج. ولا نعرف ماهية إرادتنا الخاصة، إلا من محاكاة إرادات الآخرين أولاً.

ولكن مرة أخرى، نجد أن ذلك لا يمثل كل حقيقة موقفنا الاجتماعى، وكل حقيقة الموقف الأخلاقى. فلقد قلنا، إننا إذا ما بحثنا فى أعماقنا أو حياتنا الباطنية، لن نستطيع أن نكتشف أى خطة حياتية يمكن أن تعبر عن إرادتنا الحقيقية ثم أضفنا بأن كل خطط حياتنا، يطرحها لنا النظام الاجتماعى الذى نحيا به. ولكن نلاحظ من جهة أخرى، أن نظامنا الاجتماعى يقدم لنا مجموعة من الخطط الحياتية المختلفة، والتى وإن كانت ليست عشوائية تماماً، إلا أنها ليست خططاً منظمة، تنظيماً كاملاً، تعبر عن حياة مثالية وعلاوة على ذلك لا يقتصر تدريبنا الاجتماعى، على تعليمنا أنماط سلوك الآخرين، وإنما من خلال المقارنة، يثير لدينا إحساسنا الطبيعى، بأهمية أن يكون لنا سلوكنا الخاص بنا، وخططنا الحياتية الخاصة بنا. فالتدريب الاجتماعى ينشط إرادة الأنا الفردى، ويعلمه أيضاً وسائل وطرق التعبير الذاتى. فلم نكن أبداً مقلدين فقط، ولئن كان التوافق يجذبنا. إلا أنه يقلقنا أيضاً. وفى نفس الوقت، وحتى قبل قيامنا بالتقليد فإننا دائماً ما نعرف إرادتنا الذاتية، ونعرف أيضاً كيف نحققها. فمثلاً نتعلم نطق الكلام من تقليد الآخرين، ولكن سرعان ما نحب أن نسمع حديثنا، وبالتالى تتأثر تبعاً لذلك كل خطة حياتنا، فلئن كان تعلم النطق، بالفعل يقوم على الإذعان الاجتماعى والتوافق، إلا أن اللسان، عضو عاص، لا ينصاع للنظام ويميل إلى الثورة والتمرد، فعلم الناس العادات، وإذا بك تمدهم بأسلحة للتعبير عن شخصياتهم، فعندما تدرب الكائن الاجتماعى، تستغل ميله الطبيعى للاستسلام. ولكن نتيجة لما تلقاه من التدريب. يقوم بتشكيل الخطط، ويفسرها طبقاً لاهتماماته الخاصة، ويصبح واعياً بكيانه، وربما يصبح فى النهاية ثائراً، أو على الأقل مشاغباً صعب المراس. ولذلك دائماً ما يقوم المجتمع بتدريب الأطفال، الذين غالباً ما يتمردون على أمهاتهم. إن التوافق الاجتماعى يمدنا بقوة اجتماعية، تجعلنا ندرك كياننا ومن نكون. ولأول مرة، يصبح لدينا إرادة حقيقية خاصة بنا. وسريعاً ما نكتشف التعارض الحاد بينها وبين إرادة المجتمع. وهذا ما يحدث لنا جميعاً، فى مرحلة الشباب .

وهكذا ترى، كيف أن العملية التى تقوم عليها حياة الإنسان الخلقية، تتضمن هذا الدور الذى لا ينتهى للداخل والخارج. فكيف يتحدد واجبى ؟ فقط بإرادتى التى أصبحت واضحة وضوحاً عقلياً للوعى الذاتى. ولكن ما هى إرادتى ؟

لا أستطيع معرفتها من الطبيعة، لأنى منذ ميلادى، لست إلا مجرد دوامة صغيرة فى تيار عاطفى إنسانى موروث ومضطرب. فكيف إذن أستطيع تكوين إرادة خاصة ؟ أستطيع فقط من خلال التدريب الاجتماعى. إذ يعرض الخطط أمامى، ويعلمنى الأساليب والوسائل الصحيحة لفهم عالمى. ومع ذلك، لا يعلمنى هذا التدريب حقيقة، إلا الفنون والأساليب التى أستطيع بها التعبير عن نفسى. فيجعلنى ماهراً، طموحاً، وثائراً، وعالماً بطرق معارضة النظام الاجتماعى. إن هذه العملية الدائرية، التى أشرنا لها باختصار، تستمر طيلة حياة العديد منا. وتتخذ صورا جديدة فى كل مرحلة من مراحل حياتنا المختلفة. فننظر فى أعماقنا، وسريرتنا، نبحث عن الضمير، لنعرف واجبنا. ولكن بمجرد قيامنا بذلك، نشعر بمدى تغير أهوائنا وتقلبها، ولذلك نبحث فى الخارج عن فهم أفضل، للعالم الاجتماعى، فإن لم نستطع رؤية النور الداخلى، علينا أن نسعى للنور الخارجى. ولما كان تعلم هذه الأساليب الاجتماعية، يعتمد على قدرتنا على المحاكاة، فإننا نتعلم من الآخرين كيف نسلك، وما الذى يتوجب علينا فعله حتى نحيا. ولكن، نلاحظ فى نفس الوقت، أن هذا النمط من التعليم، يمكننا من المقارنة بين أنفسنا والآخرين. فنكتسب الوعى الذاتى بأنفسنا، ونشعر بالتفرد ونتجه إلى النقد والتمرد، ونرد مرة أخرى إلى ذواتنا، نفتش فيها عن واجبنا، وعن التوجه والإرشاد. فعندما أرى حياة العالم، أدرك أنها ليست حياتى. فأعيد إحياء ذاتى، مؤكداً لوجودها. وأشعر بأن واجبى ينبع من ذاتى. وهكذا ربما أعود مرة أخرى إلى سريرتى وقلبى الطائش المتقلب.

والواقع أن هذه العملية، قد تستمر فى حلقة دائرية، لا أمل فى الخروج منها وخاصة عندما تواجهكم المشكلات والمواقف الأخلاقية المعقدة. فتشعرون بالحيرة بعد طول التفكير والتأمل فيها وتقررون اللجوء للأصدقاء للحصول على المشورة. ولئن كنتم تسعدون بالمشورة والنصائح التى تقدم إليكم، إلا أن الموقف ذاته يثير إرادتكم الذاتية، وربما ينتج عن ذلك مزيد من الحيرة والتشتت. وكلنا نعلم معنى البحث عن المشورة،

وطلب النصيحة، الذى ينتهى دائماً، باكتشاف مدى أخطائنا فى البحث عنها أو طلبها.

فلا أحصل من الداخل أو من الخارج، على ما يمكن أن أعتبره سلطة ثابتة .. خطة حياة مستقرة وثابتة ومنسجمة.. إلا إذا كان هناك بالفعل نوع من الوحدة الراسخة بين الداخل والخارج، بين العالم الاجتماعى الذى أحيا به وبين ذاتى، بين أسلوبى وأسلوب الآخرين. ويمكن لمثل هذا الاتحاد أن يحدث، عندما تتحول عملية توافقى الاجتماعى، واستسلامى له بوصفى كائناً مقلداً، إلى ما أطلق عليه.. فى هذه المحاضرات – اسم الولاء – فدعنا ندرس ما الذى يمكن أن يحدث فى مثل هذه الحالات.

- ٧ -

لنفرض وجود كائن اجتماعى، مكّنه الإذعان لمجتمعه من تعلم الكثير من المهارات الاجتماعية مثل فن الحديث ومهارة النزال، والتغلب على الآخرين، ولنفرض أن هذه الفنون الاجتماعية، قد أيقظت إحساس هذا الفرد بكرامته، وبثقته بنفسه وميله إلى إثبات ذاته. فيكون لدى هذا الرجل، ما يمكن أن نطلق عليه اسم، الإرادة الاجتماعية.

فلم يعد فوضوياً، وبات مدرباً على الطاعة، ولا يمكن أن يصبح عدواً للمجتمع، إلا إذا هيأت لهالظروف غير العادية، تحقيق مراده بدون معاناة من وخز الضمير وتأنيبه. من جهة أخرى، وفى نفس الوقت يكتسب هذا الفرد إرادة ذاتية قوية. ويصبح مغرماً بالنجاح وبالتحكم والسيطرة وانصياع الآخرين لمطالبه. ومن المؤكد أنه لا يشعر داخله بإرادة ذاتية فطرية. وإنما يجد مجرد تصميم عام على تحديد طريق خاص به، وعلى أن يكون له واجبه الخاص. لذلك طالما أن ذلك وضع الحياة الإنسانية. فإن الصراع بين الإرادة الاجتماعية والإرادة الذاتية، صراعاً حتمياً ولا فكاك منه. فالاعتماد على التقليد والاستسلام للمجتمع من جهة، ونزعة الفرد لأن يكون فرداً ما من جهة أخرى، مسألة لا تمكن الفرد أبداً من أن يكون له خطة واحدة ونهائية للحياة، أو يصل إلى تعريف واحد محدد لواجبه .

ولكن لنفرض الآن، أن عاطفة عظيمة من العواطف الاجتماعية، ولتكن عاطفة

الوطنية مثلاً، قد ظهرت فى حياة هذا الرجل الذى نتحدث عنه ولتكن بلده فى خطر .

ولندع ميله الفطرى للصراع يلتحم هنا، مع حبه الأخوى لأبناء وطنه، مكوناً صورة إنسانية مسلوبة القدرة ومتعطشة للدماء ولكنها تكتسى بمسحة صوفية شديدة، والتى يمكن أن نسميها، بروح الحرب، وربما تبرر الظروف أو لا تبرر هذه الحالة التى نحن بصددها. لأن ذلك لا يهمنى الآن. ففى أفضل الحالات، لا تعد روح - الحرب، حالة واضحة أو حالة عقلية فى ذهن أى إنسان، ولكن من الأسباب التى تجعل الناس يحبون هذه الروح عندما تظهر، أنها تحدد فى الحال خطة للحياة .. خطة تقدم حلاً للصراعات بين الإرادة الذاتية والإذعان للمجتمع. وتتصف هذه الخطة بصفتين : (١) أن الفرد يمتثل من خلال خطة اجتماعية لطاعة الإرادة العامة لوطنه. أى تتصف بالإذعان. (٢) وأنه من خلال إعلاء الأنا، للإنسان الفرد، والذى يشعر بالعظمة من خلال تضحيته، وبالكرامة فى استسلامه الذاتى، يسعد بأن يكون خادماً لوطنه وشهيداً لعقيدته، أى يكون متأكداً، أنه من خلال هذه التضحية بالذات، يصل إلى مرتبة البطل .

فإذا ما شعر الفرد، الذى نفترض حالته، بمثل هذه العاطفة، فإنه يصبح واعياً، بما أسميه الولاء. ولم يعد هذا الولاء يواجه شيئاً من الصراعات القديمة بين الإرادة - الذاتية والإذعان للمجتمع. ولئن كانت الأنا، فى هذه اللحظات، تتجه للخارج، بحثاً عن خطتها فى الحياة. فتقول "البلد تنادينى أو تحتاجنى" فإنها تتجه فى نفس الوقت نحو الداخل، بحثاً عن تبرير لهذه الخطة. فتقول" إن الشرف وتاج البطل والموت فى المعركة، والإخلاص الوطنى، مرادى وإرادتى. ولن أتنازل عن هذه الإرادة ومن أجل كرامتى وكبريائى وتأكيد ذاتى، لابد أن أكون مستعداً لتلبية نداء وطنى " والآن لا وجود لصراع الداخل والخارج.

ولا نهتم الآن بمعقولية أو شرعية أو حتى الفائدة العملية لمثل هذه العاطفة، فتلك مسألة أتناولها فيما بعد. وكل ما أود توضيحه الآن، أن هذه الروح - القتالية، حولت التضحية بالذات إلى تأكيد للذات، وتلبية نداء الوطن، إلى نوع من التعبير الخارجى عن قوى الفرد الخاصة. فيعنى الشرف الآن، الخنوع، وباتت الطاعة تعبيراً عن إرادة الفرد. فالقوة والخدمة شىء واحد. ولم يعد الاتفاق والإذعان للمجتمع معارضاً لإرادة الفرد الخاصة. فلا توجد إرادة خاصة وإنما هناك إرادة الوطن.

من الواضح إذن، أن من طبيعة الإنسان الحقة، وجود عواطف اجتماعية تؤدى إلى حدوث أمرين : (١) إثارة الشعور الذاتى، فنزداد تصميماً على التعبير عن إرادتنا، وعلى الثقة فى التمسك بحقوقنا، وبقدرتنا، وكبريائنا، وسلطتنا وقيمتنا. (٢) أن تبين لنا، أن ليس هناك غاية تسعى إليها إرادتنا، أو هدف خاص بنا، وإنما هناك سلطة اجتماعية معينة علينا تنفيذ أوامرها. وهذه السلطة الاجتماعية، هى القضية التى نختار الولاء لها.

فالولاء يوجه انتباهنا إلى قضية معينة، ويأمرنا بالنظر خارج ذواتنا، للبحث عن هذه القضية الموحدة. ويرشدنا نحو خطة معينة للفعل، وأخيراً يقول لنا " فى هذه القضية حياتكم، وإرادتكم، وفرصتكم، لتحقيق ذاتكم، واكتمال وجودكم. "

لذلك يقدم الولاء بوصفه سلوكاً شخصياً، حلاً للتناقض لوجودنا الطبيعى، بأن يوجهنا فى الخارج تجاه القضية المستحقة للخدمة، ويوضح لنا فى أنفسنا الإرادة، التى تسعد بتقديم هذه الخدمة، والتى لا تكبت، وإنما تنمو حياتها وترى التعبير عنها فى مثل هذه الخدمة.

لقد ضربت أمثلة بالوطنية وروح القتال، بوصفها أمثلة مألوفة للولاء. ولكن، وكما أوضح بعد ذلك، لا توجد علاقة ضرورية بين الولاء والحرب، وهناك العديد من الصور الأخرى للولاء بجانب هذه الصورة الوطنية. فالولاء له صوره العائلية، والدينية، والتجارية، وصوره المهنية، وصور كثيرة أخرى. وجوهر هذه الصور، مهما كانت طبيعتها، أو جوهر الولاء مهما كانت صوره، أنه طالما لا يستطيع الإنسان أن يجد فى باطنه خطة للحياة، بسبب طبيعته المتقلبة، فإن عليه التوجه للخارج. إلى عالم التقاليد والأفعال، والقضايا الاجتماعية، إن من اهتدى للولاء، إنسان لا يحب أو يكره أحداً من أقرانه البشر، ولا يطيع تعاليم قديمة أو عادات أو قوانين، وإنما يحب قضية اجتماعية معينة ويخضع لها، أو لنسق من القضايا، ويشعر فى نفس الوقت بجاذبية وإعجاب بالقضية أو النسق، ويقول لقضيته "إرادتك هى إرادتى، وإرادتى هى إرادتك، فيك لا أخسر ذاتى، بل أجدها، ولا معنى لحياتى، إلا إذا ارتبطت بحياتك". فإذا وجد الفرد هذه القضية، وآمن بها طوال حياته، وانتبه لها، وأحبها بإخلاص، وخدمها عملياً، كان لديه خطة واحدة للحياة، تكون خطته الخاصة، وإرادته قد وضحت أمامه، وذاته قد

عبرت عن نفسها. ولكن فى نفس الوقت، تكون هذه الخطة أيضاً خطة للطاعة، خطة إذعان، لأنها لا تعنى الحياة من أجل القضية.

وعلى مر تاريخ البشرية، كان هناك أناس، عاشوا حياة الولاء، وتمسكوا بها طيلة حياتهم. وقد يكون هؤلاء الناس على حق أو على باطل بالنسبة للقضية التى قاموا باختيارها. ولكنهم على الأقل قد عرضوا من خلال ولائهم، جانباً من جوانب الحياة الأخلاقية العاقلة. وعرفوا معنى وحدة الهدف .

كذلك عرف هؤلاء الناس، معنى التحرر من الشكوك الخلقية ووخزات الضمير فقضيتهم باتت ضميرهم. ترشدهم لما ينبغى فعله. فيسمعون ويطيعون. ليس إيمانهم الأعمى بتقاليد معينة، أو خوفهم من سلطة خارجية، أو انصياعهم لما قد يعتبرونه حدساً خاصاً، ونوراً فطرياً، وإنما بسبب أنهم، عندما توجهوا للخارج بحثاً عن قضيتهم ثم ارتدوا وعادوا إلى ذواتهم، شعروا بعدم احترامهم لأنفسهم، إلا إذا كرسوها لخدمة القضية، وكانوا أدوات مطيعة لها. فالقضية تمنعهم من الشك، وتقول لهم " أنتم ملكى، ولا تستطيعون الحياة بدونى". ويرد الفرد عليها قائلاً " أنا لك، وإرادتى ملكك. فلا إرادة بجانب إرادتك، فأنا طوع أمرك، وأداة لكم، فتحكمى فى، وحققى وجودى، وتجاوزينى". وهذا بالفعل حديث الوطنيين المخلصين، والجنود، والأمهات، وشهداء جنسنا. فلقد نعموا بحياة الولاء، المليئة بالحيوية والنشاط .

والآن، من المؤكد أنه مازال يوجد فى العالم، أناس من أصحاب الولاء، طبقاً لمعنى الولاء الذى نسوقه لكم الآن، وكلكم تعلمون أن أصحاب الولاء، مازالو يحيون بيننا. وأتوسل إليكم، ألا تعترضوا على هذا الحكم، بأن أمثال هؤلاء الناس، يعقدون الولاء لقضايا فاسدة أو زائفة وبأن هناك العديد من القضايا التى آمن بها الناس، وكانت سبباً فى قيام الحروب بينهم، مما يثبت زيف هذه القضايا، وسوء التوجيه. وفوق كل ذلك، أتمنى ألا تعترضوا على القول، بأن شكاكنا المحدثين، وخاصة بالنسبة للمشكلات الخلقية، لا يستطيعون ببساطة، أن يرون قضية واحدة، تستحق ولاءهم، ولذلك، وهنا بالتحديد، أى فى عدم قدرتنا على رؤية موضوع مناسب رئيسى لولائنا، يكمن السبب الرئيسى للخلط والحيرة تجاه أخلاقنا الحديثة.

والواقع أن كل هذه الاعتراضات المحتملة، تعد اعتراضات هامة، ولها قيمتها. وسأحاول الرد عليها فى الوقت المناسب. وأدرك قيمتها مثلكم تماماً. ولكن حتى الآن مازلنا نمهد لفلسفتنا المستقبلية عن الولاء. وكل ما تستطيع أن تقوله عن عيوب ونواقص الولاء، لا يؤثر على الحقيقة الراسخة، بأنه إذا أردت أن تهتدى إلى أسلوب فى الحياة تتغلب به على الشكوك، ويستجمع قدراتك ولا يشتتها، فإنه لابد أن يشابه النهج الذى اتبعه كل أصحاب الولاء، منذ عرفت الإنسانية معنى الولاء. وبغض النظر عن الصورة الصحيحة للولاء، فذلك سيتم توضيحه. ولكن إن لم تستطع أن تجد صورة من صور الولاء، فإنك لن تستطيع أن تجد الوحدة أو السكينة فى حياتك. إذن لابد أن تجد قضية تستحق الإخلاص، وتكريس الحياة، الذى يدفع الجنود للموت فى سبيل أوطانهم، ويشبه الإخلاص، الذى يظهره الشهداء فى سبيل العقيدة. ولئن كان ضرورياً أن تتصف القضية بالعقلانية، والجدة، واستحقاقها لإخلاص حقيقى. إلا أنها بمجرد اكتشافها، لابد أن تصبح ضميراً لك، وتخبرك بحقيقة واجبك، ولابد أن توحد دوافعك، ومثلك العليا، وخطط حياتك، كما لو كانت شيئاً خارجياً مستقلاً عنك وأعلى منك. أقول يجب، أن تجد مثل هذه القضية، إذا كان هناك وجوب على الإطلاق. وهذه أول لمحة عن نظامنا الأخلاقى، وأولى خطواته.

ولكن ربما تشعر بالحيرة، وتعيد طرح السؤال " كيف نجد مثل هذه القضية، أى القضية الشاملة والمحددة، الواجبة عقلياً، والأعلى من وجودنا، واليقينية، والمناسبة للتعبير عن جوهر الحياة، فى عصرنا الصاخب، الذى تتصارع فيه القضايا، فيه المعايير الأخلاقية القديمة والنقد والتشكيك؟ ما القضية الواجبة عقلياً وتستحق الشهادة من أجلها ؟

"أجيب بأن الدرس البسيط والواضح، الذى يمكن أن نتعلمه من دراسة روح الولاء ذاتها، وكما تظهر لدى كل أصحابه، يمكن أن يؤسس إجابة لهذا السؤال، بالنسبة لطبيعة الولاء العامة، ولحاجتنا المشتركة للولاء ".

المحاضـــرة الثانيـــة

المذهـــب الفـــردى

(الفرديـــة)

حاولت فى المحاضرة الافتتاحية، تعريف الموقف الخاص، لما أعنيه بالولاء، وبيان مدى حاجتنا للولاء، للبحث عن قضايا نعقد معها الولاء، لتحقيق خيرنا الفردى. ولم يكن ذلك إلا تمهيداً لفلسفتنا عن الولاء. و قبل المضى قدماً نحو الخطوة التالية، أود أن أقدم عرضاً مختصراً للنتائج التى قد توصلنا إليها حتى الآن.

- ١ -

لقد عرّفت الولاء فى العرض السابق، بأنه عبارة عن التفانى والإخلاص المستمر والإرادى والعملى من فرد ما تجاه قضية معينة. وبينت أن القضية المستحقة للولاء، يجب أن ينظر إليها الفرد، على أنها شىء أكبر من ذاته الخاصة، ولذلك تعد بمعنى ما، خارج إرادته الفردية، وثانياً لابد أن توحد بينه وبين مجموعة من الأفراد، وتربطهم برابطة اجتماعية معينة. كرابطة الصداقة، أو الأسرة، أو الدولة. ولذلك، تظهر القضية التى يكرس لها الفرد حياته، على أنها ذاتية (طالما أنها تخصه وتخص أناسًا آخرين)، وفى نفس الوقت، غير شخصية، أو مجاوزة لحياته، خاصة إذا نظر إليها من وجهة نظر إنسانية بحتة، وذلك لأنها تربط عدة نفوس إنسانية، وربما عدداً كبيراً جداً من النفوس، فى وحدة اجتماعية عليا. فلا تستطيع الولاء لقضية عامة مجردة، ولاتخصك، وفى نفس الوقت لا تستطيع الولاء لأى مجموعة من الأفراد، الذين لا رابط بينهم، ولكونهم مجرد تجمع. فحيثما يكون هناك موضوع للولاء، توجد وحدة معينة، لعدة نفوس فى حياة واحدة. ودائماً ما يشكل هذا الاتحاد قضية يدين لها الفرد بالولاء، إذا جاء متوافقاً مع خلقه. وقل من ينظر للفرد بوصفه مجرد فرد من أفراد الإسان، يرى هذا الاتحاد على

أنه شيء لا شخصى أو مجاوز لحياة الإنسان، لأنه يكون شيئاً أكثر وأكبر من كل الشخصيات المنفصلة والخاصة، التى يربط بينهم. ولكن يظهر فى نفس الوقت على أنه شديد الذاتية، لأن الاتحاد، يكون بالفعل اتحاداً لمجموعة من النفوس، وليس مجرد نوع من التجريد النظرى، أو الوحدة النظرية.

ولئن حاولت إثبات وجود مثل هذه القضايا، والولاء لها فى عالمنا، بضرب بعض الأمثلة على التكريس العملى والمستمر والإرادى للقضايا، إلا أنها جاءت أمثلة محدودة وناقصة، لأنه من المستحيل أن تبين باختصار، كم الصور المتقلبة للولاء الإنسانى، وكيف فى نفس الوقت، تتشابه، وتظل روح الولاء باقية ومستمرة وبسط كل هذه الصور المختلفة، والقضايا المتعددة، والجنسيات المختلفة لأصحاب الولاء. بدأت طبعاً بعرض عدة أمثلة مشهورة ومألوفة وتقليدية. فالقبطان المؤمن بالولاء، يظل رابضاً ولا يترك سفينته الغارقة حتى يستنفد كل جهد لإنقاذها. والمواطن الذى لا يدخر جهداً ويكون مستعداً للتضحية بحياته دفاعاً عن وطنه. ورجل الدين الذى يظل مخلصاً لعقيدته حتى الموت فى سبيلها، كلها نماذج تقليدية ومؤثرة للولاء، ولكنها لا تعبر عن كل صوره. إن أى فرد كان لديه الفرصة ليكون مسئولاً عن حياة الآخرين (كأن يصاحب مجموعة من الأطفال فى رحلة)، فإنه تكون لديه فرصة، لأن يظهر ولاء حقيقياً مثل ولاء قبطان السفينة الغارقة. فإمكانية وجود الخطر فى أى لحظة، مع المسئولية عن الحياة، يعنى الفرصة لولاء حقيقى. فقد يكرس أحد الأفراد حياته من أجل مجموعة من الأصدقاء، يؤمنون بقضية معينة، ويعتبرونها قضية مقدسة، فيعطى كل منهم كلمته ويقطع على نفسه وعداً، وقد يجد نفسه مضطراً للتضحية بمزايا شخصية، لكى يحافظ على وعده. لذلك أى شيء يستطيع أن يربط بين مجموعة مختلفة من الأفراد، بروابط اجتماعية ثابتة، يمكن أن يوفر للفرد فرصة لحياة الولاء. ولذا يوجد أصحاب للولاء، فى كل أنظمة المجتمع. وقد يختلفون فى درجة الذكاء والقوة والكفاءة، فأينما كان هناك أمهات، وأخوة، وأطفال، ومنظمات اجتماعية من أى نوع، ورجال يقبلون الوظائف، أو يقيمون العهود، وأناس يسعون للحصول على العلم والفن، أو يتعاونون فى البحث عن الحق والجمال .. لابد من وجود القضايا، التى تستحق ولاء الأفراد. ولذا يوجد الولاء فى كل الطبقات الاجتماعية الدنيا والعليا منها. الملك والفلاح، القديس والشهوانى، تتوفر أمامهم فرص الولاء. فالشخص العملى المهتم بأمور الدنيا، وطالب العلم الزاهد فى

الحياة، قد يتساويان فى درجة الولاء ولكن أياً كانت القضية المستحقة للولاء، وأياً كان الفردالذى يؤمن بها، فإن روح الولاء هى دائماً نفس الروح، التى خصصنا تعريفنا الأولى لها .

والتى حاولت مناقشتنا السابقة وصفها وصفاً دقيقاً. فعندما تكون القضية، مستقلة عن ذاتك الخاصة، وأكبر منك، وقضية اجتماعية فى طبيعتها، وقادرة على أن تضم الإرادات المختلفة لعدد من الناس فى إرادة واحدة، وقضية شخصية، ولكنها من وجهة نظر إنسانية بحتة، مجاوزة لحياة الإنسان. فإذا أثارت هذه القضية اهتمامك، وظهرت لك مستحقة للخدمة وتستحق منك كل طاقة، فإنها تكون قد ولّدت لديك روح الولاء. وإذا التزمت فى سلوكك بهذه الروح، تكون قد اخترت الولاء، وأصبحت من أصحابه. وسوف نعتمد فى مناقشتنا القادمة على وحدة هذه الروح وسط كل صورها المتنوعة، وحتى نفيد من هذه المناقشة، لابد أن نؤكد بداية، أنها روح واحدة، وكل فرد عاقل بسيط أو عظيم يشارك فى هذه الروح الواحدة .

لقد سبق أن عرفنا الولاء، على أنه شىء نحتاجه جميعاً، بوصفنا كائنات بشرية. ونحتاج كلنا لقضايا تستحق ولاءنا. وحاولت فى المحاضرة السابقة، توضيح أسس هذه الحاجة المشتركة للولاء. ولتحقيق ذلك، بدأت بنظرة دنيا أو محدودة للولاء. طلبت منكم فيها، أن نهمل مؤقتاً نوع **القضية المستحقة للولاء**، والبحث عمّا إذا كانت جديرة بالولاء أم غير جديرة، وأن نبدأ **بالنظر والبحث عن** الخير الذى يحصل عليه الفرد من ولائه. وبهذه البداية **فقط**، نستطيع **تمهيد الطريق لنظرة** أرقى وأوسع للولاء .

لقد صرحت بأن **الولاء، أمر خير للفرد، سواء** كانت **القضية** جديرة أو غير جديرة بولائه. تماماً مثل الحب، **يظل ممتعاً للمحب، بصرف** النظر عن استحقاق محبوبته لهذا الحب، أم لا. **ولا يعد الولاء مجرد نوع من أنواع** الخير، وإنما المحور الرئيسى لكل الخيرات الأخلاقية. **لأنه يقدم لصاحبه، حلاً** خاصاً، لأصعب مشكلات الإنسان العملية، ألا وهى مشكلة : لأى شىء أحيا ؟ ولماذا أنا هنا ؟ ولماذا أفعل الخير ؟ ولماذا هناك حاجة لوجودى ؟

يثير الإنسان العادى مثل هذه الأسئلة، دون وعى منه، وبصورة غامضة نسبياً. وإذا ما

بحث فى سريرته فقط، وفى ذاته الطبيعية، لا يستطيع إجابتها. إذ لا يجد فى باطنه إلا بعض المساعى الناقصة للسعادة، وفوضى من الرغبات، ومجموعة من الغرائز المتصارعة.

فلقد جاء "إلى الكون، لا يعرف لماذا، ولا متى، مثل الماء ينساب، شاء أم أبى" [١].

ولذلك فلابد فى جميع الأحوال أن يستشير المجتمع، حتى يعرف الغاية من حياته. ولكن النظام الاجتماعى، حسب ما هو كائن، يقدم له التقاليد، والعمل، والتعاليم، والقوانين، والنصيحة، ولايقدم له مثلاً أعلى واحداً يمكن أن يحكم الكل، أو كل شىء. فيتحكم المجتمع فيه، ويفرض سلطانه عليه، ولكن فى نفس الوقت يثير إرادته. وقد يشقيه أو يسعده، يمدحه أو يتوعده ولكنه يتركه وحده، يبحث عن معنى حياته الخاصة، قدر إمكانه، فلا يحل له أى مشكلات رئيسة تتعلق بحياته، طالما ظل لا يحيا حياة الولاء.

إن وجود قضية اجتماعية تجذب اهتمام الفرد، وعواطفه، وتسيطر على حياته بإرادته وبرضاه .. تماماً مثلما تسيطر الروح على الساحر الذى يستدعيها بإرادته، ليحصل على مساعدتها .. وتتصف بالوقار، بسبب الوحدة الاجتماعية التى تحققها بين نفوس إنسانية كثيرة، وتمثل فى نفس الوقت قيمة حيوية لكل فرد يؤمن بها، بسبب العاطفة الخاصة التى تثيرها فى وجدانه. فإن هذه القضية تستطيع تحقيق الوحدة بين عالم الفرد الداخلى وعالمه الخارجى، وتأخذ هذه الوحدة صورة الولاء الايجابى لأنه عندما تجذب قضية ما اهتمام الفرد، فإنها تحقق إشباعاً لحاجة من أعمق حاجاته الخاصة، وفى نفس الوقت لأهم حاجاته الخلقية، وبالأخص الحاجة المهمة فى الحياة، التى يسعى لها الفرد بإرادته ويراها جديرة بالاحترام، وذات قيمة فكرية.

– ٢ –

وقبل الاستمرار فى عرض فلسفتنا، وحتى هذه النقطة التى وصلنا إليها، بدأ يظهر اعتراضان وفى الواقع عدة اعتراضات .. وجدت من الضرورى أن أواجهها، حتى أكون

(١) رباعيات الخيام : ترجمة الشاعر الإنجليزى إدوارد فتزجرالد (١٨٠٩ – ١٨٨٣) ، الطبعة الأولى (١٨٥٩) الجزء الثلاثون . "المترجم" .

مستعداً لفهم فلسفة الولاء، التى أود طرحها فى المحاضرات القادمة، ولقد جاءت هذه الاعتراضات، والتى أصبحت شائعة فى عصرنا، من قبل المدافعين عن بعض صور المذهب الفردى التى باتت منتشرة فى عالمنا الحديث. أقول، لما كانت هذه الاعتراضات قد طرحها أنصار الفردية، وجدت من الضرورى تكريس هذه المحاضرة، لدراسة العلاقات بين روح الولاء وروح الفردية. ولما كانت صور الفردية كثيرة ومتغيرة، حالها حال الولاء، فمن واجبى مواجهة كل الاعتراضات المختلفة حول الموضوع.

منذ عام مضى، كنت أعرض أمام مجموعة من الطلاب، دعوتى للولاء. وحاولت أن أبين لهم، كما أفعل أمامكم الآن، كيف نحتاج جميعاً، لإحدى صور الولاء، بوصفها دافعاً رئيساً لحياتنا الشخصية. وأشرت إلى واقعة أن فى حياتنا الأمريكية الحديثة، توجد بعض العوامل الاجتماعية، التى تبعد الناس عن الروح الحقيقية للولاء، وتتركهم يحتارون ويتشككون فى معاييرهم الخلقية، فلا يعرفون سبباً لحياتهم. وبعد انتهائى من المحاضرة، وجه أحد الشبان المتحمسين، وابن لمهاجر روسى سؤاله قائلاً " لقد كان الولاء فى الماضى، من أهم نقاط ضعف الإنسانية، ومن أسباب الكوارث التى أصابتها. فلقد استغل الطغاة الولاء للسيطرة والتحكم فى الآخرين ". ثم أضاف قائلاً " لقد سعدت ببعدنا عن كل صور الولاء وقضاياه. فما نريده لمستقبلنا هو التدريب على الحكم الفردى نريد الاستقلال والثقافة، ولا حاجة لنا بالولاء " .

والحقيقة أنه من السهل ملاحظة، أن حماس هذا الشاب، ودفاعه عن الانتصار الكلى للحرية الفردية، ووضوح حديثه، كلها أعراض لروح الولاء التى أشير إليها. فمن الواضح أن لديه قضية، وواضح أيضاً، أنها قضية اجتماعية، وهى حاجة كل الأفراد للتخلص من القهر ، وكان يتحدث مثل إنسان قد كرس حياته لخدمة هذه القضية، واحترمت ولاءه للإنسانية، طالما أدرك حاجاتها ولذلك جاء حديثه، والروح التى عبر عنها ببساطة عبارة عن مثال حى لدعوتى. فكان واعياً، وحاسماً ونشيطاً. ولديه مثله الأعلى، وأعطى له ولاؤه لقضية المقهورين هذا الاعتداد بالذات وتلك الثقة بالنفس. وبذلك كان مثالاً حياً، على نظرتى لقيمة الولاء، لكل من يؤمن به.

وهكذا لا يوجد خلاف بين هذا الشاب وبينى. ويؤكد وجود الولاء. وإذا كانت نظرته للولاء، وتصوره لطبيعة الولاء، بأنها عبارة عن روح التفانى، والتضحية بالذات من أجل

قضية، وأنها لابد متصفة بروح الاستسلام وسلوك العبيد .. نظرة تبدو وكأنها تناقض نفسها، بسبب ولائه هو نفسه، لقضية تحرير الناس من القهر، فإنها تبين مدى سوء فهمه لنفسه وللحياة. ولا غرابة فى ذلك، فهذا النوع من سوء الفهم بات شائعاً فى هذه الأيام .. وتعد هذه الصورة أولى صور الاعتراضات، التى تواجه روح الولاء.

فى العام الماضى ظهر اعتراض ثان حول آرائى فى الولاء، من قبل صديق يشغل منصباً هاماً فى المجتمع، بوصفه مدرساً مسئولا عن تربية الشباب، وبالأخص تربيتهم خلقياً.

قال الصديق " أتمنى. إذا سنحت لك فرصة التدريس لطلابى، ولمجموعة الشباب التى أشرف عليها، أن تخبرهم بأن الولاء للمؤسسات المختلفة، ولأنديتهم، ولجماعاتهم السرية، ولمجتمع الطلبة عموماً، لا يعنى عذراً لأعمال الشغب، ولا يعطى الولاء الحق للطلبة بأن يشجعوا بعضهم البعض على إلحاق الأذى بالآخرين، ثم يتضامنون مع بعضهم البعض أمام المعارضين لهم، بدافع الولاء ". ثم أضاف قائلاً " بأن الولاء فى مجتمعنا، عبارة عن عباءة، نغطى بها كثيراً من الرذائل. وأن ما يحتاجه هؤلاء الشباب، هو معرفة، أن لكل فرد واجبه الخاص، ولابد من تنمية ضميره والانصات لصوته، ولا ينبغى أن يعتبر الولاء سبباً يعفيه من المسئولية الفردية".

ومن الواضح أن جوهر اعتراض الزميل، يعد فى جانب منه اعتراضاً على القضايا الخاصة التى يعقد هؤلاء الطلبة الولاء لها، أى اعتراض على أنديتهم، وعلى نظرتهم لمجتمع الطلاب. والواقع أننا لن نهتم بهذا الجانب من الاعتراض، لأنى لا أنظر الآن لقيمة القضية وجدارتها وإنما أهتم فقط، بالقيمة الباطنية لروح الولاء بصرف النظر عن قيمة القضية، التى يتفانى الفرد فى خدمتها. كذلك يقوم الاعتراض على جانب آخر، إذ يتأسس الاعتراض على صورة مشهورة من صور المذهب الفردى فى الأخلاق، وهذا ما يهمنا الرد عليه. فيبدو أن الناقد يرى، أن من صالح الفرد وخيرة، أن يقوم بتنمية إحساسه بواجبه وبالمسئولية الشخصية ويتصور الزميل أن الولاء يعطل ضمير الفرد لأنه يجعله يبحث فى الخارج، ليستمد من القضية الأفعال التى يتوجب عليه القيام بها، بمعنى آخر، إن الولاء، يبدو متعارضاً، مع نمو استقلال الإرادة الأخلاقية للفرد و التى سبق أن أشرت إليها فى الفصل السابق، وبينت مدى تأكيد كانط على استقلالها،

وكيف أن كل الأخلاقيين، لابد أن يهتموا بها بوصفها ضرورية لتحقيق الخير الأعلى. فإذا اتجهت إلى القضية، لا أعرف منها ما ينبغى علىّ القيام به ألا أكون مجنباً فطرتى الخلقية ؟ ألا يجب دائماً أن أشرع أفعالى وأحكم على واجبى ؟ والآن ألا يطالبنى الولاء بالاتجاه نحو النادى الذى أنتمي إليه، أو إلى أى قضية اجتماعية أخرى، لأعرف منها، ما يتوجب على القيام به من أفعال ؟

وهكذا كما ترى، أن المعترض الذى وضح هذه الصعوبة بالنسبة للولاء، لايدرك أنه ليس فى موقف الخصم على الإطلاق، بل ومن المؤيدين لوجهة نظرى. لأنه هو نفسه، وبسبب اختياره الذاتى المستقل لعمله، يعد مبرراً على الولاء لوظيفته ولمصلحة طلابه الحقة، وإنى على يقين على أن روحه هى نفس روح الولاء التى وصفتها لكم، فهو رجل مستقل، اختار قضيته، وبات شديد الولاء لها. وإلا كيف أحب الواجبات الصعبة لوظيفته وعاش متفانياً لها، ومقتنعاً بمطالبها. كما لو كانت مطالبه الخاصة؟ إنه يعمل مثل العبد لقضيته ويعمل بسعادة ودون ملل. ومع ذلك يبدو منتقداً لطلابه لعبوديتهم للنوادى. ألا يوجد هنا نوع من سوء الفهم ؟

واعترض لفيف ثان من أنصار الفردية، يتبنى أصحابها صورة مختلفة من الفردية على الأهمية التى أنسبها للولاء. والاعتراض مشهور ومألوف، ويمكن صياغته كما يلى، لا يمكن للإنسان الحديث .. وقيل لنا أن المرأة الحديثة أيضاً.. أن يقنع أو يسعد إلا بالاستقلال الذاتى الكامل. وبأقصى درجات التعبير عن نفسه، بالقدر الذى تسمح به الظروف الاجتماعية. ويؤكد المعترض أيضاً، على أن لنا كلنا حقوقًا فردية، وربما يضيف بأن علينا بعض الواجبات، التى تفرض علينا، تحت ظروف اجتماعية معينة أو غير عادية، أو استثنائية. ولكن بغض النظر عن ما قد تشكله الواجبات من عقبات فى طريق نمونا، فإن الحقوق تظل ملكنا. ولا يوجد خير يساوى حصولك على حق من حقوقك، وبالأخص حق التعبير الحر عن ذاتك، تعبيراً طليقاً. فإن كان لك آراء، فلابد من التعبير عنها، وإذا تعارضت مع التقاليد الأخلاقية السائدة، فذلك أفضل لك، لأن عدم انتمائها للآراء التقليدية، يثبت لك أنها تخصك وحدك. وإذا شعرت بالضجر من علاقتك الاجتماعية، حطمها وشكل علاقات جديدة. أليست الروح الحرة، روحاً شابة إلى الأبد؟ ألا يبدو الولاء بالفعل تبعاً لهذه الوجهة من النظر، نوعاً من أنواع العبودية. لماذا

تضحى بالشىء الوحيد الذى تملكه أى فرصتك فى أن تكون ذاتك ولست بوقاً لغيرك؟

ولاحاجة لنا لمزيد من التوضيح لحالة هذا النوع الخاص من المذهب الفردى الحديث. ولا تشبه هذه الصورة من الفردية، حماس الشاب الروسى، للتعاطف مع نشاط وحيوية مجموعة معينة من الناس، وكما سوف تلاحظون أن هذا النوع من المذهب الفردى معروف ومشهور ومنتشر فى الأدب الحديث. وتجسد المسرحيات والمقالات والقصص الرومانسية تعاليمه. وتحتكون به أيضاً فى الحياة العملية وتقرأون عن أعمال أنصاره فى الجرائد اليومية. وأحياناً تشعرون بهم فى حياتكم العملية، وقد يهددون وجودكم من أجل تحقيق انتصاراتهم، وتأكيد ذواتهم وباختصار شديد من الواضح أن من يزيد نصيبهم من الحقوق على واجباتهم، قد حققوا لأنفسهم وضعاً أخلاقياً متميزاً فى عصرنا الحديث. فكلنا نعرف معنى " الأنانية " ولكن الدفاع عنها، باعتبارها، حقاً إلهياً، ومطلباً روحياً، لم يحدث أو يتم فى أى عصر من العصور، مثلما يحدث أحياناً فى عصرنا .

اعتراض رابع، يقوم أيضاً، على إحدى صور المذهب الفردى الحديث ولكنها تختلف تماماً عن كل الصور التى سبق عرضها. ومرة أخرى أترك لأحد أصدقائى، شرف عرض حالة هذا النوع من الفردية. ولكن من الممكن أن أوضح بداية، بأنها لا تشبه الحماس الثورى ضد القهر الذى عبر عنه الشاب الروسى، ولا تهتم بالاستقلال الأخلاقى للحكم، الذى عبر عنه مربى الشباب، ولا تنتمى إلى نمط الفردية الذى يؤكد على التأكيد الذاتى، ويفضل الحقوق على الواجبات، وإنما على العكس، تسعى فردية هؤلاء الناس، إلى التأكيد على وجود نوع من النور الروحى الداخلى، يرشدهم ويحررهم من الحاجة إلى الولاء لقضايا حسية خارجية. ولئن كان هؤلاء الناس يتحدثون أحياناً عن ولائهم أو وفائهم لرؤياهم الداخلية على أنه نوع من الولاء، إلا أنهم لا يعنون بالولاء، نفس ما أعنيه عندما تحدثت عن روح الولاء. ولقد عرض الصديق الذى أشرت له، عن حالة هؤلاء الناس، بقوله "بأن الولاء كما عرضته، لا يمثل الخير الرئيسى للإنسان. فالروحانية، والتأمل الذاتى، والحياة مع نور الحقيقة، والسلام الداخلى، كلها تشكل الخير الرئيسى للإنسان. والأعمال الخيرة التى يقوم بها الفرد تجاه الآخرين، وما قد يبدو خارجياً على أنه سلوك يعبر عن الولاء، كلها أشياء تنتج من تحقيق الفرد للكمال

الداخلى، وكنتيجة لفيض الروح الخيرة، وباستعادة تشبيه أفلاطون، وتظهر مثل شروق الشمس. فالخير الحقيقى أن يتوحد الفرد مع نفسه. فيصبح قلب عالمه، وكل فعل خير يقوم به، يكون ناتجاً من شعوره بالاعتداد الذاتى، والسلام، والسكينة الداخلية. لذلك لا نحتاج للولاء، بل للروحانية".

تلك هى الأنواع الأربعة المختلفة من المذهب الفردى، التى ظهرت ضد دعوتى بأن الولاء هو الخير الرئيسى للإنسان. وربما تعتبر هذه الاعتراضات السابقة من أهم الاعتراضات الرئيسية بالرغم، وكما سبق أن أوضحت أن من الممكن وجود اعتراضات أخرى بسبب تعدد صور الفردية فى أيامنا. ولعلكم لاحظتم أن هذه الاعتراضات، قد قامت على مبادئ مختلفة ومتعارضة، ومع ذلك يشكل كل اعتراض منهم عثرة كبيرة أمام دعوتنا، خاصة ونحن فى هذه المرحلة من البحث، حيث لا نعتبر الولاء خيراً بسبب قضاياه، أو ما تتصف به القضية من صدارة من الناحية الاجتماعية أو الموضوعية، وإنما نعتبره خيراً، بالنسبة للانسان الذى يؤمن به ويمارسه بصرف النظر عن القضية التى اختار الولاء لها وبعيداً عن المنفعة والفائدة التى يمكن أن يحققها الولاء للناس.

- ٣ -

يبدأ الفيلسوف المدرسى، توما الأكوينى، فى " المجموعة اللاهوتية " ودائماً فى كل مقالة من مقالاته فى هذا العمل، بإعطاء الكلمة للخصوم. وبعد عرض الآراء المعارضة لوجهة نظره، عرضاً منظماً، والأسباب التى تدفعه للرد عليها، وقبل أن يبدأ بعرض ردوده التفصيلية ودفاعاته عن الموضوعات التى ينوى الدفاع عنها، يواجه الخصوم دائماً بعبارة واحدة، قد يستعيرها من الكتاب المقدس أو من أقوال الآباء، أو من أى نص يمكن أن يعبر عن وجهة نظره، يحاول أن يبين بها، أن كل المعارضين على خطأ. ودائماً ما تبدأ هذه الافتتاحية المختصرة، لدحض آراء الخصوم، بعبارة "ولكن الحقيقة، تكون على العكس من ذلك" .. إلخ

والآن، وبعد قيامنا بعرض الاعتراضات المختلفة، التى ظهرت من الصور المختلفة للمذهب الفردى، أغامر بوضع عبارتى المشهورة " ولكن الحقيقة على العكس من ذلك، قبل أن أبدأ فى عرض موقفى بالتفصيل. والحقيقة التى أواجه بها كل الخصوم هى كما يلى :

منذ انتصار اليابان فى الحرب، أعجبنا جميعاً، بولائهم المطلق لقضيتهم الوطنية، وبدأنا نتجه إلى السلطات والمصادر المختلفة للحصول على معلومات عن هذا الولاء، واستطعنا معرفة بعض الأشياء عن العقيدة الأخلاقية للبوشيدو والتى أطلق عليها "نتوبى" فى كتابه الصغير اسم "روح اليابان"، وبصرف النظر عن رأينا فى الحياة والسياسة اليابانية، أعتقد أننا نرى الآن، أن المثل الأعلى "للبوشيدو"، النمط اليابانى القديم للولاء، وبالرغم من الحياة البربرية والنزاعات والصراعات الدامية التى ولد منها، به كثير من العناصر الروحية العظيمة والرائعة. ولئن كانت "البوشيدو" ترفض النزعة الفردية، إلا أنها لم تكن تهدف لحياة العبودية. فالساموراى اليابانى كما قد وصف لنا، لم يفقد شعوره بالاعتداد الذاتى على الإطلاق. ولم يقبل الطغيان أبداً. وبالرغم من طاعته لرؤسائه، إلا أنه يشعر بوصفه فرداً، بالفخر لخدمتهم ودائماً ما كان يستغل تدريبه الراقى، لتطبيق الميثاق المعقد للشرف، الذى تربى عليه. بل إن هيئته الوديعة لا تخص شعوره بالفخر. وسلوكه وسيفه ومظهره، يظهر شعوراً بالأهمية ومع ذلك يتضمن مثله الأعلى، وحياته العملية كما يقصد المعجبون به تصويره، قيمة روحية عليا. ويتضمن كل تدريبه منذ طفولته طرق التحكم فى عواطفه وفى انفعالاته، وعلى كيفية تحقيق الراحة والسكينة للعقل، وكل ما يعد ضرورياً لنشأة الفارس، وبالرغم من تأثر آرائه بالحكم الصينية، والتعاليم البوذية، لتحقيق الاعتداد الذاتى الداخلى وصفاء الروح إلا أنه يحيا فى نفس الوقت حياة الدنيا، محارباً، مدافعاً عن الشرف، وفوق كل ذلك صاحب ولاء. والحقيقة أن ولاءه يتكون من كل هذه الفضائل الشخصية والاجتماعية معاً.

ولقد تم تدريب هذا الولاء اليابانى للساموراى، والقائم على التعاليم القديمة "للبوشيدو" على حرية الفكر والتعبير، حتى جاء الإصلاح الحديث، فتحولت الولاءات القبلية مرة واحدة تقريباً، إلى نوع من التفانى النشيط للأمة كلها، ولمتطلباتها وحاجاتها الحديثة. وأستطيع أن أقول، إن هذا التفانى، هو ما جعل هذا التحول السريع والرائع لليابان أمراً ممكناً. فانتشر المثل الأعلى للبوشيدو، من الطبقة العسكرية القديمة، إلى عدد كبير من أفراد الأمة. من الواضح أنه ليس المثل الأعلى اليابانى فقط، ولا أميل للمبالغة، فى عرض قيمة الدور الذى لعبه الولاء اليابانى القديم فى تحديد القواعد الأخلاقية الحديثة لبسطاء الناس فى هذا البلد .إلا أنه ليس هناك شك أن البوشيدو كانت منتشرة بين عدد كبير من اليابانيين. ولئن كان هناك اتفاق عام على أن

اليابانيين ينظرون إلى هذا المثل الأعلى، على أنه يتطلب نوعاً معيناً من نكران الذات، وعدم الاهتمام بالأخلاق الفردية ولا أعتقد شخصياً، أن اليابانيين، قد أدركوا القيمة الحقيقية للفرد، إلا أن ذلك لا يمنع من أن يمثل هذا المثل الأعلى اليابانى للولاء، نموذجاً مضاداً، لكل وجهات النظر المعارضة للولاء، بل ويتطلب منهم نوعاً من الدراسة وإعادة النظر فى وجهات نظرهم.

إن الولاء اليابانى ليس مجرد أداة فى يد الطغاة. ولذلك يختلف اختلافاً تاماً عن الولاء الأعمى للفلاح الروسى، الذى كان يفكر فيه الصديق الروسى الصغير، عندما عارض وجهة نظرى عن الولاء. فلقد أدى الولاء اليابانى إلى تحقيق نوع من الوحدة لروح الأمة. ولئن تعارض مع النزعة الذاتية، إلا أنه لم يكبت الرأى الفردى. لأن من المؤكد أن التحول الحديث الذى حدث فى اليابان، قد اعتمد على نحو كبير على الإبدا ع الذاتى والمرونة الفردية والأخلاقية. فلم يحول هذا الولاء الناس إلى آلات، وإنما أعطى الفرصة لنمو وتطور الموهبة الفردية. كذلك إذا كان الولاء اليابانى يعارض بالفعل الفردية معارضة شديدة، والتى تعرف حقوقها أكثر من معرفة واجباتها، فإنه قد عبر عن نفسه فى حياة بطولية نشطة، قد يحسده عليها أكثر المدافعين عن تأكيد الذات والحرية الفردية فقد كان لهذا الولاء من ممثليه الذين تمتعوا بالثقة بالذات والراحة والسكينة الروحية، التى يتمنى أن يحصل عليها كل من يناصرون المذهب الفردى .

إذن لا يوجد تعارض كبير بين الخير الذى يحققه من يؤمن بقيمة الولاء، والخيرات الشخصية المختلفة التى يؤكد أصحابنا من أنصار الفردية أهميتها. ولئن كنت لا أومن، بأن يكون النموذج اليابانى، النموذج الذى يجب علينا الأخذ به، فحضارتنا لها مشكلاتها الأخلاقية الخاصة بها، ولابد أن تواجهها بطرقها الخاصة. إلا أننى متأكد أن المتعصبين للأخلاق الفردية، عندما يتصورون معارضتهم لروح الولاء لابد أن يضعوا فى اعتبارهم نموذج الولاء اليابانى، الذى يجده كثير منا مستحقاً للإعجاب. فهذا النموذج المضاد، قد يبين لنا، إلى حد ما، أن الخيرات الفردية التى تطالب بها المذاهب الأخلاقية الفردية، قد تحققت بالفعل، أو يمكن أن تتحقق بانتشار روح الولاء.

بعد عرض هذا النموذج المضاد، أنتقل الآن إلى مزيد من التحليل للمبادئ العقلية للمذهب الفردى الأخلاقى.

إن من يهتم بالعالم المادى أو الطبيعى، يرى نفسه مركزاً لهذا العالم فتشكل السماء أمامه دائرة كبرى يرى نفسه مركزا لها. نعم، إن كل العالم المرئى، وحتى نكون أكثر دقة، يبدو لكل منكم، كما لو كان دائرة، مركزها المكان الذى يقع تحت قدميه. فكل ما هو بعيد عنا من الصعب، الاقتناع بواقعيته أو حقيقته، مثل اقتناعنا بوجود وحقيقة الأشياء المحيطة بنا والقريبة منا. ولا يصعب علينا جميعاً تصور كيف لا يمكن للناس الذين يسكنون مناطق بعيدة عنا كالاستراليين أو السيبيريين، أن يدركوا بعدهم عن المكان الذى نراه حسب نظرتنا الطبيعية، مكاناً صالحاً للإقامة الدائمة والاستقرار. ومن الطبيعى أيضاً أن يشعر من ينتمون لأجناس مختلفة عنا إذا شاركونا نفس نظرتنا الطبيعية تجاههم، بأنهم بالفعل نوع غريب من الشعوب .

ولئن كان هذا الوهم فى تصوير الأشياء، مسئولاً عن ما نسميه بالأنانية الطبيعية، إلا أنه لا يكون مجرد وهم، لأنه يوحى، حتى عندما تشوه نظرتنا، بالطبيعة الحقة للأشياء. ويكون للعالم الواقعى علاقة حقيقية بالشخصيات المختلفة التى تحيا فيه. وتتنوع الحقيقة بسبب علاقتها بهذه الشخصيات وتتبدل القيم بالفعل تبعاً لوجهة النظر. فيكون العالم حسب تأويلى له، واقعة مختلفة، عن تأويلك له، وفى نفس الوقت يكون لكل هذه التأويلات المختلفة أساسها الحقيقى فى حقيقة الأشياء. كذلك الأمر بالنسبة للقيم الأخلاقية، إذ بات مؤكداً، أن المذهب الخلقى، الذى يهمل الأفراد ولا يهتم بحقهم وإنما بواجبهم بالتمركز حول ذاتهم، وبملاءمة عالمهم الخلقى مع غاياتهم، لا يعد مذهباً صحيحاً على الإطلاق، ومثلما يبدو لنا، أننا مركز السماء المليئة بالنجوم، فإن كلاً منا يشعر بالفعل، بأنه مركز لعالمه الأخلاقى، أو لواجبه. فلا نجاح لأخلاق لا شخصية أو عامة. ولذلك يكون للمذهب الأخلاقى الفردى، أو للنزعة الفردية فى الأخلاق، أساسها الفعلى الثابت فى طبيعة الأشياء. ويعد الاستقلال الذاتى الخلقى، لأى كائن عاقل، والذى سبق أن ذكرته من قبل، ودافع كانط عنه، المبدأ الأول لأى نزعة فردية حقيقية

وصحيحة فى الأخلاق. فإرادتك فقط، ومعرفتها لذاتها معرفة حقيقية، هى القادرة وحدها، على تحديد واجبك. ولذلك طالما، أدافع عن الولاء، بوصفه شيئاً خيراً لأصحابه فإنى أتحدث بوصفى من أصحاب النزعة الفردية فى الأخلاق، وتعتمد كل الدعوة التى أدافع عنها، على هذه الحقيقة. وبالتالى لا تتصور أننى أسعى لإقامة نوع من الحياة الخلقية العامة، بوصفها مثلاً أعلى مضاداً للنزعة الفردية المعارضة للولاء، والتى عرضت أمثلة لها. فكل ما فى الأمر. أبين أن معارضتهم للولاء من منطلق نظرتهم، بأن الغايات الفردية، لا يمكن تحقيقها، بالولاء أو من خلاله، تعد نظرة خاطئة، وسوء فهم لحاجات الفرد الأخلاقية، ولما يسعى له، حتى فى أبسط أنواع السلوك، إن الفرد فى كل سلوك يقوم به، يهدف دائماً إلى نموذجه الخاص من الولاء، وقضيته الخاصة، وفرصته لخدمتها، ولا يمكن أن يشعر بالراحة العقلية، والسكينة والسلام الروحى فى أى شىء آخر. فاسمحوا لى أن أوضح لكم أسباب ذلك، أو تلك النظرة، وحينئذ وكما آمل، قد ترون أن هؤلاء الخصوم، لا يتناقضون معى حقيقة. وإنما فى الحقيقة، يناقضون أنفسهم، بسبب الخلط وسوء الفهم .

لذلك أقول للمعارض لوجهة نظرى مهما كانت حجته، تمسك بفرديتك. واسع لخيرك الخاص الفردى واسع له بإخلاص مستمر، وبدون تردد، ولاتألو جهداً فى سبيله ولكن أود أن أطرح هذا السؤال، أين تبحث عن هذا الذى يمثل خيرك الأعلى، أفى السماء التى فوق رأسك، أم فى الأرض التى تحت قدميك ؟ وأين تستطيع أن تجده؟

- ٥ -

إن أول إجابة تتبادر للذهن "أن خيرى الفردى الأعلى، يتمثل فى حصولى على السعادة". ولكن كما سبق أن أوضحت فى المحاضرة الأولى، إن هذه الاجابة تترك المسألة بدون حل. تتضمن السعادة إشباع الرغبات. ورغباتك الطبيعية رغبات عديدة ومتعارضة. وما يشبع رغبة قد يكبت أخرى. ولذلك إذا لم تكن هناك خطة محدودة للحياة، تحقق الانسجام بين رغباتك، فإن السعادة تظل مجرد حدث عارض، تشعر بها فى لحظة وتهرب منك فى أخرى، ولا تعرف لماذا. ومجرد التخطيط لسعادتك. إن

حاولت، لا يعد خطة فى حد ذاته، ولذلك لا تستطيع أن تجعل البحث عن السعادة مهنتك الأساسية. وعلى أية حال النهج الذى تنتهجه سيكون شيئاً قد تعلمته من النظام الاجتماعى الذى تحيا فيه. وبالتالى تعد كل الخطط فى تفكيرك، من الناحية العملية، تابعة أو شيئًا لاحقًا، بالنسبة للخطة العامة، بأن تحيا فى نوع من العلاقة المتسامحة والمتسقة مع نظامك الاجتماعى. لأنك بالفعل كائن اجتماعى .

فإذا أجبت قائلاً " حسنًا، إذن سوف أحيا، كما يتطلب النظام الاجتماعى منى أن أحيا ". فمرة أخرى، وكما قد شرحت من قبل، تجد نفسك، ليس لديك أى طريقة محددة تعبر بها عن ذاتك الخاصة وتفردك. لأنه إذا لم يكن النظام الاجتماعى، تعمه الفوضى التى تعم الأنشطة التى تقوم بها، أو من طبيعة مثل طبيعتك، فإنه لن يكون قادراً بذاته، على أن يفعل أى شىء، أكثر من أن يجعلك، بطريقة أو بأخرى، حلقة فى آلته، فرداً واحداً من أفراد قطعانه العديدة، أو مجرد وسيلة آلية، ينفذ بها أغراضه المتعددة. بوصفك كائناً أخلاقياً، لن تقبل بهذا الوضع، وتثور عليه. ولما كان وجودك الاجتماعى يقدم لك خطتك الوحيدة فى الحياة، فإنك تحيا حزيناً ومؤتلفا الجمع بين الخضوع الأعمى والكامل والتمرد والعصيان. وكما قال كانط عن الكائن الإنسانى الطبيعى، لا يتحمل العمل مع بنى جنسه، ولا يستطيع فى نفس الوقت أن يعمل بدونهم. فربما تمارس عملك اليومى، ولكنك تتذمر من رئيسك، تكسب قوت حياتك، ولكنك تشعر بالمرارة، بسبب الظروف الصعبة والقهر الاجتماعى الجاثم فوق صدرك. تعانى كثيراً من الوحدة والعزلة ولكنك تمل الصحبة. فالتقليد والغيرة، وأخلاق العبودية من جهة، والفوضى والتمرد المعلن أو الخفى من ناحية أخرى، خصومات تزداد اشتعالا، ومتع اجتماعية لا تبهج، وأفراح وأحزان عارضة، كل هذه الأمور مجتمعة تشكل تاريخ حياتك. إن الجرائد اليومية، طالما تنقل لنا الحوادث الاجتماعية البسيطة، ولا تهتم بنقل الأنشطة الاجتماعية العظيمة للإنسانية، تقدم لنا باستمرار مثل هذا السجل. كذلك فلم يهرب الكائن الحيوانى الاجتماعى، من فوضى رغباته الطبيعية، إلا ليحيا حياة تافهة، وكخادم يحمل الأخشاب والماء لسيده، أى النظام الاجتماعى. فقط يشعر بالسعادة، لفترة طويلة أو قصيرة ولكن ذلك، ليس إلا مجرد حدث عارض، أو نوع من التبلد الحسى .

ولكن إذا كنت نصيرا حقيقيا للفردية، لن تقبل بهذا الوضع، أو هذا المصير وإذا كنت نصيرا ثورياً، لن تظل خاضعاً لهذا القدر. فتطالب بحريتك، وبالثورة على النظام الاجتماعى الذى نشأت فيه. فتسعى لخلاصك، والتحرر من الأسر والقيود. والآن، أشير عليك بالحصول على هذه الحرية، من خلال الولاء.. أى من خلال التفانى الإرادى الكامل لخدمة قضية اجتماعية. ولكن قد لا يبدو لك ذلك حلاً صحيحاً. وبالتالى قد ترتد إلى صورة أخرى مألوفة من صور المذهب الفردى. وقد تقول "حسنًا، إن القوة هى مثلى الأعلى، ولابد أن أحكم وأخطط مصيرى".

والواقع إن تعريف خير الفرد الأعلى، بأنه القوة أو السلطة، تعريف واتجاه معروف. والتعريف قديم جداً، ويتم تحديده فى كل عصر من العصور، إذ يقوم الشباب بتعريف جديد فى كل عصر. وفى عصرنا أكد نيتشه بأن إرادة القوة، هى المبدأ الرئيسى للأخلاق الفردية.

فإن كنت من المعتنقين لهذا المذهب، فإن القوة التى تسعى إليها لن تكون بالطبع مجرد القوة الغاشمة. إن الذين أساءوا تفسير آراء "نيتشه" – بأنه فيلسوف عانى الوحدة بسبب حساسيته المفرطة، ومع ذلك كان يرغب وسط معاناته فى السيطرة والتأثير على أفراد بنى جنسه الذين لم يشعروا بوجوده قبل وفاته – قالوا بأن عباراته العاطفية، ما هى إلا تمجيد للأنانية والحقيقة إن القوة عند نيتشه، وعند كل أنصار الأخلاق الفردية الجادين، يتم تحويلها إلى مثل أعلى من خلال الكفاءة الاجتماعية وإدراكها فى صورة حلم غامض إلى حد ما بإنسان مفرد كامل ومثالى ولكن من المؤكد أنه كائن اجتماعى. وحلم نيتشه بالقوة، يشكل وسيلة، لإحدى المسائل التى لا حصر لها، والتى وقع الساعون للقوة ضحايا لها.

إذا كانت القوة أو السلطة مسعاك ولاترى تشابهاً بين مثلك الأعلى ومثل نيتشه، فإنك تكون ساعياً لنموذج مثالى اجتماعى للقوة. ولن تستطيع عقلياً أن تتصور نماذج وأمثلة على هذه القوة، إلا أمثال رجال الدولة، والقادة العسكريين والفنانين. وسوف تسعى فى مجال اهتمامك وعملك، إلى التحكم فى الظروف الاجتماعية المحيطة بك، وتسخرها لتحقيق مصالحك الفردية. السؤال الذى يفرض نفسه علينا الآن : أتأمل فى أعلى خير فردى، بمثل هذا المسعى للقوة ؟

عندما نتذكر أن المحور الرئيسى لمأساة البطولة، كان يدور حول الساعين للقوة الفردية، وأن الموضوع المفضل من الموضوعات الكوميدية، منذ بداية عصر الكوميديا حتى يومنا، مازال يدور حول لامعقولية هدف هؤلاء الباحثين عن القوة، نستطيع القول بأن سؤالنا قد بدأت إجابته. فمن الموضوعات القليلة التى أجمع عليها، الحكماء والشعراء، والنقاد الساخرون من الطبيعة الإنسانية، أن لا قيمة للبحث عن القوة، إلا إذا كانت السلطة المبحوث عنها، مجرد وسيلة لهدف مثالى معين أعلى منها ،فدعنا ندرس ونتذكر معا الحكم المشهور، الذى أطلقته التراجيديا والكوميديا، وحكمة التاريخ، على شهوة القوة.

يواجه تعريف الخير الفردى بأنه القوة ثلاثة اعتراضات. الأول إن مسألة الحصول على القوة مسألة تربط بالحظ. فابحث عن القوة بكل طاقتك، واعتبرها خيرك الأعلى فتكون قد أقمت قيمة أخلاقك الفردية على مجرد المغامرة. وفى النهاية تسخر الشيخوخه والموت، من كل قواك الفردية، التى تكون قد حصلت عليها، بوصفك إنساناً فرداً. وطوال حياتك، يكون الحصول على القوة فى أفضل الحالات، أقل يقيناً من الحصول على سعادة فردية خاصة وهذا الاعتراض الأول. على اعتبار أن القوة الخير الأعلى للفرد، يعد اعتراضاً قوياً ومنطقياً، وأجمع عليه الشعراء والحكماء والنقاد الساخرون .

والاعتراض الثانى، إن الرغبة فى القوة، لاتشبع أبداً بصفة نهائية. فأنْ تقول، إنى لا أسس إلى الحصول على القوة، كوسيلة لغاية معينة أريدها، وإنما بوصفها غاية فى ذاتها، يعنى أن تقول، إن من أجل مصلحتى فقط، ألزم نفسى بمطلب، أعتقد فى صحته حسب وجهة نظرى، وأتمسك به مهما أثبتت الظروف استحالة تحقيقه، ومهما زاد شعورى، بعدم حصولى على ما أريد. ولذلك أحكم على نفسى بالفشل المستمر، وبعدم القدرة على تحقيق آمالى. وهذا الاعتراض أيضا، اعتراض مشهور، ومن السهل توضيحه. فالنجاحات العظيمة التى حققها نابليون لم تكن كافية لشعوره بالفشل وخيبة الأمل، واستمر فى تحطيم نفسه ولأن شهوة القوة تحتاج لما تتغذى عليه دائماً، كان من المحتم حدوث الحملة الروسية الدامية .

ويظهر الاعتراض الثالث فى أقوال "إسبينوزا" بأن قوة الأشياء الخارجية تفوق

وتتجاوز دائماً قوة الإنسان. ولذلك الساعى تجاه الحصول على القوة الشخصية فقط، يكون قد دخل حرب لا تنتهى مع كل القوى الأساسية والدائمة للكون. ولذلك تبعاً لأقوال "إسبينوزا" أيضاً، بأن هذا الساعى للقوة، عندما يتوقف عن الشعور بالمعاناة، يتوقف أيضاً عن الشعور بالوجود. فكلما زادت قوة الفرد، واتسعت سلطته، كلما زاد عدد الأماكن، التي يتصارع فيها، فى العالم الذى يود هزيمته، وكلما اتسعت وسائله لتحقيق قوته. إن مثلُ الباحث عن القوة الفردية، مثل المؤسسات المالية الضخمة، التى انتشرت فى بلادنا مؤخراً. فكلما تضخم رأس مال هذه الشركات، كلما اتسعت المشروعات والمصالح التى يتحكمون فيها. وكلما زاد أيضاً عدد أعدائهم، والمشكلات القانونية التى يقعون فيها، والعقوبات المالية التى يتعرضون لها. إن القوة تعنى زيادة الفرص لحدوث الصراع. لذلك لا يتعرض الباحث عن القوة للفشل، بسبب سوء الحظ أو الظروف، وإنما يسعى هو نفسه، بجهده الدؤوب وبنشاط فعال إلى تحطيم نفسه .

إن من يسعى للحصول على القوة، ولاشئ غيرها، يجد نفسه فى صراع مع قدر لايهزم أبداً. ولكنك قد تعترض قائلا "ألا يخضع أصحاب الولاء أيضاً للصدف والأقدار؟" ولإجابة هذا السؤال، أود أن ألفت الانتباه، إلى أن أصحاب الولاء يخضعون أيضاً للقدر، ولكنهم يواجهونه بروح مختلفة تماماً. فكلهم يخضعون بالفعل للقدر والصدف، وولاؤهم، أيضا عبارة عن حماس لايتوقف، ورغبة لا تشبع لخدمة قضيتهم، ويعلمون أيضا، مسئولية مواجهة واجبات، يصعب على الإنسان الفانى إنجازها. ولكن طالما أن ولاءهم، عبارة عن نوع من الإذعان الإرادى من ذات إلى قضية، فإنه لا يشكل صراعاً يائسا مع القدر، وإنما استسلام ممتع منذ البداية للمصير المحتوم لكل كائن إنسانى فردى. وكما تعلمون جيداً، إن فى مثل هذه الأمور، "يكون هناك استعداد تام، لقبول كل شئ" فيتقبل الولاء الموت، لأنه منذ البداية عبارة عن استعداد للموت من أجل القضية. ويتحدى القدر، لأنه يقول "انظر، ألم أستسلم تماما؟ وهل أكدت فى أى وقت من الأوقات، بأنى لابد أن أكون محظوظاً أو سعيداً؟." فطالما يرى الحياة كلها، عبارة عن خدمة لقضية، فإنه لايقنع بأى هدف محدود. وطالما لا تتحقق القضية فى أى لحظة من لحظات الحياة، فإن الولاء يعتبر ضخامة جهوده لتحقيقها، مجرد محاولة متواضعة. ولكن الشهوة للقوة، تكون على العكس من ذلك. فلا تجعل قمة إشباعها؛ يتمثل فى استسلام الإرادة الذاتية، وإنما فى الحصول على ممتلكات خاصة، وعلى الانتصار فى

معركة ميئوس منها، بين الفرد وقدره الخاص. ولذلك لا يشعر أصحاب الولاء، بالغربة فى عالم يموج بالصراعات وبالكوارث والمصائب الشخصية وعدم الاستقرار. لأنهم يشعرون بقيمة قضيتهم ووضوحها، مهما كانت درجة المعاناة واليأس والخسارة. فخدمة القضية شرف. وهم أصحاب هذا الشرف. ولكن الباحثين عن القوة، لا يشعرون بالألفة، عندما يحيون فى مثل هذا العالم فإذا ما انتصروا على أوروبا الغربية، فإن القوة مازالت هناك فى الشرق الأقصى، ويظلون يبحثون فى ثلوج روسيا، وشتائها، عن شبح الحياة الذى يغريهم، ويشدهم إليه. حقيقة حقق جنود نابليون الانتصار، عندما فقدوا أرواحهم فى خدمته، ولكنه خسر. فكانوا أكثر حظًا وسعادة من قائدهم. فكانت لهم إرادتهم وقضوا نحبهم. وكان له الحياة والفشل والهزيمة .

وربما تعد مثل هذه التوضحيات كافية، لبيان فساد رأى من يطلبون لأنفسهم حقوقاً، تفوق واجباتهم، وواضح طبعا، أن نصيحتى عن غرور الرغبة فى القوة، نصيحة قديمة جداً. ولكن تستطيع أن تعتبرها نوعا من الدروس، التى يجب أن نتذكرها دائما. ولئن كان القول بالقدر المحتوم للباحث عن القوة، قولاً قديما، إلا أنه ليس قولاً زائفا أو باطلاً. ونحن الأمريكيين نريد اليوم أن ننتبه لمثل هذا القول، ولتلك النصحية. ويمكن لأى كارثة اقتصادية، أن تقدم لنا مثالاً لصحته وصوابه .

ولكن ربما تعترض قائلاً "بأن هذه الصورة التى أعرض لها، ليست نفس الصورة التى عرضها فيلسوف الأخلاق الفردية، الذى تتوجه بحديثك إليه. فليست القوة فقط التى أريدها، وإنما أطالب بمزيد من الاستقلال الذاتى، والاستقلال الشخصى فى الحكم. أريُد الشعور بذاتيتى. فالخير الأعلى اعتداد إيجابى بالنفس". حسن، فى هذه الحالة أتفق مع مطلبك، طالما كان مطلبا إيجابيا. أو حاولت تحقيقه بالفعل. ولكن أود تكملة هذا المطلب، ومعارضة إنكارك لقيمة الولاء. إذ ما هى الغاية التى تود تحقيقها، من حصولك على الاستقلال الخلقى، ووصفه بالخيرية؟ هل وجدت فى النهاية، قيمة وأهمية أن تكون فرداً مختلفا عن أى شخص آخر؟ وما القيمة التى قد تجدها، فى استقلال، يفصلك عن الآخرين، ويعزلك عنهم، ولا تجد من يشاركك الرأى والأفكار؟ من الواضح أن ذلك ليس المقصود، فمازلت كائنا اجتماعيا. وما تقصده حقيقة، أنك تريد أن تنصت لك الآذان، ويحترم اختيارك لقضيتك. إن ما تعنيه حقا، أنه ليس هناك، من

يحق له، أن يحدد لك ولائك الخاص بك.

ولا يعنى دفاعى عن الولاء، بمعنى التفانى من قبل ذاتٍ معينة لقضية معينة أن أطالبك. أو أفرض عليك الوفاء لقضية ما. فأنت إنسان مستقل فى حكمك وقرارك الأخلاقى. وتستطيع أن ترفض الولاء كلية، إن كان ذلك مرادك. ولكن ما أود قوله، إنك إذا ما كان لك هذا الموقف، أى إذا رفضت كلية تكريس حياتك لأى قضية، فإن قرارك بالاستقلال الخلقى، يظل قراراً فارغاً، لأنك تقرر السيطرة والتحكم فى حياتك الخلقية، بدون أن تحدد نوع الحياة التى تود التحكم فيها. لأن الحياة الأخلاقية الوحيدة، التى يمكن أن تحياها، لابد أن تكون حياة اجتماعية. حقيقة تكون هذه الحياة الاجتماعية، حياة عدائية للمجتمع، ولكن فى هذه الحالة، سوف يحطمك المجتمع، وحينئذ يموت استقلالك الأخلاقى، بدون الشعور بأى عزاء، أو بنوع السلوى الذى يشعر به صاحب الولاء، عندما يلقى النظرة الأخيرة قبل وفاته، على الشعار أو الراية التى مات من أجلها، وضحى فى سبيلها. لأن القضية تخلدّ دائماً، من يختار الولاء لها، ويفنى فى سبيلها. ولكن استقلالك يفنى معك، وعندما كان حياً، لم يشارك فيه أحد، ولم يكن محل تقدير من أحد. إن عبارتك الأخيرة، تكون ببساطة عبارة فارغة، "انظر، لقد أكدت ذاتى". ولكن فى حالة الخصومة مع المجتمع، لن تستطيع أن تعرف أبداً، ما هذا الذى تؤكده، أو تثبته، عندما تثبت ذاتك. وذلك لأن ذات الفرد لا تحوى شيئا، أو خططا، أو غايات، إلا تلك التى يعرفها، بصورة أو بأخرى، من علاقاته الاجتماعية. من ناحية أخرى، قد تكون حياتك الاجتماعية حياة متوافقة، أو مجرد حياة أخلاقية تقليدية. ولكن من الواضح، أنك بوصفك من دعاة النزعة الفردية، قد ألفت احتقار، مثل هذه الحياة. إذن لا توجد وسيلة أمامك، لتأكيد استقلالك الخلقى، إلا باختيار قضية معينة، تحيا حياة الولاء لها. وتضحى بحياتك فى سبيلها، إذا اقتضى الأمر التضحية. وحينئذ لن تكون قد أكدت وجودك، باختيارك هذه القضية فقط، وإنما تعبر عن ذاتك، عند خدمتها، تعبيراً فعليا. إن الوسيلة الوحيدة، لترجمة استقلالك الذاتى ترجمة عملية، هى أن تحيا حياة الولاء الحر.

تمثل هذه التحليلات والتفسيرات، إجابتى على أنصار الفردية، الذين يصرون على الاستقلال الأخلاقى. وينتمى لهم، الشاب الروسى، وصديقى المدرس. فلقد كانا من

أنصار هذا الاتجاه. وكما لاحظت، إن فى إجابتى لهم، وضحت أن الاستقلال الأخلاقى المتسق مع نفسه، هو ذلك الاستقلال الذى يتم التعبير عنه فى حياة الولاء. وكما سوف نرى، هناك فرصة واسعة لشعورك بالحرية الفكرية والاستقلال، فى اختيارك لقضيتك .

ولكن ربما تظل مصراً، على أن مازال هناك، صورة أخرى من صور المذهب الفردى. فتقول "أن أسعى للحياة الروحية، حياة السكينة، والسلام الداخلى، الذى لا أستمده من العالم، ولا يستطيع المجتمع أن يسلبنى إياه. ولذلك لايكمن خيرى الأعلى فى الولاء، وإنما فى الكمال الداخلى. ولكن مرة أخرى، أجيبك، بحكم الخبرة الانسانية، بالنسبة للطبيعة الحقة للاعتداد الذاتى الروحى. فإن كنت تبغى السكينة، فأنت لاتبغى سكينة سلبية، وإن كنت تسعى للسلام، فأنت لاتريد نوما بلا أحلام، ولا استجابة المغْشى عليه. فتظل الأحجار لاحراك فيها، حتى تطأ فوقها. وينام بعض سكان الجزر نوماً عميقاً، عندما لا يكون هناك عمل ملح، يتطلب الإنجاز. ولكن نوع الهدوء والسكينة التى تبغيهما ليس من هذا النوع. فأنت من أنصار المذهب الأخلاقى الفردى، ولابد أن تكون استجابتك، الاستجابة الوحيدة الممكنة لكائن يحمل ضميراً خاصاً به، وإرادة حية نشطة متميزة. لابد أن تكون الاستجابة متصفة بالإيجابية، ومؤكدة لحياة خلاقة، حتى وإن كانت حياة روحية. ولكن أيه حياة روحية تحيا؟ ألست إنسانا؟ أتستطيع أن تحيا بإرادتك النشيطة فقط، وبدون أن تحتك وتعيش وسط بنى جنسك؟ إذن، عليك أن تطلب السكينة، ولكن لتكن سكينة كائنٍ نشيطٍ ومخلصٍ لمجتمعه. وإلاسلامُك الروحى، لن يكون الإ مجرد الشعور بالراحة، وفى أفضل حالاته، لن يعبر إلا عن جانب واحد من طبيعتك الإنسانية، وهو الجانب الحسى. إن الشعور العام بأن كل الأشياء جميلة، وكل الأمور تسير سيراً حسنا، لا يمثل الخير الأعلى لأى كائن نشط. إن مايستر إيكهارت[1]، وهو واحد من المتصوفة الكلاسيكيين، عندما تحدث عن حالته، وعن نظرته للحياة الروحية الحقة، قال "إذا كان شعور الإنسان، بالسلام والسكينة فى حياة الله، يعد خيراً، وتحمله آلام الحياة بالصبر، يعد خيراً أفضل، فإن شعوره بالراحة والسكينة. حتى فى حياته المؤلمة، يعد أفضل الخيرات جميعا". هذه الحالة الأخيرة، أى شعور الإنسان بالراحة والسكينة والإشباع الروحى، حتى فى حياة الفرد المؤلمة ذاتها، أقول: إن هذه

(١) المعلم إيكهارت (١٢٦٠ – ١٣٢٧)، أخذ الدكتوراة من باريس ١٣٠٢ ، وعلّم اللاهوت. "المترجم" .

الحالة هى حالة كل أصحاب الولاء، طالما يتحكم ولاؤهم فى طبيعتهم العاطفية. وإن اتفقت معك بأن كل أصحاب الولاء، لا يشعرون بهذه السكينة، إلا أن ذلك يكون بسبب ضعف فى طبيعتهم، أو نقص فى التدريب. فحقيقة، يصبح ولاؤهم أكثر فاعلية، إذا ما صاحبته السكينة التى تقترحها. ولكن هذه السكينة الروحية، وهذا السلام الذى تقترحه، لا يكون ذا قيمة، إلا إذا، كان سلام من كرّس نفسه، لخدمة قضية معينة. يقول "بيارد تيلور" فى قصيدته الغنائية، "إن الحب هو الجرأة" وأقول أنا، "إن السكينة الحقة للروح، لاتوجد إلا بين أصحاب الولاء" .

وفى ضوء كل هذه الاعتبارات السابقة، وعندما بدأت أستمع لأصحاب الأخلاق الفردية المحدثين، الشعراء والأدباء، الذين يمجدون المبادأة الذاتية لوالت وايتمان، «إبسن»، «ونيتشه» - أعترف بأن هولاء الكتاب قد أثاروا عاطفتى لفترة من الوقت، ولكن سريعا، ما بدأت أملّ سماعهم. من الطبيعى أن تكون مستقلاً، وأن تكون فرداً، ولكن بحق السماء، عليك أن تبدأ المهمة. لا تظل تشحذ السيف، وابدأ معركة الفردية الحقة. ولماذا كل التمهيدات الأولية؟ توقف عن الكلام، واترك عيونك، وابدأ. فليس هناك إلا طريق واحد تحقق به أخلاقك الفردية. وهو أن تختار قضيتك، ثم تقوم بخدمتها، مثلما يخدم الساموراى رئيسه الاقطاعى، ويخدم البطل المثالى فى القصة الرومانسية حبيبته، أى بأن تحيا حياة الولاء .

المحاضرة الثالثة

الولاء للولاء

لقد تم تكريس المحاضرتين السابقتين، للدفاع عن مقولة، إن الولاء يمثل الخير الأعلى لصاحبه، بصرف النظر عن قيمة قضيته فى العالم ككل. وعلينا الآن أن نوضح. أنواع القضايا المستحقة للولاء .

- ١ -

قبل التقدم نحو خطوة جديدة فى بحثنا، أود تلخيص كل ما سبق. لأضع أمامكم بعض الصور والنماذج الواضحة للولاء. إذ تعد الأمثلة أفضل الوسائل، التى يتم بها تقدير الكرامة الشخصية، وقيمة سلوك الولاء. وأعترف حقيقة، بأن أمثلة ونماذج الولاء التى سبق عرضها، قد أثارت بعض القناعات، عن علاقة الولاء بأمور معينة، وتلك مسألة لم أهدف إليها، ولذلك لابد من توضيحها قبل الاستمرار فى بحثنا. لقد انتقيت هذه الأمثلة بسبب شهرتها. وربما بسبب انتشارها أكثر من غيرها. فذكرت، وضربت مثلاً بالمواطن المتحمس لروح الحرب، والفارس الرومانسى، والساموارى اليابانى. ولكن هذه الأمثلة، قد أكدت الانطباع الشائع، والخاطئ فى نفس الوقت، عن صلة الولاء بالفضائل أو الرذائل العسكرية والحربية. وضربت مثلاً آخر، بالقبطان الذى لايترك سفينته الغارقة، حتى تفشل كل محاولات إنقاذها. ولكن هذه الحالة، قد توحى، بأن أصحاب الولاء، يعرفون واجباتهم من العادات والتقاليد، التى يكتسبونها من المجتمع. ومرة أخرى، أود توضيح عدم صحة، هذا الايحاء دائما. فالولاء مطابق تماما للأصالة. فقد يسلك الفرد معبراً عن ولائه، سلوكاً لم يتم التعارف عليه من قبل، ولم يكن وليد الروتين. فقد يبتكر واجباته، فمثلما أخلص لها يستطيع التعبير عنها بطرق جديدة كل الجدة .

ولقد كنت أضرب لطلابى فى السنوات السابقة، مثلاً من التاريخ الإنجليزى القديم،

يوضح القيمة الذاتية للولاء ولروعته بحادثة كانت تتعلق بالمناقشات الدائرة حول امتيازات مجلس «العموم البريطانى»، ولم تحظ بالانتباه الكافى من قبل دارسى الأخلاق. فدعونى أعرض هذه الحادثة أمام حضراتكم. ففى يناير من عام ١٦٤٢، وقبل ظهور العداء بين الملك شارل الأول والبرلمان، وعزم الملك على اعتقال بعض قادة حزب المعارضة فى مجلس العموم. فأرسل رئيس الحرس إلى المجلس، للمطالبة باستسلام هؤلاء الأعضاء. فكان أن رفض المتحدث باسم المجلس تنفيذ هذا الطلب، استنادا على الامتيازات القديمة للمجلس، والتى تعطى لهذا المجلس ولاية قضائية على أعضائه، وتمنع القبض عليهم بدون موافقة منه. وهكذا بدأ الصراع بين الامتيازات والحقوق التى يتمتع بها أعضاء المجلس، وحق الملك فى التصرف دون الرجوع للبرلمان. ولكى يؤكد الملك سلطانه وقوته، توجه فى اليوم التالى، لرفض طلب رئيس الحرس، إلى المجلس، ومصحوبا بالجنود. ثم دخل المجلس، تاركاً الجنود على الأبواب، وخاطب رئيس المجلس قائلاً - بعد أن ذكر أسماء الأعضاء الذين يريد اعتقالهم - «السيد الرئيس، هل تلمح هؤلاء الأعضاء أمامك فى المجلس» .

وقد تلاحظ أن هذه اللحظة، تعد من اللحظات الفريدة فى التاريخ الإنجليزى. فمن الواضح أن التقاليد، والتراث، والأخلاق التقليدية، ليست كافية، لأن توضح للمتحدث واجبه فى هذه اللحظة الحرجة. فكيف، يستطيع إذن أن يعبر عن ذاته تعبيراً مناسبا؟ وما أفضل الوسائل التى يمكن أن يحافظ بها على كرامته الشخصية؟ وما الاستجابة التى تؤمن للمتحدث تحقيق خيره الأقصى؟ وإذا تم حصر المسألة، فى نطاق القيمة الشخصية والذاتية للمتحدث، ولسمعته، فما هو السلوك الذى يستطيع به أن يحافظ على كرامته وشرفه ؟.

وطبقا لما جاء فى سجلات المجلس، وصفا لهذه الواقعة، إن رئيس المجلس، قد خرّ راكعاً أمام الملك، ورد قائلا «جلالة الملك، أنا المتحدث باسم هذا المجلس، ولذلك لا أرى ولا أتحدث إلا بما يأمر به، وأرجو وألتمس العفو منك، فتلك هى الإجابة الوحيدة المتاحة أمامى» .

ولا أطلب منكم النظر للقيمة التاريخية للحدث، أو بالنسبة لقيمة الرد للمتحدث فقط ولا أحد سواه وإنما أريد منكم، أن تنظروا للسلوك، بوصفه سلوكا فرديا، ذا قيمة عليا.

إن الاتحاد الرائع بين التواضع الصورى (عندما ركع المتحدث أمام الملك) وبين الاعتداد بالذات •عندما جاءت العبارة، تعبيراً واضحا عن نوع من التمرد القانونى والتوحد الكامل والإرادى، بين ذاته وقضيته (عندما أعلن المتحدث، أنه لا يرى ولا يتحدث، إلا بما يأمر به المجلس) كل هذه الأمور، تمثل نموذجا كاملا، وصفات نموذجية لسلوك الولاء.

كانت كلمات وعبارات المتحدث واضحة ومبتكرة. تتفق مع التقاليد القديمة بصورة عامة. وتمثل فى نفس الوقت سلوكا خلاقا مبدعا جديدا. ولئن كانت مبتكرة ومؤلفة، إلا أنه بمجرد ظهورها، باتت واضحة وحقيقة مسلم بها. ولئن شعر الملك بالانزعاج، بسبب هذا الرفض، إلا أنه فى نفس الوقت، شعر بأنه يواجه كرامة شخصية أعظم من الملكية، وهى الكرامة التى شعر بها صاحب الولاء، عظيما كان أو بسيطا، عندما يتحدث باسم القضية، ويبذل كل ما فى وسعه لخدمتها.

تلك هى صورة الولاء، ولذلك مهما كانت قضية أصحابه، فإنهم فى جميع الحالات يعبرون عن أنفسهم. وعندما يسألنى فرد ما، ما أفضل الاتجاهات، وأكثر المواقف الشخصية قيمة، والتى يستطيع أن يعبر فيها الإنسان عن سريرته وكرامته وكبريائه، تعبيرا كاملا. أستطيع أن أقدم له إجابة واحدة وهى : أنه النهج والموقف الذى تستطيع منه التعبير عن ذاتك، مثلما فعل المتحدث باسم البرلمان. فليكن لك إذن قضية، مثل القضية التى اختارها المتحدث، وقبل وظيفته من البرلمان. ودعها تسرى فى كل وجدانك، حتى أنك تستطيع فى كل المواقف العصيبة، التى تواجهها أثناء التزامك، بخدمة القضية، أن تقول كما قال المتحدث باسم البرلمان : «أناخادم لهذه القضية، فهى قضية معقولة، ومرغوبة ولها قيمتها الخاصة، ولكونها تتصف بكل هذا، فلا أرى ولا أتحدث، إلا بما تأمر به».

فإذا كان هذا موقفك، وفعلك الوحيد، تكون قد أدركت، الشىء الذي تحيا من أجله. واكتسبت الهمة، وحددت النهج الذى تستطيع أن تحقق به الكرامة الشخصية. والموقف العملى الذى تعبر به عن فرديتك. والذى يكمن فيه – كما وضحنا من قبل – خيرك الشخصى الأقصى.

والآن، دعنا نرتد مرة أخرى إلى مسارنا الرئيسى فى بحثنا، بانتباه شديد لصورة هذه الذات المخلصة، والمختارة للولاء. ولئن أهملنا عن عمد، دراسة القضايا التى تستحق ولاء الفرد، فإن العودة لدراسة هذه القضايا، تمثل خطوتنا التالية فى فلسفتنا عن الولاء .

وربما تشعر للوهلة الأولى بأن المسألة صعبة، والمهمة ليست محددة أو بسيطة. بطريقة، تتضمن نوعا من العداء مع الأسرة المجاورة، أو فى صورة هجوم عسكرى على دولة أجنبية، فمن الواضح أن الناتج، لن يكون إلا شراً، ومن أبسط الأسباب، التى تؤدى إلى ظهور هذا الشر، سواء بسبب العداء، أو الحرب، إن خيراً معيناً، وبالأخص ولاء العدو، وفرصة العدو لتحقيق الولاء، قد يتم وضع العقبات أمامه، ومعارضته، وعدم إعطاء الفرصة لتحقيقه، أو تعريضه للخطر، أو حتى القضاء عليه كلية. فإذا كان ولاء (أ) يعد خيراً له، وولاء (ب) يعد خيراً له، فإن أى عداء أو خصومة، تنشأ بينهما، بسبب القضايا التى يخدمونها، فمن الواضح أنها تعد شراً، لأن كل فرد منهما، يحاول الهجوم على ولاء الآخر، وربما إلى القضاء عليه، وبالتالى يقضى، ما اعتبرناه، أفضل ما تمتلكه روح الآخر، أى فرصته فى أن تكون له قضية، وفى أن يعقد الولاء معها. ولئن كان الولاء العسكرى، يهاجم أيضاً فى مثل هذه الحالة، البنية الاقتصادية والمادية للعدو، وممتلكاته ومنجزاته وحياته، بصورة عامة، وهنا، ينزل الولاء العسكرى الصائب ويصب الشر على العدو. إلا أنه، إذا كان كل إنسان يخدم قضيته، وتمثل هذه الخدمة خيره الأقصى، فإن أسوأ شرور العداء لولاء الآخر، لايكمن فى هدم كيانه، أو صحته، أو ثروته أو ممتلكاته، أو حتى حياته، وإنما فى هدم أغلى ماديه، أى هدم ولائه نفسه .

فإذا كان الولاء يمثل الخير الأقصى، فإن الصراع المتبادل والهدام بين الولاءات، يمثل الشر الأقصى. وإذا كان الولاء يعد خيراً لكل الأفراد والأجناس، فإن حرب الإنسان للإنسان، لا تعد شراً أو مؤلمة، بسبب الضرر أو الدمار أو حتى إزهاق

الأرواح، وانما بسبب سلبها قضايا المهزومين، والقضاء على فرُص ولائهم، وأحيانا القضاء على روح الولاء ذاتها .

إذن إذا نظرنا لمجال الحياة الإنسانية، بحثا عن المناطق التى يفتقد فيها الخير والشر. نجد أن الولاء يمثل أفضل جوانبها، وأن أسوأ جوانبها، مايتجه إلى جعل هذا الولاء أمراً مستحيلاً، أو يقضى عليه أو يهدمه، أو يسلبه منها، إذا كان هناك من يؤمن به. ولذا موقف أصحاب الولاء أنفسهم، الذين يسلبون ولاء الآخرين، أو يقضون عليه، وينقادون وراء عواطف عمياء، يعد من أسوأ المعارك التى يواجهها الولاء، ومن أكثر شرور الإنسانية ومصائبها. وإذا أُسيىء استخدام روح الولاء، يرتكب الناس الرذيلة ضد هذه الروح نفسها. لأن مثل هذه الرذيلة، هى ما يهدف إليها أى ولاء طائش. فأينما يحدث ولقد حددنا بالفعل، فى المحاضرة الأولى، بعض الملامح العامة، التى يجب أن تتصف بها القضية، المستحقة للولاء. وقلنا، بأن القضية، يمكن أن تصبح موضوعاً ممكنا للولاء، إذا حققت الوحدة لحياة عدة أفراد، وبات لهم حياة واحدة. ولذلك، لابد أن تكون هذه القضية قضية شخصية، أو ذاتية، وفى نفس الوقت، مجاوزة لحياة الأفراد، إذا تم النظر إليها من وجهة نظر إنسانية بحتة. ومن أمثلة هذه القضايا المستحقة للولاء، عرضنا لثلاث. الأولى، الصداقة التى تربط عدة أصدقاء فى حياة حميمة واحدة. والثانية، الأسرة، التى تربط حياة أعضائها فى رابطة واحدة. والثالثة، الدولة، التى لايكون أعضاؤها مجرد مجموعة من المواطنين المنفصلين، وإنما تضمهم حياة واحدة تستحق من المواطن الولاء لها. وكما لاحظنا أنه من الممكن الاستمرار فى عرض الكثير من القضايا التى تشابه هذه القضايا الثلاث. فكل العلاقات الاجتماعية المستقرة من الممكن أن تشكل موضوعات مناسبة للولاء .

ولقد بات واضحاً الآن، أنه لايمكن للفرد أن يكون ولاؤه مباشراً ومتكافئا ومتساوياً فى كل القضايا الاجتماعية، أو يخلص لها جميعا. كذلك وضح أيضا، أن الكثير من القضايا، التى ينطبق عليها، تعريفنا العام للولاء، ويجعل منها قضايا مستحقة للولاء، قد يراها فرد من الأفراد، على أنها قضايا شريرة ومكروهة، ومنفرة. فعصابة اللصوص، والأسرة المشتبكة فى صراع دموى، ومجموعة القراصنة، والقبيلة المتوحشة، كلها قضايا، قد يدين

الكثير من الأفراد لها، ويعقدون الولاء معها. وبالرغم من أن الناس، قد يرغبون هذه القضايا، ويتفانون فى خدمتها، إلا أنه من السهل على أى فرد منا، أن يدرك عدم استحقاق مثل هذه القضايا للولاء. وعلاوة على ذلك، قد تتصارع الولاءات المختلفة، بسبب تعارض قضاياها. فالصراعات الثأرية العائلية، والخصومات، تتغذى على الولاء، وتستمد قوتها منه. فإذا كنت متشبعاً بروح الحرب، تبدو قضية الدفاع عن الوطن قضية مستحقة للولاء، وقضيته قيمة، وبسبب هذا الولاء، تشعر بالنفور والكراهية للبلد المعادية، ولذلك قد تنفر من أفراد الدولة المعادية، بسبب وضاعة قضيتهم. إن طبول الحرب، تصف أفراد العدو، بالأوصاف الشريرة، فقط، بسبب تمسكهم بالولاء، الذى قد نمجد، ونرفع من شأن من يتمسكون به من أفراد وطننا. «فلا مهرب ينقذ المرتزق والعبد».. وهكذا ترى، قد صار أفراد العدو عبيداً، لأنهم يخدمون وطنهم بصدق وطاعة. وفى نفس الوقت، نسمى من يقدمون نفس الخدمة لوطننا، أبطالا.

وفى نفس الوقت، وعند تعريفنا للولاء، بوصفه نوعاً من الخير الروحى للفرد، وإصرارنا على أن الولاء الحقيقى نوع من تفانى الذات لقضيتها، وبالتالى يتضمن الولاء نوعاً من الاختيار الحر والذاتى. وجدنا أن التقاليد، تصر على أن ولاء الفرد، لابد أن يتجه للقضايا التى يحددها له المجتمع. وعادة ما يقول الفهم العام، بأنه، إذا كان ميلادك بهذه البلدة، ومازلت تحيا بها، فلابد من ولائك لها، ولها فقط، فتكره الأعداء، إذا تطلب إعلان الحرب عليهم كراهيتهم. ولكننا قررنا، بأن الولاء، الحق والصادق، يتضمن عنصر الاختيار الحر. وبالتالى من الواضح أن تعريفنا للولاء، قد زاد من تعقيد نظرية الولاء. لأن فى إجابتنا فى المحاضرة السابقة، وفى الرد على معارض الولاء، تعمدنا أن نعطى للولاء مسحة فردية أو ذاتية. وإذا ما صحت وجهة نظرنا، وكانت التقاليد على خطأ، كلما زادت صعوبة تحديد الصفات التى تجعل قضية معينة مستحقة للولاء من قبل فرد معين، طالما كانت التقاليد وحدها، لا تعد كافية فى حد ذاتها لإرشادنا.

إذن، إذا لخصنا الصعوبات الظاهرية، تكون كالتالى: إن الولاء يعد شيئا خيراً لأصحابه، ولكنه ربما يكون مؤذيا لمن تثير قضيته الشكوك حولهم. كذلك ربما تعنى الولاءات المتصارعة، نوعاً من الأمراض الاجتماعية العامة، ولا تقرر واقعة أن الولاء

خير لأصحابه، نوع القضية المستحقة للولاء، عندما تتعارض الولاءات المختلفة. وإذا ما التزمنا بما جاء فى المحاضرة السابقة، وبالقول، بأن أفضل صورة لولاء الفرد، هى الصورة التى يختارها اختياراً حراً بنفسه، كلما زادت التعقيدات فى عالم الأخلاق، وزادت إمكانية تصارع الولاءات المختلفة، مع بعضها البعض .

- ٣ -

ولكى نتخطى هذه العقبات التى ظهرت الآن أمامنا، ونكتشف مبدأ، يستطيع الفرد أن يسترشد به، لاختيار الموضوع المناسب لولائه، لابد أن نضع نصب أعيننا دائما، وعندما نعلن بأن الولاء يمثل الخير الأعلى لصاحبه، أننا لا نتحدث عن السكينة أو الخير، الذى قد يتحقق لنفر قليل من الناس، كالأبطال والقديسين وأصحاب الفكر. فكما سبق أن قلنا، بأن كل أفراد النظام الاجتماعى، العظماء منهم والبسطاء، يتساوون من الناحية الخلقية عندما يتعلق الأمر بحياة الولاء. فحقيقة عندما بدأت ملاحظة مجتمعنا، لانتقاء الناس الذين لديهم ولاء لقضاياهم المختلفة، وذلك طبقا لتعريفنا للولاء، قد وجدت بالفعل، عددا قليلاً من أعضاء المجتمع، من بين حالات الولاء العديدة، يمكن أن تشد انتباهنا، بسبب خدماتهم العامة، وتضحياتهم، التى جعلت قضاياهم، قضايا مشهورة، ومن السهل ملاحظتها، ولكنى وجدت نفسى أختار أيضاً، الانتباه إلى بعض الناس البسطاء والمغمورين، الذين أعرفهم معرفة مباشرة، بل وأثق فى ولائهم، بالرغم من قلة نصيبهم من العلم، وضيق أفقهم، لأنهم لايتظاهرون بالولاء، من أجل الحصول على الشهرة. فلا يعلم أحد بولائهم، إلا من يحتكون بهم احتكاكاً مباشراً، بل والذين لايقدرون عادة ولاءهم تقديراً صحيحا. وتعرفون جميعا أناساً بسطاء ومغمورين تماما، لم يسمع العالم عنهم، ولا قيمة لهم، ولكنهم أثبتوا أمامك ولاءهم للقضايا، التى اختاروها، ولئن لم يستطيعوا التعبير عنها فى أفعال عملية، إلا أن ولاءهم، لايقل قيمة عن ولاء الساموراى، أو ولاء أرنولد فون فنكلريد، عندما واجه الحراب النمساوية. ونعلم جميعا عن التعبيرات العادية عن الولاء، أى التى لاتتم فى اللحظات الحرجة، أو المواقف

البطولية، التى قد تواجه الناس، وإنما فى الحياة العملية اليومية، وحياة الولاء لرجل البريد، والخدم، الذين يحيون دائما، وباختيارهم، حياة يومية، يلزمون فيها حياة الولاء، تماماً مثلما يلزم الفارس أو الملك. ومن المؤكد أننا دائما نقابل جميعا مثل هذه التجسيدات الشخصية الرائعة والأصيلة للولاء، ونلاحظها لدى أناس بسطاء، لاينظر لهم المجتمع بعين الاحترام، ويمثلون مكانة محدودة بين فئاته .

من الواضح أن هذه الوقائع تبين لنا أن الولاء، ليس هبة ارستقراطية، تخص القلة من الناس. ولئن كان الولاء نادراً اليوم فى نظامنا الاجتماعى الأمريكى، فإن ذلك مرده إلى التربية الأخلاقية الحاضرة. وأخشى، أننا كدولة قد نسينا الولاء. وأهملنا التدريب عليه فى نظامنا الاجتماعى، وقللنا من شأنه. وأهملنا تنشئة أنفسنا وتدريبها عليه. لذلك دائما ما نحزن لفقدانه، وعدم الشعور به فى بيئتنا الاجتماعية. ولكن الولاء قيمة عقلية، وتتجه كل الكائنات الإنسانية العاقلة نحوه، وتستطيع تعلمه والتدريب عليه، والاستفادة منه. ويعد فضيلة عملية أساسية ومتاحة لكل إنسان .

فإذا ما كان ذلك صحيحا، دعنا نلاحظ مرة أخرى، أن التعقيدات التى قد أشرنا إليها، تعود أساساً، إلى حقيقة أن أصحاب الولاء، ينظرون لقضاياهم المختلفة، ولولاءاتهم المتعددة، كما لو كانت متعارضة، قد يصل إلى نوع من الصراع الدامى. فمن الواضح بصفة عامة، أن ولاء الفرد لقضية معينة، كعائلته مثلا، أو دولته، إذا ما عبّر عن نفسه هذا الصراع، يتم استخدام الولاء، بوصفه أفضل وسيلة لتحقيق الأسوأ، وبالأخص هدم الولاء أو تحطيمه .

هناك إذن، قضايا خيرة، وقضايا شريرة. أو قضايا جديرة وأخرى سيئة. وبات لدينا الآن معيار التفرقة بين القضايا المستحقة للولاء والخيرة والشريرة منها، ونستطيع الآن صياغته ووصفه، فى ضوء الاعتبارات السابقة .

فإذا وجدت قضية معينة، وحازت إعجابى، وجذبتنى إليها، فوهبت لها نفسى وخدمتها، فإنى أكون قد حققت لنفسى، إذا ما اكتمل ولائى، الخير الأقصى. ولكن، وحسب تعريفنا، تكون القضية اجتماعية، تجمع بين الكثيرين من الناس، فى خدمة

واحدة. وبالتالى تربطنى القضية، بمجموعة من الزملاء، المشاركين فى الخدمة، والذين يشتركون معى فى هذا الولاء، الذى إذا اكتمل، حقق لهم الخير الأقصى. ولذا لا يعنى ولائى خيرى فقط وإنما خير الآخرين أيضا، فمن الواضح أنى لا أحصل على الخير، وإنما أمنحه وأقدمه للآخرين، لأنى أساعد كل فرد منهم، على الاستمرار فى ولائه، وبالتالى أساعده على تحقيق خيره الأقصى. وهكذا يكون ولائى لقضيتى، ولاء لولاء زميلى، أو من يشاركنى القضية. ولكن لنفرض، أن قضيتى، كانت من نوع قضية الثأر العائلى، أو سفينة القرصان، أو الأمة المعتدية، أى قضية تحيا بتحطيم ولاء العائلات الأخرى، أو تحطيم مجتمعها نفسه، أو المجتمعات الأخرى، فحينئذ أحقق الخير لنفسى وللمشاركين معى بسبب ولائنا المشترك، ولكنى فى نفس الوقت، أحارب وأهاجم روح الولاء ذاتها، أى تلك الروح التى تظهر فى ولاء خصومنا لقضيتهم .

وهكذا لايقتصر الخير الذى تحققه القضية، على الفرد فقط، وإنما يمتد ويشمل الآخرين، طالما كان هناك نوع من الولاء للولاء، أى يكون هناك نوع من التدعيم لولاء الآخرين. إذن لاتعد القضية خيرة، إلا إذا كانت أساساً، عبارة عن ولاء للولاء. وتوصف بأنها قضية شريرة، بالرغم من الولاء الذى أشعر به تجاهها، طالما أنها تحطم ولاء الآخرين. إذن تتضمن قضيتى بالفعل نوعاً من الولاء للولاء، لأن عند اختيار الولاء لأى قضية، يكون هناك من يدعم ولائى، وولاءهم. ولكن عندما تكون قضيتى، قضية ضارة أو سالبة، تحيا بالقضاء على ولاء الآخرين، وحرمانهم منه، فإنها تعتبر قضية شريرة، لأنها تتضمن عدم الولاء، أو خيانة لقضية الولاء نفسها .

- ٤ -

أصبح من الممكن الآن، وفى ضوء هذه الاعتبارات السابقة، توضيح صفة أو أكثر، من تلك الصفات التى بدت منذ لحظة مضت، من المسائل الميئوس منها. لقد عرّفنا الولاء، بأنه التفانى المخلص من الذات لقضية معينة. وأكدنا فى إجابتنا وردّنا، على أنصار المذهب الفردى، بأن كل الأنماط الراقية من الولاء، تتضمن الاختيار الذاتى.

فالقضية التى تروقنى، أو تجذبنى، لابد أن تثير إعجابى، فتهز مشاعرى، وتسعدنى، وفى النهاية تمتلكنى. كذلك لابد، أن تبدو فى ظل النظام الاجتماعى، قضية ممكنة، وذات قيمة عملية، وقضية حيّة، تجمع مجموعة من النفوس، فى حياة واحدة. ولكن وبدون أدنى شك، إذا كنت واعيا، بأهمية وقيمة أحكامى، واختياراتى الخلقية، أكون بالفعل مختاراً لهذه القضية، ويكون موقفى شبيها بموقف المتحدث باسم البرلمان، فى القصة التى سردتها واختياره لموقف المتحدث اختياراً حراً. فلا يمكن ان تفُرض القضية من الخارج، فأنا من يحق لى اختيارها. ولذلك أستطيع التحول "بأن لاعين لى ولا لسان أتحدث به، الإ بما تأمر به القضية. ولابد أن أشارك فى اختيار القضية، حتى لو تم فرضها من قبل الموقف الاجتماعى. فلا ولاء بدون المشاركة والتعاون فى اختيار القضية .

فإذا كان الأمر هكذا، وولائى للقضية، ليس شيئا مفروضا من الخارج، أو مصيراً محتوما وإنما أختاره دائما، اختياراً حراً، فإنى أستطيع تحديد واختيار ولائى على الأقل وإلى حدما، بالنظر إلى مقدار الخير أو الشر الذى قد تلحقه القضية المقترح الولاء لها، للإنسانية جمعاء. وطالما بات لدى معيار محدد، لخيرية القضايا، فإنى أستطيع وضع قاعدة أو مبدأ للاختيار، أهتدى به إلى الولاء، الذى لا يحقق الخير لى وحدى فقط، وإنما يحققه للإنسانية كلها.

لقد بات هذا المبدأ واضحاً. ويمكن صياغته كالتالى : طالما أن فى مقدورك اختيار القضية وخدمتها، فعليك أن تختار وتخدم القضية، التى تزيد من مقدار الولاء فى العالم. وفى الواقع، أن تختار وتخدم قضيتك الفردية، التى تزيد أعظم قدر ممكن من الولاء بين الناس. وبصيغة مختصرة، أى عند اختيارك للقضية المستحقة لولائك، أن تختار الولاء للولاء .

إن هذه القاعدة، تبين كيف يوجه الفرد اختياره للقضية، طالما أنه يهتم بخير البشرية كلها ولا يقتصر على اهتمامه بنفسه أو بغيره فقط، وكون أن مثل هذا الاختيار الذاتى أمرا ممكن، فإنه يتجه، كما قد لاحظنا إلى تبسيط موقفنا الأخلاقى بدلا من تعقيده. لأنك إذا نظرت لولاء الرجال على أنه قدرهم، وتصورت أن الإنسان، يجب أن

يعقد ولاءه للقضية التى تختارها له التقاليد، بدون أى إمكانية أو مقدرة على توجيه انتباهه أو اختياره الأخلاقى، فإن صراع الولاءات، يبدو مسألة لاحل لها. لأنه إذا وجد الناس، أن ولاءهم يفرض عليهم العداوات والخصومات، فلا مخرج أمامهم. ولكن إذا ما لعب الاختيار دوراً - حتى وإن كان محدوداً، فى توجيه الفرد، عند اختياره للقضية، التى يرغب الولاء لها، فإن هذا الاختيار يكون قد تم توجيهه، إلى تدعيم الولاء للولاء الكلى لكل أفراد البشرية، الذى يتشكل من الاختيارات الفعلية، التى يقوم بها كل فرد، عندما يختار قضيته .

- ٥ -

لقد افترضنا فى ختام المحاضرة السابقة، سؤالاً يجب أن يسأل، عن أين نجد القضية التى تستحق ولاءنا، وسط هذه التعقيدات والشكوك المنتشرة فى عالمنا الحديث، والصراعات الدائرة بين القضايا ؟ ويمكن القول، إن هذا السؤال، قد ظهرت ملامح إجابته، وإن كانت قد تبدو لك إجابة بسيطة أو مؤقتة، وربما ليست إجابة عملية، إلا أنه يجب النظر إليها من حيث المبدأ، على الأقل، على أنها بسيطة ومتسقة مع الطبيعة الإنسانية. الولاء خير، وخير أقصى. فإذا وجدت قضية جديرة بولائى، وخدمتها مثلما خدم المتحدث باسم البرلمان قضيته، فلا أرى ولا أتحدث إلا بما تأمر به القضية، وكنت إنساناً نشيطاً، فإنى أكون قد حققت، أقصى خير إنسانى. ولكن لا يعتبر هذا الخير الإنسانى الناتج عن الولاء، خيرى وحدى فقط أو امتياز خاص لى وإنما يعد خيراً إنسانياً عاماً وكلياً، لأنه ببساطة عبارة عن تحقيق نوع من الانسجام بين الذات والعالم.. وهذا الانسجام، يعد الشىء الوحيد القادر على إشباع أى كائن إنسانى، وتحقيق قناعته .

لم تتأسس دعوتى فى هذه المحاضرات على أى مثل أعلى خارجى. وإنما على نظرة واقعية لطبيعتنا الإنسانية العاطفية الضعيفة. إن هذا الكائن القلق، كما يسميه

جراى[1] كائن متلهف، لا يحيا، إلا وسط روابط اجتماعية، ولا يتحقق ذلك، إلا بوجود نوع من الاعتداد النشط بالذات. ولئن كنا نحب طبيعتنا، ونميل إلى الثورة والتمرد والإرادة الذاتية القلقة، فإننا أيضاً، لدينا قدرة على التقليد والمرونة والتكيف، وفى حاجة ماسة للعلاقات الاجتماعية، فنحن نريد أن نلعب دور الحاكم والمحكوم. يريد كل منا أن يحيا حياته الخاصة النشطة، ويكون مركزها، وفى نفس الوقت يرغب فى تحقيق الانسجام مع السماء ونجومها، ونظامها وحركاتها. ولئن كانت النجوم تفتننا بروعتها. ونتطلع إليها، إلا أننا نريد الاحتفاظ بأقدامنا راسخة على أرض الإنسانية، يسيطر علينا أقراننا بقوة التقاليد، ونحن بدورنا نلتهب بحماسنا الطبيعى، لأن نجعلهم بطريقة ما، يتحمسون لمطالب رغباتنا الفردية.

إن وجودنا المنقسم، يطالب بالتصالح مع ذاته ويحيا كفاحًا طويلاً لا ينتهى، لتحقيق الوحدة، ولئن كان عالمه الداخلى يتصارع مع الخارجى، فإنه يحتاج لكلا العالمين. ويرغب فى توحيدهما. إن الولاء وحده يقدم لنا أساساً لهذه الوحدة. هذا الولاء الذى يجد أن الأنا الداخلى، يرقى ويسمو، من البحث فى الخارج، ومن النظر إلى أعلى، ومن الخدمة والطاعة.. هذا الولاء، الذى يعلم تماماً، أن عينيه ولسانه، لا يمكن أن يعبرا عن أنفسهما، بثقة وفخر، إلا عندما، لا ترى العين ولا ينطق اللسان، إلا بما تأمر به القضية .. الولاء الذى يشعر بأنه فى قمة النشاط والحيوية، فى نفس اللحظة التى يكون فيها مستعداً لتحمل المشاق، أو حتى الفناء من أجل تحقيق ذاته. إن هذا الولاء يوحد حياة الداخل، حياة الرغبة الخاصة، وحياة الخارج، حياة الإذعان، فى حياة واحدة. ومثل هذه الوحدة، تمثل جوهر الولاء. ولئن كانت كل هذه الصفات، تجتمع لدى أصحابه وقد تتغير طباعه وعواطفه وأنماطه، فتختلف وتتعدد، تبعاً لطباع أصحابه وأمزجتهم، إلا أنه يوفر لهم جميعاً، السلام النشط، والسكينة فى الحياة المؤلمة.. وهى حالة، تشبه حالة السكينة، التى كان الصوفى المعلم " أيكهارت يمتدحها ويرغبها.

الولاء خير لكل البشرية. ويمثل نوعاً من الخير الحقيقى لكل فرد من أفرادها يشبه الخير الذى أحققه من ولائى. وإذا ما سعيت بالفعل لقضية معينة، قضية جديرة، فما

(١) جراى جون (١٦٦٩ - ١٧٤٥) باحث إنجليزى ورجل دين . درس الأخلاق فى كتابه " رسالة فى المبدأ الأساسى للفضيلة أو الاخلاقية . المترجم

هى القضية الأكثر جدارة، من قضية الولاء للولاء، أى القضية التى تنشر الولاء بين الناس؟ فإذا تمكنت من خدمة هذه القضية، خدمة مستمرة وفاعلة، واستطعت ببعض من الأعمال العملية، من تدعيم الولاء الإنسانى الكلى مثلما فعل المتحدث باسم البرلمان، أكون قد وجدت بالفعل مهمتى فى الحياة، وأستطيع إذن التيقن فى كل لحظة، من جدارة قضيتى، واستحقاقها لولائى، من قيمة الخير، التى أشعر بها شخصياً من خدمتى لها .

ولن تقتصر الوحدة هنا، على توحيد الداخل والخارج، وإنما تصبح وحدة مع كل الحياة الإنسانية. وما يبدو سعيا لذاتى ولخيرها، يكون فى نفس الوقت سعياً لكل العالم وخيره. فكل الناس أقران لى، وأخوة يشاركوننى خدمة القضية، من حيث المبدأ لا أعارض ولاء أى إنسان، وإنما أعارض جهله بالولاء، أو عدم الولاء للولاء نفسه، الذى يبدو واضحاً الآن فى كل الخصومات والصراعات الإنسانية. يجب أن أنشر بين كل الناس، وأسعى فى حياتى العملية لتدريب نفسى، على أن الدعم النشط والمتبادل للولاء الكلى، هو ما تحتاجه الإنسانية، إذا كان الولاء بالفعل، بوصفه التفانى الإرادى من ذات معينة لخدمة قضية ما، يمثل الخير الأقصى.

وطالما كان الإنسان قادراً على الولاء مثل قدرته على التفكير، وللإنسان البسيط قلب وعاطفة، مثلما يكون لصاحب النفوذ، فإنى لا أفقد أبداً العناصر الإنسانية لمهمتى وواجبى، وفى نفس الوقت، يجب أن أعلم، إذا لم يكن الولاء بالفعل مثل " الرحمة "، التى قال بها " يورتا " ،أى ليس دائماً أعظم الأعظم، فإنه من المؤكد مثل الرحمة، التى تعد نتاجاً حقيقياً، فوق رؤوس أصحابها. لذلك لابد أن أكون متيقناً، من أن الخير الذى ينتج من الولاء، يعد جديراً بتحقيقه، وبالتالى أستطيع إقناع كل فرد كان، وضيعاً أو عظيماً، بقيمته.

من المؤكد أن تحديد القضية، يتسق مع طبيعتى الإنسانية والعقلية، ولكنه لا يمكن أن يتم، إلا إذا كان هناك طريقة عملية، تجعل من الولاء للولاء، القضية الفعلية لحياتى كلها. لذلك يصبح سؤالنا هو : هل هناك طريقة عملية، لخدمة القضية الإنسانية الكلية، الولاء للولاء؟

وإذا وجدت هذه الطريقة، فما هى؟ أنستطيع نحن بأنفسنا، أن نجد طريقة نسلك بها، لننشر بها الولاء فى الأرض، ونحققه تحققاً كاملاً، ونزيد من كفاءته، وتأثيره فى حياة كل الناس، ونفرض سلطانه عليهم؟ إذا تحقق ذلك، فإننا نستطيع معرفة، كيفية تحقيق قضية مملكة السماء الحقيقية.

- ٦ -

أخشى عند سماع هذا العرض الأولى لتعريف القضية الجديرة، بأن تصبح موضوعاً لولائنا، أن تعترضنى قائلاً " قد يكون هذا تعريف القضية، التى يمكن الولاء لها، ولكنه لا يعد تعريفاً مناسباً للحياة العملية. فما الذى يستطيع الإنسان القيام به لتدعيم ولاء الإنسانية بصورة عامة؟ فجهود المصلحين مقيدة دائماً بأمرين، الأول قدرتهم المحدودة، وضعف تأثيرهم، والثانى صعوبة وتعقيد الطبيعة الإنسانية، التى يحاولون إصلاحها أو تربيتها. كذلك من الدروس المستفادة، فى أعمال الخير والإحسان، أن كل من يحاول مساعدة النوع الإنسانى ككل، تصبح جهوده ميئوساً منها، إذا لم يبدأ أولاً، بمساعدة المحيطين به، وأقرب الناس إليه، كيف يمكن أن يشكل الولاء لقضية الولاء الكلى، أى مشروع عملى للحياة ؟

أجيب فى الحال، بأن الإنسان الفرد، يستطيع، بالرغم من قدراته المحدودة، أن يخدم قضية الولاء الكلى بتركيز وتوجيه كل أفعاله إلى الأفراد المحيطين به أو الدائرة الشخصية الخاصة به، أو ما يسمى بالمجال الشخصى الخاص. بأن تكون لديه قضيته الشخصية والخاصة.

ولكن من الممكن بالفعل أن يتم اختيار القضية وتحديدها، بحيث تمثل جهداً متعمداً، وقاصداً تدعيم الولاء الكلى. وعندما أبدأ بإطلاعكم بالطريقة التى يمكن بها تحقيق ذلك، سوف تكتشفون أننا قد انتقلنا، مما يبدو لكم مشروعاً غير عملى للحياة، إلى عالم مألوف لنا، من الأعمال الخيرة والفاضلة. وربما القيمة الوحيدة لمشروعى العام، تكمن فى أن فى ضوء هذا المشروع، نستطيع أن نرى الفضائل المتعارف عليها، تتجلى وتزداد وضوحاً، بسبب علاقتها، بالقضية الأعلى من كل القضايا. وأستطيع القول "

بأن كل الفضائل المتعارف عليها، طالما كانت فضائل راسخة ومؤثرة، تعد فى حد ذاتها صوراً خاصة، لقضية الولاء للولاء، ويتم تحقيق الاقتناع بها، وإثارة الحماس لها، والتركيز عليها، بمهمة واحدة تفوق كل المهام، وهى محاولة نشر الولاء، والانتصار له فى حياة كل الناس.

إن الاعتبار الأول الذى أود التأكيد عليه، أن الولاء وكما لاحظنا، يعتمد على نوع من الاتحاد المتميز والخاص، بين الاهتمام الطبيعى والاختيار الحر. فلئن كان الفرد، الذى يحيا وفقاً لرغباته الطبيعية، لا يمكن أن يتصف بالولاء، فإن من يحيا حياة الولاء، لا يمكن أن يستغنى عن رغباته الطبيعية. فإذا رغبت حياة الولاء، لابد أن تثير القضية إعجابى من حين لآخر، وتثير حيرتى، وتشوقى للعمل، حتى وإن كان مؤلماً. فلا أستطيع الولاء لمجردات عقيمة، وإنما لما أستطيع التعبير عنه فى أفعال عملية، ولئن كان الولاء يرتبط بكيانى كله، ولابد أن تتوحد القضية بحياتى كلها، إلا أن ذلك كله، لا يمكن أن يحدث بدون اختيارى الحر والإرادى. فلابد أن يحكم ولائى. وإن كان يتملكنى، فليس رغماً عنى، لأنى أشارك فيه وأقبله. فالواقع أن علاقتك بالقضية، التى تعقد معها الولاء، تشبه العلاقة بالفضل الإلهى فى اللاهوت القديم.

فيجب أن تحكمك القضية، مثلما يتحكم الفضل الإلهى فى خلاص العاصى، ولكن لابد من إذعانك لهذه السيطرة، حتى يمكن تحقيق الخلاص.

والواقع أن مسألة إمكانية الاتحاد بين الاهتمام الطبيعى والاختيار، مسألة تؤكدها الطبيعة الإنسانية، وتعد من حقائقها. ويعد أى فعل من أفعالنا نموذجاً ومثلاً لهذا الاتحاد. فلا تستطيع القيام بعمل منتظم ومستمر بدون وجود الاهتمام الطبيعى العابر. إن الولاء عبارة عن مركب مكتمل من رغبات طبيعية معينة، ونوع معين من الإذعان الاجتماعى، والاختيار الحر من جانبك.

إذن لكى أحيا حياة الولاء للولاء، لابد أن أختار أولاً، أنماط سلوك الولاء التى تتفق مع طبيعتى، وتنبعث منها. ويعنى ذلك، أنى فى جانب من جوانب حياتى، سوف أحذو حذو الجاهل بالولاء. فأخدم القضايا، التى يميل إليها مزاجى الطبيعى، والظروف الاجتماعية. وأختار الأصدقاء الذين أميل إليهم، وأخدم أسرتى ومجتمعى ودولتى، لأن

ولائى لهم، يشبع اهتمامى ومصلحتى.

ولكن فى جانب آخر من جوانب حياتى، كل ولاءاتى الطبيعية، أو ما يمكن تسميتها بالولاءات العرضية يمكن التحكم فيها، وتوحيدها، بالاعتماد على المبدأ القائل، بأن قضيتى، يجب أن تؤدى إلى تعزيز، قضية الولاء الكلى. ولذلك لن أسمح بأن يظل اختيارى، للقضايا اختياراً عرضياً، يخضع للصدفة. إذ يجب أن تشكل القضايا نسقا معينا، يجمع بينها ويضمها. فتكون فى مجموعها قضية واحدة، فى حياة الولاء التى أحياها. وعندما يظهر نوع من الصراع الظاهرى بين مجموع القضايا، التى أهتم بها، سوف أحاول أحياناً، وبوسائل سوف أعرض لها فى هذه المحاضرات إلى تقليل الصراع، لتحقيق أكبر قدر من الانسجام. ولذلك، قد أقول لأى قضية من القضايا، التى أرتبط بها، وأرغبها بطبيعتى، وأهتم بها :

" عزيزتى، لا أستطيع حبك حباً شديداً

فحبك لن يزيدنى شرفاً " (١)

وبهذه الروح الودية، يتجه ولائى، فى حدود قدراتى وحياتى الشخصية، إلى توحيد القضايا المختلفة، فى نسق واحد، وبالتالى إلى قضية واحدة.

ولئن كانت القضية التى أختارها، قضية حياتى كلها، قد يقترحها أمامى وضعى الاجتماعى، وقد تجعلها قواه وقدراتى الطبيعية، قضية مفضلة لدى، وتصورها رغبة من رغباتى، إلا أنى لا يمكن أن أعطى للنظام الاجتماعى، أو التقاليد أو الأخلاق الاجتماعية، أو حتى الرغبة الخاصة، الحق فى فرض القضية وإلزامى بها. فلابد أن أكون متفرداً فى ولائى، وحازماً ومتمسكاً به، وأحيا فى حياتى العملية، حياة الولاء، طالما أن بداخلى الفرد، الذى يختار القضايا الخاصة، التى تحقق الولاء الكلى وتنشره. إن ولائى ولاء نام ومتطور. فأكتسب الولاءات العديدة، بدون التخلى عن القديمة، ولابد من وجود الجديد دائماً.

حقيقة عند اختيارى للقضية، أحاول تجنب الصراع مع قضايا الآخرين. وبالتالى تظل ممارستى الولاء للولاء ممارسة سلبية. فلا تهدف قضيتى للقضاء على ولاءات

---

(١) رتشارد لوفلاس الشاعر : (١٦١٨ـ ١٦٥٨) من قصيدة «إلى لوكاستا، الذهاب إلى الحروب» (المترجم).

الآخرين، ولكن طالما تظل قضيتي المختارة والمنظمة، ترتبط بنطاق خبرتي الخاصة، ولا تتجه نحو خدمة الإنسانية مباشرة فإن من الطبيعي أن تسأل، هل أستطيع بالفعل، وبمثل هذا التحكم والسيطرة على اهتماماتي ورغباتي الطبيعية، لخدمة قضية الولاء الكلي.

ليس من أهداف هذا البحث، نشر الأوهام، حول مدى التأثير، الذي يمكن أن يمارسه أي فرد بسيط وضعيف. ولكن خبرتي المحدودة بحياة الآخرين، علمتني أن من خلال ولائي الشخصي والعملي، وإن كنت مخلصا في ولائي حقا، أستطيع أن أساهم في قضية الولاء الكلي. فمن الذي يشجعني ويرشدني إلى الولاء ؟ أجيب قائلاً بأنه كل كائن إنساني يحيا حياة الولاء. وكانت له قضية، لا تثير كراهيتي ولا تؤدي إلى تقليل فرص الولاء المتاحة أمامي، يثير ولائي. كذلك لا حاجة هناك، لأن أشارك مباشرة في قضيته الخاصة أو الشخصية، لأني أصاب بعدوى الولاء. ويقدم لي نموذجاً على قيمة الولاء، فيثير ولائي بصورة غير مباشرة. إن الذين سبق أن تحدثنا عنهم، من الناس البسطاء والمجهولين لنا، يعدون نماذج مثالية للولاء، بسبب إخلاصهم في الولاء لقضية الولاء للولاء.

إذن أكتشف ولائي وأكتسبه من الآخرين، ولكن من الذين أشترك معهم في قضية واحدة فقط؟ الحقيقة إن المسألة قد تكون على هذه الصورة أحياناً. ولكن الناس الذين يختارون الولاء لقضايا، تنتمي لمجالات، تختلف عن تلك التي أهتم بها قد أكتسب منهم الثقة في الولاء، أيضاً، وإن كان بصورة غير مباشرة.

فمثلاً كان لي صديق، لم أره من سنين، وكان قد واجه الاختيار بين الاستمرار في عمل أحبه كثيراً، أو تلبية نداء الشرف والأمانة. فكان متيسراً له، أن يربح كثيراً من هذا العمل ويحقق النجاح، إذا ما وافق رئيسه، وتآمر معه، على خداع العامة في مسألة من المسائل، ولكنه كان مخلصاً لمبدأ الولاء للولاء. فصرح بالحقيقة وكشفها ورفض التآمر. ولما كان رئيسه صاحب نفوذ، فقد اختار ترك عمله، واعتزاله نهائياً، بصورة غامضة، حتى يضرب مثلاً لأقرانه على احترام الحقيقة، الآن هذا العمل، الذي هجره الصديق خدمة للولاء، يبتعد كثيراً عن مجال تخصصي، والقضايا التي ضحى من أجلها، بسبب ولائه لها، لم أهتم بها على الإطلاق. ولست على ثقة من استمرار

صداقتى له، إذا كان قد قدر لنا، أن نستمر فى الحياة سوياً، أو على مقربة من بعضنا البعض، فلقد كان لكل منا اهتماماته الخاصة. وكان من أصحاب الطبع الخشن، ويميل إلى العزلة، التى يتميز بها أصحاب التخصصات النادرة، خلاصة الأمر أنى لم أواجه فى حياتى الموقف الذى واجهه، وضحى فيه. ولم أواجه فرصة الاختيار التى واجهها، ولم أحرم من المعاملة العادلة التى حرم منها. ولذلك لا يمكن أن يكون قريباً منى بأى حال من الأحوال، وليس مشهوراً أو ذا نفوذ، ومع ذلك أدين له بالكثير. فلقد ضرب لى مثلاً، على التضحية كشف لى جانباً خيراً من الولاء، لم يكن فى مقدورى وحدى اكتشافه والواقع أنه لافائدة أجنيها الآن، من مدحه أو عزائه، فلقد اختار بعزيمة قوية ووعى واضح، وكان لا يميل إلى سماع المديح أو الثناء. ولكن ربما فى عام آخر، قد نلتقى فأخبره، بكم أنا مدين له على لفت انتباهى لقيمة الولاء، وعلى تنمية ولاء الكثيرين من أصدقائه. لأنى على ثقة. بأن هناك الكثيرين من الناس مثلى، يدينون له بصورة غير مباشرة بأكثر مما يتصور، أو قد يتصورون هم أنفسهم. بل وعلى ثقة أيضاً بأن معايير الولاء، والحقيقة العلمية أن هذا البلد، وفى يومنا الآن، قد بات أرقى بكثير، بعد إذعان هذا الشاب لقضيته ولمطالب الولاء الذى اختاره، وضحى من أجله.

إذن الولاء ينتقل بالعدوى، فلا يصيب المشاركين معك فى القضية فقط، وإنما ينتقل لكل من يعلم به. إن الولاء خير ينتشر فى كل الاتجاهات. فإذا عشت حياة الولاء، نمت حياتهم، وامتلأت به. ونستطيع أن نقول لمن يحيا حياة الولاء، كن مخلصاً حتى فى أقل الأمور، وأقل الأشياء، لأن حياة الولاء وروحه، تنتقل منك إلى آخرين، قد لا تعرفهم، فربما تجعلك، دون وعى منك حاكماً على أشياء وأمور كثيرة. إذن الولاء للولاء، ليس قضية نظرية، ولا يتم خدمتها، بمواطنة العالم، وإنما بخدمة قضيتك الشخصية والخاصة. والقضية التى تحدثنا عنها، والقاعدة التى عرضناها ليست قاعدة نظرية خالصة، بل قاعدة عملية. اسمحوا لى أن أعيد على ذاكرتكم معادلتنا الأخلاقية مرة ثانية، ونلخصها لكم، كما يلى: عليك أن تجد قضيتك الخاصة، القضية التى تهمك، وتخدم مصالحك، وتثير حماسك وتجذب اهتمامك وإعجابك، واخدمها بكل ما لديك من قوة وبكل روحك وكيانك، وتيقن أنك باختيارك للقضية وخدمتك لها، تثبت ولاءك للولاء، لأن اختيارك للقضية، وخدمتك لها، قد زاد من مقدار الولاء بين الناس .

ولئن بينّا، كيف تصبح قضية الولاء للولاء، قضية يستطيع الفرد خدمتها، بصورة فعالة وعملية ومستمرة. إلا أن الولاء ذاته، ليس مسألة تتعلق باليوم أو بالأمس. فلقد بدأ الولاء منذ بداية الحضارة المدنية. ولا يعد الولاء للولاء سلوكاً جديداً. فلقد بدأ فى تأثيره، منذ عقدت أول مجموعة متحاربة أول هدنة مؤقتة لوقف القتال، وعندما كان ينظر للغرباء عن القرية، على أن الآلهة تحرسهم وتم التعرف على واجبات الضيافة. لذا الطريقة التى يمكن أن تحقق الولاء للولاء، قد وضعتها النسبة العاقلة، أو الجانب العقلى من الأخلاق التقليدية، التى سنتها الخبرة الإنسانية.

ونصل هنا إلى نظرية مركزية معقولة أو مقولة أساسية فى كل فلسفتى عن الولاء. ولقد سبق أن عبرت عنها و أعلنتها فى المحاضرة الافتتاحية. هذا الفرضية هى : أن كل الواجبات، التى تعلمنا أن نعترف بها بوصفها الواجبات الأساسية للإنسان المتحضر، الواجبات التى يلتزم بها كل فرد تجاه الآخر، إذا ما تم تفسيرها تفسيراً صحيحاً، تعد نماذج خاصة، وأمثلة لقضية الولاء للولاء. بمعنى آخر، إن كل الفضائل المعترف بها، يمكن فهمها فى ضوء مفهوم الولاء. ولذلك قد سبق أن أكدت، إن الولاء، إذا تم تفسيره، وفهمه فهماً صحيحاً، يعبر عن كل الواجبات الإنسانية، أو الواجب الكلى لكل إنسان .

إن معظم الفضائل والحقائق، والمعروفة لنا تعد نتيجة غير مباشرة لنماذج معينة من سلوك الولاء، فعندما أقول الصدق يعد فعلى فعلاً مباشراً للولاء للرابطة الشخصية أو الصلة الخاصة، التى تربطنى بالفرد الذى أتوجه بالحديث إليه، وتكون هذه الرابطة أو تلك الصلة، فى هذه الحالة، قضيتى الخاصة، وأدخل مع الفرد الذى أتحدث إليه فى وحدة معينة تضم حديثنا معا. وأن أكون مستعداً لقول الصدق، لهذا الصديق، يعنى أنى لا أرى ولا أتحدث، إلا بما تأمر به هذه الرابطة التى قبلت الدخول فيها طوعاً، وهكذا إذن يعد قول الصدق، حالة خاصة من حالات الولاء. ولكن من يقول الصدق، يكون فى نفس الوقت مستعداً لمساعدة، كل إنسان على قوله. وأن يسلك، بما يؤدى إلى تعزيز الثقة العامة بين الناس وبعضهم البعض أو بين الفرد والآخر. ولا يستطيع أى

إنسان أن يتنبأ بمدى امتداد، هذا التأثير غير المباشر للولاء، أو ما قد ينتج عنه من نتائج غير مباشرة.

وكذلك يكون نفس الوضع فى العالم التجارى، فالأمانة فى العمل، لا تقتصر قيمتها أو تعد خدمة خاصة، بالأطراف المشتركة فى الصفقة التجارية، التى تظهر فيها. فالأمانة تعد عملاً من أعمال الولاء لهذه الثقة العامة من إنسان فى آخر، والتى تقوم عليها كل بنية العالم التجارى. كذلك يحدث العكس، فالمحاسب غير الأمين يسلك سلوكاً ينم عن عدم الولاء، يؤدى إلى انتشار الذعر بين مجموعة من الناس، ويسبب أذى للثقة العامة بين الناس، أكثر من الأذى الذى يكون قد سبب، لمن تأثروا مباشرة، وإنما يمتد ويشمل كل أفراد البشرية ككل، ويضر المجتمع والقضية العامة للولاء التجارى.

ولئن كانت هذه الملاحظة عامة وشائعة، إلا أنها تساعد على تجسيد، وتوضيح نظريتى العامة، بأن كل فعل من أفعال الواجب، يعد حالة من حالات الولاء، لأن كل ما ينطبق على الثقة والأمانة التجارية ينطبق بالتأكيد على كل فعل من الأفعال التى يمليها الواجب، فكل فعل من هذه الأفعال، يعد نموذجاً حسياً، وفعلاً عملياً، لقضية الولاء للولاء.

لقد بحثنا عن القضية الجديرة، ووجدناها. وساعدتنا بأبسط الاعتبارات الممكنة على أن نحول المجموعة العشوائية من القواعد المنفصلة والمختلفة، التى تتكون منها أخلاقنا التقليدية الشائعة، إلى نسق متوحد واحد، تضمه الروح الواحدة للولاء الكلى. حقيقة أنكم لن تستطيعوا أن تنقذوا العالم بأعمالكم الفردية، ولكنكم تستطيعون فى أى وقت أن تمارسوا الفعل، الذى يحقق ويعزز القضية، التى تمثل الخير الأقصى، لكم وللعالم الإنسانى، وبالتحديد قضية الولاء الكلى، وهنا يكمن واجبكم الكلى.

فإذا ما تم مراجعة كل الواجبات الإنسانية المتعارف عليها، فى ضوء هذا الاعتبار البسيط. فإن من السهل ملاحظة، قيامهم، وإجماعهم على مبدأ واحد هو عليك أن تكون على ولاء للولاء.

أهناك مثلاً واجبات تجاه نفسى، لابد أن ألتزم بها؟ نعم، طالما أن هناك واجباً علىّ، بأن أكون مخلصاً، وصاحب ولاء نشط وفعال. لأن الولاء، لا يحتاج إلى مجرد الرغبة

فقط، بل إلى الشخص والخادم الفعال النشط. إذن واجبى تجاه نفسى، يعنى واجبى بإمداد قضيتى، بعضو على درجة عالية من القوة والمهارة، وبأن يكون مؤثراً، طبقاً لقدراتى الطبيعية، فالعناية بالصحة، والتنشئة الذاتية، والتحكم الذاتى، والقوى الروحية، كلها أمور تعد ذات قيمة أخلاقية، بالاستناد على المبدأ القائل بأنه طالما أنى لا أرى، ولا أتحدث إلا بما تأمر به القضية فلابد أن أجعل من نفسى وسيلة فعالة لخدمة القضية قدر إمكانى، وبكل قواى التى يمكن أن توفرها لى طبيعتى الإنسانية. إذن سعى الفرد نحو أقصى تنشئة شخصية، ورعاية للذات، أمر يتطلب المبدأ. وفى نفس الوقت، أى رعاية ذاتية، لا ترتبط بالولاء، لا قيمة لها.

أهناك حقوق شخصية وخاصة يجب التمسك بها ؟ نعم طالما أن كل قدراتى وممتلكاتى الخاصة تخدم القضية، وفى بعض المناسبات، يتم الدفاع عنها من أجل القضية. إن حقوقى نتيجة أخلاقية، ونتاج لولائى. من حقى أن أحمى الخدمة التى أقوم بها، وأحافظ على مصالحى وأعمالى، وأصون كل ما أملك، فقد تأمرنى القضية باستخدامه. وفى نفس الوقت أى حقوق، لا يحددها الولاء، تعد مجرد مظاهر فارغة ومطالب لا قيمة لها.

وبالنسبة لواجباتى تجاه جارى، والتى أقامتها وحددتها التقاليد، على أساس مبدأى العدل والإحسان. فإنهما فى الحقيقة عبارة عن جانبين، أو مبدأين مشتقين من المبدأ. فالعدل يعنى بصفة عامة، عدم خيانة الروابط الإنسانية، وتهتم العدالة، بما يمكن تسميته، بالصور الخالصة، التى يعبر الولاء عن نفسه فيها. ولذلك تعد جانباً من جوانب الولاء. فإذا كنت عادلاً وحاسماً فى اختيار قضيتك الشخصية ومخلصاً لقرار الولاء، ومحافظاً على وعودك، وتحترم قول الصدق، وولاءات الآخرين، ولا تعارضهم، إلا فى حالة دفاعك عن قضيتك، من أجل الولاء للقضية الكلية للولاء، قد جعل هذه المعارضة مسألة لا تستطيع تجنبها. فكل هذه المواقف والأنشطة، يحددها الولاء للولاء. ولذا يحتاجهم المبدأ دائماً، ويمكننا من تحديد مجالات تطبيقها. ولذلك العدالة، بدون الولاء تعد عدالة شكلية فارغة.

من جهة أخرى، يعد الإحسان، من أحد جوانب الولاء، الذى يهتم مباشرة، بالتأثير فى الحياة الشعورية للناس، الذين يعانون أو يسعدون، ويتأثر خيرهم بأفعالك، فطالما

أنه لا يمكن لجارك أن يحصل على خير شخصى، أرقى و أفضل من ولائه، فإن ولائك للولاء نفسه يعد فى حد ذاته، نمطًا من أنماط الأنشطة الخيرية. وطالما كان هذا الجار، أداة لتعزيز قضية الولاء الكلى فإن حياته ورفاهيته، تحظى باهتمامك، لأنك بمساعدته على حياة مستقرة ميسرة، تجعله قادراً على الولاء. إن الإحسان مصاحب للولاء، وتمكننا روح الولاء للولاء، من معرفة الإحسان الحقيقى. فالإحسان بدون الولاء عاطفة خطيرة.

إن الولاء للولاء، يعد بالفعل، التجسد الكامل للقانون كله .

المحاضرة الرابعة

الضمير

من الأهداف الرئيسة لهذه المحاضرات، تبسيط مفهومى الخير والواجب. فعندما أعانى الحيرة فى بعض المواقف العملية، التى أواجهها كل يوم، فى الحياة العملية، فإن تجاهل التعقيدات غير المجدية، والبحث مباشرة، وبطريقة مباشرة عن الجوانب الأساسية لموقفى، يعد أفضل النصائح التى قد يقدمها لى، صديق يرغب مساعدتى، على تخطى هذه المواقف المحيرة. وهكذا أيضاً، كل فيلسوف أخلاقى، يحاول وضع نظرية عقلية للواجب، يجب عليه، أن يفعل بنصيحة الصديق العملى، فى المواقف المحيرة، ويتخلص من التعقيدات المربكة لموقفنا الأخلاقى. وسأحاول فى هذه المحاضرات تحقيق هذا المطلب بتركيز كل جهودنا، وواجباتنا حول المفهوم الواحد للولاء.

- ١ -

تتكون الأخلاق التقليدية كما نتعلمها دائماً، من مجموعة من القواعد المتناقضة حصلنا على بعضها من المسيحية وتعاليمها، والبعض الآخر، ربما من مصادر غير مسيحية أو مضادة للمسيحية، وبغض النظر عن مصدر هذه القواعد مسيحية أو يونانية أو بربرية فإنها تتراكم أو تتجاور فى عقولنا، وفى أحيان كثيرة تتجه إلى التصارع فيما بينها. فكن عادلاً، ورحيماً فى نفس الوقت. وكريماً ولكن لا تنس حقوقك. عش من أجل الآخرين، ولكن حافظ على كرامتك، وابحث عن حقوقك. محبًا كل الإنسانية، ولكن لا تقبل الإهانة، ومستعداً لمحاربة أعداء وطنك. لا تفكر فى الغد كثيراً، ولكن عليك بالادخار للمستقبل، اعتنى بمصلحتك لأقصى درجة، ولكن كن مستعداً للتضحية بها، أنكر ذاتك، ولكن لا تصل إلى المرحلة التى يذكرك الآخرون بأنك نسيت نفسك ". كن معتدلاً فى كل شىء، ولكن لا اعتدال فى الدفاع عن الحق. كانت هذه بعض التناقضات الشائعة فى أخلاقنا الشعبية. والواقع أن هذه التناقضات، ليست وليدة الصدفة، ومن الواضح أنها تعبر عن بعض الحقائق، أو عن حقيقة واضحة معينة،

وغايتنا البحث عن منهج نشق به طريقنا، وسط هذه الفوضى مبدأ يحقق الوحدة لحياتنا الخلقية، ويمكننا من حل هذه التناقضات.

لقد حاولنا اقتراح مثل هذا المبدأ الرئيسى والموحد، فى المحاضرات السابقة، وكان الموضوع الرئيسى فى محاضراتنا السابقة متعلقاً، بالبحث عن المعيار الذى نعرف به، مدى استحقاق قضية معينة مقترحة لولائنا. أى كيف نعرف القضية الجديرة بالولاء؟ واجبنا بأن فى جميع الحالات، هناك قضية واحدة، جديرة بولاء كل إنسان. وهذه القضية، هى قضية الولاء نفسه. فافعل قدر استطاعتك، لتساعد الآخرين على حياة الولاء، والاستمرار على التمسك بسلوكه. كانت القاعدة التى خرجنا بها من دراستنا، لقيمة الولاء لأصحابه، وكل من يتبع ويتمسك بهذه القاعدة العامة، يستطيع أن يحدد لنفسه، قضية، ويعقد الولاء معها ويمكن التعبير عن قاعدته الخلقية الرئيسية بعبارة واحدة ألا وهى: عليك بالولاء للولاء.

وقد أكدنا على صلاحية هذا المبدأ الأخلاقى، لإرشادنا نحو الفعل الواجب علينا، أو ما يجب القيام به، للأسباب التالية : أولاً، الحقيقة الأولية، المتمثلة فى أن ولاء الفرد، يعنى خيره الاقصى. وثانياً : أن هذا الخير ليس ارستقراطيا، مقصورا على مجموعة محددة من القديسين أى أن خير الولاء ليس خيراً، يخص طبقة معينة، بل على العكس من ذلك خير، يمكن أن يتحقق لكل إنسان مهما كان وضعه الاجتماعى، طالما كانت له اهتمامات إنسانية عادية، وقدرة معقولة على التحكم الذاتى. ولقد لاحظنا، أنه لاوجود لحياة إنسانية، لا تقدم فرصاً سانحة للولاء. وكل من يحيا حياة بغض النظر عن وضعه الاجتماعى، يحقق لنفسه نفس مقدار الإشباع الروحى، ونفس الصورة العامة، وبالأخص، الحصول على الاعتداد الذاتى من الاستسلام الذاتى. أى حصول الأنا على استقلاله من خلال إذعانه. فالحارس الليلى لمنزل مهجور والخاضع لمجتمع ولنظام اجتماعى، والخادمة والملك، كلهم جميعاً، يحظون بفرص متساوية، لتكريس النفس، لخدمة قضيتها المختارة، وكسب الخير من هذا الاختيار، وتلك الخدمة، وهذا التفانى، وكنتيجة لهذين الاعتبارين، كل من يسعى لدعم وتعزيز القضية العامة للولاء، يكون هادفاً بالتأكيد، لتحقيق الخير الاقصى للبشرية جمعاء. ولذلك، من المؤكد أن قضيته قضية جديرة ومستحقة للولاء.

ولايعتبر الشروع فى تعزيز القضية العامة للولاء، مسألة نظرية، أو موقفاً غير عملى، أو نوع من الخير غير الواضح. فالحقيقة على العكس من ذلك، فمن كل المجهودات التى قد تبذلها، لتحقيق صالح الآخرين وخيرهم، يعد حثك لهم على الولاء، للقضايا التى يختارونها، بأنفسهم، من أفضل الأمور العملية، ومن الصعب عليك، تحقيق الخير لأى مجموعة من الأفراد، تحقيقاً مباشراً، أو بأى فعل مباشر من جانبك، إلا لقلة قليلة لمن تكون على صلة مباشرة بهم، أو يرتبط خيرهم بخيرك. ولئن كان من الممكن التفانى والتخلص من بعض صور المعاناة عن طريق المؤسسات الخيرية، أو صور الإحسان الخاصة والشفقة إلا أن المتفانى يواجه الحياة مرة أخرى، ويظل السؤال، عن كيف تستطيع مساعدته أو منحه الحياة، سؤالاً بدون إجابة. فإذا، ما حاولت إسعاد رفيقك بتقديم سعادة، لم يبذل جهداً فى الحصول عليها، فإنك لا تعلمه فى الحقيقة، إلا الدعة والكسل. وإذا ما حاولت تحقيق سعادته بوسائلك الخاصة، فإنك سريعاً ما تلاحظ أنه يفضل البحث عن سعادته بطريقته الخاصة. وإذا ما حاولت، توفير الأمان له، وتحقيق راحته، فإنك سريعاً ما تصطدم مع رغباته الطبيعية المتغيرة.

ولكن إذا شرعت فى تعليمه الولاء، فإنك تجد بالفعل الكثير الذى تستطيع تحقيقه، لأنه كما قد أوضحت فى نهاية المحاضرة السابقة، بأن كل ما يراه الفهم العام، من واجباتك العادية تجاه البشرية، يمكن النظر إليها، أو يجب النظر إليها، بوصفها وسائل عملية فعالة للمساعدة فى تحقيق قضية الولاء العام. لذلك تستطيع قول الصدق لرفيق فتساعده على الشعور بالثقة فى الجنس البشرى. وهذه الثقة فى بنى الإنسان، تساعده بدورها على الصدق فى أقواله. وقوله الصدق، يساعده على الشعور بالسلام الحقيقى، لأنه صورة من صور الولاء. وبالتالى يساعده على أن يحيا حياة الولاء بنفسه. وهكذا يوجد العديد من الوسائل والطرق التى تساعده على أن يحيا حياة الولاء، بقدر عدد الواجبات العادية التى تلتزم بها تجاهه، لكى تعيش حياة آمنة ومستقرة وهادئة معه.

اسمحوا لى أن أعرض عليكم مثلاً، لم أتناوله فى الأمثلة السابقة فى المحاضرة الماضية، فقيمة المعاملة الحسنة، فى معاملاتنا الإنسانية العادية، تكمن فى حقيقة أنها تعد تعبيراً من تعبيرات الولاء للولاء، وتساعد كل من يمارسها أو يشاهدها على أن ينتهج سلوك الولاء، تجاه كل القضايا الناتجة من المعاملات المسالمة والعاقلة بين

الإنسان وأخيه الإنسان. فى الواقع والحقيقة إن كل صور المعاملة الحسنة، والاحترام كانت تستمد بل ومازالت تمثل إلى حد ما، صوراً للتعبيرات الرسمية عن الولاء. لذلك يمكن اعتبار الاحترام، نموذجاً واضحاً لسلوك الولاء. فانتهاج مثل هذا النهج بإخلاص وصدق، يعد أصدق تعبير، يمكن أن تعبر به فى أفعالك عن الولاء للولاء الكلى. لذلك سلوكك تجاه الآخرين، يساعد كل من يستفيدون من أعمالك، أو يلاحظونها، على نهج سلوك الولاء. فالاحترام، أو المعاملة الحسنة، لا تعد واجباً تجاه الفرد الذى تتوجه له بالاحترام فقط، بل للإنسانية جمعاء.

هناك إذن طرق عديدة لمساعدة رفاقكم على الولاء. وكما سبق أن قلنا فى محاضرة سابقة أن واحدة من أهم هذه الطرق الأكثر تأثيراً، تكمن فى ولائك أنت ذاتك، لقضيتك الاجتماعية التى تختارها، كهدف لحياتك. ولا ضرورة هناك، فى أن تكون هذه القضية الخاصة، قضية يشترك فيها مباشرة، من ترغب فى مساعدتهم على تعلم الولاء. فتمسكك بالولاء الجاد بقضيتك، كفيل بنقل عدوى الولاء لهم. إن كل من يحيا حياة الولاء الخاصة به، يساعد على تحقيق قضية الولاء الكلى، بمجرد ممارسته لسلوك الولاء، وطالما كان بعيداً عن أى سلوك عدائى، يؤثر على ولاء الآخرين، فإن نموذج ولائه، سوف يؤتى ثماره، دون أى جهد من جانبه، وهكذا كل من يسعى للولاء، ويجعل تعزيز الولاء الكلى قضيته، لن تنقصه الوسائل، ولا الفرص لخدمة قضيته .

لذلك يقول مبدأنا لكل إنسان : لتحيا حياتك الخاصة بالولاء، واستسلم لمبدأ الولاء للولاء. وعليك أن تختار قضيتك، وتخدمها، ولكن بحيث تؤدى حياتك إلى نشر الولاء وازدهاره بين الناس. قد يجعل الحظ مجال اختيارك للقضية محدوداً، وقد تفرض الضرورة عليك واجبات شاقة. ولكن د ع الولاء يخفف من غلوائها ومشقتها. ليكن الولاء الدرة الغالية، التى تسعى إليها، تنازل عن كل سعادة لديك أو تأمل فى الحصول عليها من عدم ولائك، أو من أنشطة لا تنبع من الولاء، واقتنى تلك الدرة، فعندما تجد قضيتك الشخصية والخاصة، فعليك أن تخلص لها، وتحيا الحياة، التى تسمح بها قضية الولاء للولاء. وإذا القضية التى اخترتها، أو اخترت حياة الولاء لها، تضمنت نوعاً من عدم الولاء للولاء، مثل إخلاصك لقائد، اكتشفت فيما بعد، خيانته للقضية الإنسانية، يحق لك ترك هذه القضية، التى اخترت الولاء لها. ولكن لا تتخلى عن قضية، إلا من أجل ولاء أعلـــى، وأكثر عمقاً يتطلب بالفعل مثل هذا التغيير.

وفى نفس الوقت، يتطلب مبدأ الولاء للولاء، أن تحترم الولاء لدى كل الناس ،وأينما تصادفه. وإذا واجهت معارضة من رفيق لك، ونافست قضيته قضيتك، وبات الصراع بين القضيتين محتوماً، وأصبح ولاءك يتطلب الدخول معه فى صراع. فإنه أيضاً فى هذه الحالة يجب أن تتجنب الهجوم على كل ما هو حقيقى وعزيز لديه أى تتجنب القضاء على روح الولاء لديه. وحتى إذا كانت قضية الرفيق تحوى نوعاً من عدم الولاء للبشرية عامة، فإنه لا يحق احتقار ولاء هذا الرفيق، طالما أنه ولاء فى حد ذاته. قد يحق لك انتقاد القضية التى اختارها، أو توفيقه فى الاختيار، ولكن عليك أن تدرك أن كل أصحاب الولاء أخوة. وأبناء روح واحدة. إن مبدأ الولاء للولاء، يتضمن التعزيز النشط لهذه الروح أينما تظهر. فاللعب النظيف فى الرياضة، واحترام روح الشجاعة فى الحرب، والتسامح تجاه المعتقدات الصادقة لدى الآخرين، كلها قضايا، وفضائل تعد صوراً متغيرة ومتعددة للولاء. فعليك منع الصراعات بين الولاءات قدر إمكانك. وتقليل هذا الصراع أينما وجد. وتستطيع بفضيلة اللعب النظيف وسلوك الفرسان تجاه الخصوم، أن تستفيد من الصراع نفسه إن كان أمراً محتوماً، فى تعزيز قضية الولاء للولاء، فإذا كانت هذه التعاليم نتائج واضحة لمبدأنا، ألا نكون قد حققنا الكثير فى الطريق إلى وحدة أخلاقية وإلى القانون الأخلاقى الواحد.

- ٢ -

لقد سبق أن تحدثنا عن التناقضات الأخلاقية، وإشكالية الأحكام، فهل يمكن أن يرشدنا المبدأ لنهج نحل به هذه التناقضات؟ ونهتدى به وسط هذه الفوضى؟ فالعبارة المعبرة عن الأمر الأخلاقى "عليك أن تكون عادلاً ورحيماً فى نفس الوقت" إن كان لها معنى، فإنها تشير كما سبق أن أوضحنا، إلى وجود ارتباط بين الأمرين، الأمر بالعدل والأمر بالرحمة، وكما سبق أن عرضناهما فى نهاية المحاضرة الأخيرة، ما هما إلا جانبان مترابطان، مع بعضهما البعض، من جوانب الولاء، بالرغم من تميزهما، فتربطنى القضية التى أختارها، مع رفيقى، بروابط اجتماعية معينة ننظر إليها دائماً، من منظورنا الإنسانى للحياة، على أنها اهتمامات لا شخصية .. مثل الاهتمام بحقوق الملكية، والإلزامات الصورية، والوعود، فإن كنت أحيا حياة الولاء، لابد أن أحترم هذه

العلاقات. ويجب على الالتزام بذلك، طالما أن تعريف القضية، الجديرة بالولاء، يتضمن فقدانها لجدارتها ولقيمتها، إذا لم تتم المحافظة على وجود هذه الروابط. واحترام هذه الروابط، يطلق عليه الناس، ما يسمى بالعدل. فى نفس الوقت، تهم القضية المشتركة، صديقى وأنا طالما أننا نعرفها، ونحبها ونسعد بها، اهتماماً شخصياً. ولذلك ولائى لقضيتى يعنى الشفقة تجاه رفيقى، والشفقة التى لا ترتبط بولاء، تعد أقوالاً لا قيمة لها، أو عاطفة عابرة. والعدالة التى لا ترتبط بالولاء، تعد عدالة مجردة، ومظهراً شكلياً فارغاً. فصديقى، يريد حياة الولاء. وهذه الرغبة تعبر عن حاجة عميقة وشديدة لديه فإن كنت على ولاء لهذه الحاجة ذاتها، أستطيع إسعاده سعادة حقيقية. ولكن وجود الشفقة دون ولاء، يفقدها قيمتها، فقد يسعد رفيقى فترة من الوقت، ولكن مثلها مثل الخيال، تموت فى مهدها. وكذلك أيضاً، إن كنت أحيا حياة الولاء، فأنا أحيا أيضاً حياة العدل. والعدالة المنفصلة عن الولاء، أو التى لا تعد أحد جوانب الولاء، تفقد سبب وجودها. لذلك العلاقات الحقة بين الشفقة والعدالة، لا يمكن فهمها بصورة صحيحة، إلا فى ضوء مفهومنا عن الولاء. فإن قال أحدهم " أستطيع أن أكون عادلاً ورحيماً، بدون إحساس بأى ولاء " فإن من يحيا حياة الولاء، يرد قائلاً " إن ولائى، سبب عدالتى ورحمتى".

وبنفس الطريقة، يمكن النظر لكل المشكلات الأخلاقية، حول العلاقات الصحيحة، بين البخل والكرم، التبعية والثقة، الاستسلام الذاتى والاعتداد الذاتى، محبة الخير ومقاومة العدو وأستطيع القول، بأن كل هذه المشكلات الأخلاقية، يمكن تقديم أفضل الحلول لها، بناء على مبدأ الولاء للولاء.. فبالنسبة لمسألة العناية بالذات، يربى من يحيا حياة الولاء نفسه على العناية بذاته وممتلكاته، لكى يوفر لقضيته الوسيلة الفعالة التى تساعد على تحقيقها، ولكنه فى نفس الوقت يستطيع تجاهل مطالبه الذاتية، إذا وقفت، فى أى وقت من الأوقات، حائلاً أمام التعبير عن ولائه بل والاستغناء، أو حتى التضحية بثروته، إن كانت لا قيمة لها، فى خدمة القضية، وعندما يؤكد ذاته، فإنه يؤكدها لأنه لا يرى ولا يسمع، إلا ما تأمر به القضية، وهذا التأكيد للذات وتلك التضحية بها، هى ما يحاول الخصم الذى يعارض قضيته أن يتجنبه أو يحترس منه. وهكذا نجد أن التناقضات بين العناية بالذات وإهمال مطالبها، يمكن حلها، فى ظل مبدأ الولاء للولاء، فكل من يحيا حياة الولاء، ويسلك سلوكه، يحل هذه التناقضات التى تواجهه فى

المواقف المختلفة بصورة تلقائية، وكل من يفهم طبيعة الولاء للولاء، كما تظهر فى صورة اللعب النظيف فى الرياضة وأخلاق الفروسية فى الحرب، أو التسامح فى الاعتقاد، والروح التى تسعى للتقليل من الصراعات بين الولاءات المختلفة، كلما كان فى مقدورها، أن تمنعها .. أقول، كل من يفهم الولاء للولاء، تنفتح أمامه أسرار العلاقة الصحيحة بين حب الإنسان للفضائل وأخلاق الصرا ع والتنافس.

- ٣ -

وكما لاحظتم فقد قصدت متعمداً، القول بأن مبدأ الولاء، يعبر بصورة كافية لما يسميه الفهم العام باسم أوامر الضمير. ولكن عندما صرحت بهذه الدعوة، قادتنى إلى مسألة جديدة، فخصصت هذه المحاضرة لبحثها وتوضيحها.

ولكى نتناول الموضوع بصورة عملية، نطرح السؤال التالى : أيعد مبدأ الولاء للولاء، وسيلة نحل بها تناقضات معينة، أم أنه معيار عام، وآمن، وكاف لمعالجة ومعرفة الصواب والخطأ، فى المواقف الأخلاقية المحيرة، التى تظهر فى حياتنا اليومية؟ فلقد بينا بالفعل، كيف أن الواجبات الإنسانية والفضائل الأخلاقية الشائعة، مثل قول الصدق، والمعاملة الحسنة، والاحترام، واللعب النظيف فى الرياضة، والشهامة تجاه الأعداء، يمكن أن ننظر إليها، إذا أردنا على أنها صورة خاصة، لمبدأ الولاء للولاء. ولكنك، قد تعترض قائلاً، بأن تفسير بعض هذه الفضائل والواجبات التى نعرفها، فى ضوء مبدأ الولاء للولاء، يعد شيئاً، واستخدام مفهوم الولاء للولاء، كوسيلة عامة أو كلية، لمعرفة ما ينبغى علينا القيام به، عندما نعانى فى حالة الشك شىء آخر. هل يصلح المبدأ، لأن يكون مرشداً عملياً لنا، فى كل الأحوال والظروف والمواقف؟ أو باستخدام مصطلح شائع، هل يعد مبدأ الولاء للولاء، كافياً للتعبير عما نعنيه دائماً بعبارة " أوامر الضمير"؟

وتعتبر كلمة " الضمير " التى باتت كلمة هامة فى فلسفتنا عن الولاء من الكلمات ذات المعانى المتعددة، وتعد مشكلة الطبيعة الحقة للضمير الإنسانى، من المشكلات الصعبة والمعقدة.

ولذلك سوف أتعامل مع هذه المسألة، بقدر كبير من الحرص، وبالقدر الذى يعد ضرورياً، لهدفنا العملى الواضح فعندما شرحت المبدأ أو الأمر، بأن تحيا حياة «الولاء للولاء»، قلت بأنه يمثل قاعدة عامة ومرشدة للسلوك. ولكن معظمنا، عندما يقول " بأن ضميرى، يملى على، هذا أو ذاك السلوك "، لا يقصد أن يحدد الضمير فى ضوء قاعدة واحدة، أو مبدأ أخلاقى واحد، فضميرنا يبدو لنا دائماً ممثلاً للعديد من البواعث الأخلاقية المتميزة، والمرتبطة فى نفس الوقت مع بعضها البعض كالحكمة، أو التبصر، والمحبة، والشفقة وغيرها من البواعث. كذلك دائماً لا نعرف سبباً لكثير من أوامر الضمير، وعادة ما نشعر بالغموض، حتى أننا نقول دائماً، لا نعرف لماذا يجب أن أفعل كذا أو كذا من السلوك، ولا لماذا يعد هذا أو ذاك السلوك، سلوكاً صائباً، ولكنى أشعر فى أعماقى أنه سلوك صحيح، لأن ضميرى، يخبرنى، بأنه سلوك صائب. ولذلك طالما أن الضمير، يبدو دائماً معقداً وسراً غامضاً، فإنه من الطبيعى أن تتردد دائماً، فى قبول آراء الأخلاقيين الذين يحاولون حسب ما ترى، أن يقللوا أو يبسطوا إلى حد كبير مطالب الضمير. وربما تؤكد أيضاً أن المذهب الأخلاقى، الذى قد عرضته عليكم سابقاً، يشبه كل المذاهب الأخلاقية، التى تملأ تاريخ الفلسفة ولا تختلف وجهة نظرى عن كل فلاسفة السلوك السابقين. لأن النظرية التى أعرضها لاتستطيع أن توجه الفرد، لما ينبغى عليه القيام به، عندما يواجه حالة محيرة من حالات الضمير.

إن تأنيب فلاسفة الأخلاق، على وضعهم مبادىء أخلاقية نظرية، تتصف بالمعقولية والاتساق، ولكننا لا نستطيع تطبيقها، تطبيقاً عملياً، إلا إذا كانت مقبولة من الفهم العام، أو قد سبق له الموافقة عليها .. يعد اعتراضاً قديماً على فلاسفة الأخلاق. وأود أن أبين لكم، كيف واجهت هذا الاعتراض، وكيف وإلى أى مدى يستطيع مبدأ الولاء للولاء، أن يعبر عن الأوامر الحقيقية للضمير، ويدلنا على ماذا نفعل فى المواقف المشكوك فيها.

ما هو الضمير؟ قد نتفق جميعاً، على أن الكلمة، تعنى ملكة عقلية لدينا، تمكننا من إصدار أحكام صحيحة أو خاطئة، تجاه المسائل الأخلاقية التى تواجهنا. إذن ينتمى ضميرى إلى عقلى، ويرشدنى عن الصواب والخطأ فى السلوك. كذلك قد يوافق أو لا يوافق على سلوكى بالرضا أو بالتأنيب .

ومن الواضح أننا نتفق جميعاً بالنسبة للطبيعة العامة للضمير ووظائفه. ولكن الاختلافات تبدأ بيننا، إذا طرحنا الاسئلة التالية : هل الضمير فطرى؟ هل يكتسب من التدريب؟ هل أوامره واحدة لكل الناس؟ أيعد هبة إلهية؟ أهو معصوم من الخطأ؟ أيعد قوة منفصلة للعقل؟ أم أنه ببساطة عبارة عن مجموعة من الأحكام الأخلاقية التى اكتسبناها من التدريب الاجتماعى، ومن التفكير، ومن الخبرة الشخصية بنتائج السلوك؟

- ٤ -

ولكى أحاول إجابة هذه الأسئلة، لابد من ملاحظة، بعض الملامح الهامة، التى تخص الحياة الشخصية لكل فرد منا. ويظهر أول هذه الملامح، إذا لم يتوقف الفرد عند السؤال عن " ما هو الضمير؟ " ويستمر فى التساؤل، إلى ما هو أعمق من ذلك، ويسأل عن " من أنا وماذا أكون؟ ". والواقع يكفينا الآن، أن نلاحظ أنى لا أستطيع إجابة هذا السؤال " من أنا؟ " إلا بعرض لبعض غاياتى وخططى الحياتية. قد يجيب فرد ما، عند سؤاله " من أنت؟ " بذكر اسمه. ولكن الاسم مجرد بطاقة. ولذلك نجده يستمر دائماً، فيخبرنا عن مكان إقامته، والمكان الذى جاء منه.

فالواقع أن مكان سكنه وميلاده، من المسائل التى يمكن تسميتها، مسائل وجوانب مفيدة أو هادفة لشخصيته. لأن مكان الإقامة، والميلاد، ومثل هذه الحقائق الواقعية عن الفرد تتجه إلى إلقاء ضوء على شخصيته، لأنها تفيد فى معرفة علاقاته الاجتماعية، والأنشطة التى يمارسها فى المجتمع.

ولكن الإجابة الصحيحة للسؤال " من أنت؟ " تبدأ عندما يذكر الفرد وظيفته ويعرض أهدافه، وكيفية التعبير عنها فى حياته. وعندما يستمر الفرد، فى القول " بأنى الفاعل لهذا أو ذاك العمل، أو لهذه أو تلك الأعمال، وصديق لهؤلاء الأصدقاء وعدو لأصحاب الغايات المتعارضة، والعضو فى هذه الأسرة، وصاحب المثل العليا، كذا وكذا، وقمت بكذا وكذا فى حياتى". فإنه يعبر لك، وينقل إليك بالتفصيل، ما يستحق المعرفة لإجابة السؤال " من أنت؟ "

وباختصار شديد، أقول إن الفرد، أو الشخص، أو الأنا الفردى، يمكن أن يعرف بأنه عبارة عن حياة إنسانية، تحيا وفقاً لخطة. وإذا عاش الفرد بدون خطة، وبدون هدف، وبصورة سلبية، فإنه قد يكون كائناً عضوياً، أو حتى كائناً نفسياً، ولكنه لا يمكن أن يوصف بأنه شخصية. فأينما توجد الشخصية، توجد أهداف لحياة. وإذا ما كان هناك، كما يحدث دائماً مجموعة من الأهداف المتصلة بحياة هذا المخلوق الإنسانى، وكثير من الخطط الحياتية لحياته ولكن لا يوجد وحدة بين هذه الأهداف، أو خيط واحد يجمع هذه الخطط، فإنه لايكون هناك، إلا بعض الجوانب الذاتية، وعدة نفوس جزئية، لا تتصل بحياة أحد الكائنات الإنسانية. ولا توجد هناك نفس يمكن معرفتها، أو شخص واحد يمكن التعرف عليه، فليس لك نفس واحدة إلا إذا كانت حياتك العضوية ترتبط بهدف واحد يسرى فيها. إذن نعنى بقولنا " هذا الشخص " أو هذه الأنا، هذه الحياة الإنسانية، التى تعبر عن هدف واحد. ولكن لا ينبغى لهذا الهدف الواحد، الذى تعبر عنه حياة هذه الذات الفردية، أن يكون هدفاً مجرداً خالصاً. بل على العكس، فكثير منا، يدرك تماماً، أن حياتنا تتوحد، بسبب الجهد الذى نبذله، لتأكيد وجودنا بوصفنا أفراداً فى هذا العالم. حقيقة أن العديد منا، لم يعرفوا حتى الآن، كيف يؤكدون ذواتهم. ولكننا نحاول أن نعرف. وهذه المحاولة ذاتها تصبح هدفاً لحياتنا ذاتها، وبالتالى للشعور بوحدتها.

ولكن بمجرد أن نجد بالفعل قضية أكبر وأوسع من ذواتنا، ونكون على استعداد كامل لخدمتها والولاء لها، فإن هذه القضية، نفسها، تقدم لنا الوحدة المطلوبة لحياتنا، وتحدد شخصية كل فرد منا، حتى وإن كان ليس فى مقدورنا، أن نعبر أو نعرف فى مجموعة من المعانى المجردة، الطبيعة الحقة لهذه القضية. فالولاء أحياناً أبكم. وغير واضح بل وغالباً ما يكون هكذا، خاصة فى تلك النماذج البسيطة والغامضة، التى قد سبق أن أشرت إليها فهؤلاء الناس، غالباً ما يعبرون عن ولائهم فى الأفعال، ولا يستطيعون التعبير عنه بالكلمات. أو يقدمون تفسيراً نظرياً محكماً لهدفهم. ومع ذلك يوفر لهم ولاؤهم غاية ومهمة، توحد أنشطتهم، وتجعل من كل واحد منهم، ذاتاً فردية مستقلة.. أى حياة تتوحد أحداثها فى هدف واحد. ولأن الهدف فى مثل هذه الحالات، قد يأخذ صورة رغبة شديدة لخدمة القضية، أو طاعة واستسلام لمهمة مثالية، إلا أنه فى جميع الحالات، أينما يوجد الولاء، توجد الذاتية، والشخصية، أو هدف فردى متجسد فى حياة.

والآن وبالإضافة إلى ذلك، وإذا ما صح قولنا فى المحاضرتين الأولى والثانية، بأنه، أينما تتوحد ذات إنسانية، شعورياً وعملياً، يوجد نوع من أنواع الولاء. لأن كما سبق أن لاحظنا، أنه بدون نوع من الولاء لغاية معينة، فإن هذه الكتلة من الغرائز، والعواطف، والاهتمامات الاجتماعية، أنه بدون نوع من الولاء لغاية معينة، فإن هذه الكتلة من الغرائز، والعواطف، والاهتمامات الاجتماعية، والتمرد الذاتى، الذى تتكون منه الطبيعة الأصلية لأى فرد منا، لا يمكن أن تجتمع كلها فى وحدة واحدة، أو يضمها مركب واحد.

ولتلخيص ما سبق، لا حياة «للأنا»، إلا إذا وحدها هدف مفرد، وتمثل الولاءات هذه الأهداف. وتجعلنا كائنات واعية، وشخصيات عاقلة وأصحاب خلق. وحينما لا يكون الولاء محدداً، لا نجد لدينا، إلا محاولات جزئية متفرقة، لمشروع ذات فردية، ولإن كان مثل هذا المسعى تجاه تحقيق الذات الحقة للفرد، يعد فى حد ذاته، نوعاً من أنواع الأهداف الحياتية، التى تهدف إلى تمييز حياة الفرد، وتحقق له التفرد، وتقدم له هدفاً، ومهمة وواجباً. إلا أن الولاء، يحقق للفرد الوعى الذاتى الأخلاقى الكامل. إن تفانى الذات لخدمة قضية معينة، هو ما يجعلها، ذاتاً عاقلة متوحدة. وليس مجرد مجموعة من المساعى المشتتة والمجهودات الضائعة، التى تتبخر فى الهواء.

- ٥ -

ولكن ربما نتساءل، وما علاقة هذه النظرية الخاصة «بالأنا» بالضمير؟

أجيب بأن طبيعة الضمير، لا يمكن فهمها بصورة صحيحة إلا فى ضوء نظرية خاصة بطبيعته بالأنا، مثل تلك التى عرضنا لها .

فلنفرض حسب المعنى السابق «للأنا»، أنى صرت ذاتاً متوحدة، وصاحب ولاء، وبات لذاتيتى جانبان. الأول يتمثل فى حياة أحياها، بوصفى صاحب ولاء، والثانى مثل أعلى. والحياة نفسها، ليست هى المثل الأعلى. إذ يظل هناك نوع من التمييز بينهما. لأنى لا أستطيع بأحد أفعالى أو بمجموعة محددة من الأفعال، أن أجسد مثلى الأعلى تجسيداً كاملاً. فالمثل أستمده من القضية مثل المثل الأعلى " الذى تمسك به المتحدث باسم

البرلمان فى القصة التى سبق لنا سردها، وعرضها بوصفها نموذجاً للولاء قد جاء إليه من المجلس. فدائماً قضيتى، تكون أكبر وأوسع وأعظم، من حياتى الفردية. ولذلك دائماً ما تضع أمامى، مثلاً أعلى، يتطلب دائماً مزيداً من الأفعال، التى مهما أنجزتها، لن أوفيه حقه من الخدمات، وبالتالى لن أستطيع تحقيقه تحقيقاً كاملاً، فى أى لحظة من اللحظات. وبسبب ضخامة هذا المثل الأعلى، وعظمة القضية، وتفوقها الدائم، بالنسبة لقدراتى، يستطيع المثل الأعلى، توحيد حياتى، وبناء الذات العاقلة. أو الأنا الواعى.

لذلك، إذا كنت بالفعل، ذاتاً واحدة، فإن مثلى الأعلى، يقف دائماً فى مواجهة حياتى الفعلية. وكل فعل من أفعال هذه الحياة يتم تحديده، وتقديره، والحكم عليه، من الناحية الأخلاقية، حسب هذا المثل الأعلى، أو فى ضوء تعليماته. ولذلك، تعتبر قضيتى، إذا كانت تعبر عن نفسها من خلال مثلى الأعلى الخاص، هى ضميرى .. لأنها ومثلى الأعلى، إذا تم النظر إليهما معاً، أو بوصفهما شيئاً واحداً، يقومان بنفس الوظيفة، التى تنسبها التقاليد للضمير. إن قضيتى، فى فلسفتنا عن الولاء، هى ضميرى .. أى قضيتى، كما يفسرها، ويقدمها مثلى الأعلى لحياتى الشخصية. فعندما أنظر إلى قضيتى، تمدنى بضمير، لأنها تضع أمامى خطة ومثلاً أعلى للحياة، ثم تأمرنى باستمرار، بمقارنة هذه الخطة، وذلك المثل الأعلى، بكل أفعالى ودوافعى اللحظية العابرة والمتغيرة.

فمثلاً إذا كنت قاضياً، وعلى ولاء لوظيفتى الرسمية، فإن ضميرى، أى ضمير القاضى، يكون ببساطة عبارة عن مقارنة مثلى الأعلى بوصفى قاضياً، مع كل حكم من أحكامى الحاضرة والجزئية على المواقف المباشرة التى تعرض على المنصة أمامى. فإذا كنت منحازاً فى لحظة من اللحظات إلى طرف من أطراف القضية، المعروضة أمامى، أجد مثلى الأعلى. يقول : يجب أن يكون القاضى حيادياً وإذا تسرعت فى حكم من الأحكام، يخاطبنى بقوله : بأن القاضى لابد أن يتأنى فى الحكم، ويلم إلماماً كاملاً بجوانب القضية كلها. إذا تعرضت لرشوة، يرفضها ضمير القاضى، لأن المثل الأعلى لا يسمح بها على الإطلاق. ولكى أستطيع الحصول على ضمير القاضى، لابد أن أكون قادراً، على النظر إلى مهنتى، على أنها تنفيذ لهدف واحد، ولقضية واحدة. ولئن تعلمت هذا الهدف بالفعل من تقاليد الوظيفة، أو فى صورة التقاليد للوظيفة، إلا أنه لابد أن

أكون قد قبلت هذه التقاليد، كما لو كانت تقاليدى الخاصة، وأنظر لحياتى من خلالها، حتى أستطيع اكتساب، ضمير القاضى الذى يخصنى، ونفس الصورة، يمكن تطبيقها على ضمير الفنان، ورجل الدولة، والصديق والمخلص لعائلته، وعلى كل من كان له ضمير. إذن وجود الضمير، يعنى وجود قضية، توحد وتربط حياتك، بالمثل الأعلى الذى تحدده القضية، وتقارن هذا المثل الأعلى، بأحداث الحياة .

إذا صح هذا التحليل، فإن ضميرك، يكون ببساطة عبارة عن المثل الأعلى للحياة، التى تشكل شخصيتك الأخلاقية. واكتساب الضمير يعنى أنك أصبحت واعياً بخطتك بأن تصبح ذاتاً مستقلة ومتفردة. ويقدم ضميرك الخطة لك، بصرف النظر عن ما إذا كانت هذه الخطة، أو هذا المثل الأعلى، المقدم لك، متميزاً عن حياتك، التى تحاول تجسيد هذا المثل أو تلك الخطة فيها. إن حياتك كما تحيا أحداثها، وخبراتك، ومشاعرك، وأفعالك .. كلها عبارة عن تجسد لخطتك المثالية، إذا كان لهذه الخطة أن تتحقق على الإطلاق، فى حياة فردية مستقلة. وبوصفها ذاتاً متفردة.

ولا يوجد فعل واحد من أفعالك، يمكن أن يعبر عن خطة حياتك، تعبيراً كاملاً. فطالما أن القضية، توجد فى الخارج، فإنك مطالب دائماً بمزيد من الأفعال. ولذلك يقف المثل الأعلى للحياة فى مواجهة الحياة الفعلية، مثل سلطة عامة، يتم الحكم بها على كل فعل من أفعالك، تماماً، مثلما يحكم ضمير القاضى، كل حكم من أحكامه التى يصدرها، بمقارنته، بالمثل الأعلى الخاص، الذى يجب أن يلتزم به القاضى لذلك، يعد ضميرى المثل الأعلى، الذى يجعل منى ذاتاً عاقلة، والقضية التى توجهنى، وتوحد أحداث حياتى، وتربطها ببعضها البعض. وإذا ما تم النظر للضمير، بوصفه شيئاً يكمن فى أعماقى، فإنه يشكل روح ذاتى، تحيا فى البداية فوق نهر رغباتى الطبيعية، ثم تدريجياً، يخلق سماء وأرض هذه الحياة الفردية المتميزة. فتتشكل هذه الروح كل ذاتى الحقة، ولكنها لا يتم التعبير عنها كاملة، فى أى فعل واحد من أفعالى. ولذلك طالما نقارن المثل الأعلى بأى فعل واحد من أفعالنا، فإننا نحكم على أنفسنا، ونؤنبها أو نرضى عنها. أى نشعر بالرضا أو بالتأنيب.

لذا تقدم لنا فلسفتنا عن الولاء، نظرية عن نوع معين من الوعى، يؤدى تماماً، نفس وظائف الضمير التقليدى. حقيقة أن من الصعب وصف هذا الضمير، الذى تحدثنا عنه، بأنه فطرى تماماً بل على العكس، إذ يعد ثمرة من ثمار شجرة الحياة الأخلاقية، وليس

جذرها. إلا أنه لا يمكن لنا اكتسابه، إلا إذا كان لدينا استعداد فطرى نحو المعقولية، وكائنات نحيا حياة اجتماعية، ولدينا مقدرة على تطوير عقولنا وقوانا الاجتماعية، بحيث نرى خير الإنسانية خيراً لنا أيضاً. وباختصار إلا إذا كان لنا طبيعة أخلاقية حقيقية.

ولكن ماذا نقول، فى ضوء هذه النظرة لطبيعة الضمير، عن ما يسمى بعصمة الضمير عن الخطأ؟ إن الضمير قد يصيب أو يخطئ، تماماً مثلما يخضع اختيارى للقضية، للصواب أو الخطأ. فطالما أن الولاء الحق، يكون دائماً خيراً، فإن ضمير الأنا، الذى يحيا حياة الولاء لا يخطئ أبداً. ولكن ولما كان الولاء، يبدو فى بعض الأحيان، فاقداً للرؤية الصحيحة، فإن ضمير الفرد، أيضاً قد يخطئ فى التوجيه، فى حالات عديدة. من جهة أخرى، يعتبر ضميرك، فى أى لحظة من لحظات نموك، أفضل مرشد أخلاقى، وذلك ببساطة، سبب أن رؤيته، بوصفه سلطة فى الخارج، فإنه يصبح عبارة عن مثلك الأعلى، وقضيتك، التى تقودك، بينما إذا نظرت له بوصفه، يكمن فى الأعماق، فإنه يصبح عبارة عن روح ذاتك الخاصة، والمثل الأعلى الذى يجعلك كائناً أخلاقياً عاقلاً. بدونه تبدو مجرد مظهر لشخصية أخلاقية، مجموعة من الرغبات المتعددة والمضطربة. ولما كانت أمامك حياة واحدة تحياها، فإن ضميرك وحده القادر، على إرشادك عن كيف تحياها، ولكنه ينمو معك مثلما ينمو ولاؤك، وقضيتك. وأفضل طريقة، تسرع من نموهم جميعاً، أن تسلم حياتك لخدمتهم، وتهبها للتعبير عنهم وتجسيدهم.

يعتبر الضمير شأنا خاصا، أو حالة شخصية لكل فرد منا. فإذا كنا بوصفنا أخوة نخدم نفس القضية، وفوق ذلك كله، إذا ارتقى وعينا كنا جميعاً خدماً لقضية الولاء للولاء، فإننا نشارك بالفعل فى نفس الضمير أو ضمير واحد، ولكن، طالما أن اثنين منا، ليس فى مقدورهما أن يحيا حياة واحدة أو نفس الحياة، أو أن يكونا ذاتاً إنسانية واحدة، أو نفس الذات الفردية الواحدة، فإنه يترتب على ذلك، أنه لا يمكن أن يكون لهما ضمير واحد، أو نفس الضمير، بل ولا يمكن أن يرغب أى منهما فى ذلك. فضميرك ليس ضميرى، ومع ذلك أشاركك نفس العالم الأخلاقى المطلق، وكلانا يخضع لنفس مطالب الولاء للولاء. وهذه المطالب أو الأوامر تقدم نفسها لنا بطرق مختلفة. ولئن كان أصحاب الولاء، يتشاركون فى روح الولاء، إلا أنهم لا يقومون بنفس الأفعال، أو بمجموعة من الأفعال الواحدة .

وأما الحديث عن المعنى الدينى للضمير، أو القول بأن الضمير من عند الله، فمسألة نرجئها، إلى المحاضرة الأخيرة، عن علاقة الولاء بالدين .

لقد أصبح لدينا الآن نظرية فى الضمير، تفى بغاياتنا العملية، وتحقق متطلبات فلسفتنا عن الولاء. ولقد كنا فى حاجة لهذه النظرية للتمهيد لإجابة السؤال، عن كيف يتمكن مبدأ الولاء للولاء، من حسم المسائل التى يثيرها الشك الأخلاقى. وكيف يمكن لهذا المبدأ، أن يمدنا بوسيلة نكتشف بها الأوامر الخلقية، التى يطلق عليها الفهم العام اسم " أوامر الضمير " ؟. كيف تظهر الشكوك الأخلاقية فى عقل الفرد الذى يحيا حياة الولاء؟ تظهر عندما يكون هناك صراع ظاهرى بين الولاءات. والواقع أن القضية، التى تربط وتوحد أحداث حياة معقدة، مثل حياتى الإنسانية، ليس من المتوقع أن تكون قضية بسيطة وغير معقدة. فبسبب طبيعتى، وتربيتى الاجتماعية، أنتمى إلى أسرة، وإلى وظيفة، وإلى دولة، وإلى الإنسانية. ولكى أظل على ولاء للولاء، وأكون شخصاً على الاطلاق، يجب بالفعل أن أحيا ولاء موحداً. أى ولاء متوحد. ولكن فى نفس الوقت، لابد أن أختار قضايا معينة، وأخدمها، وإذا كانت هذه القضايا، تهمنى كثيراً، وبالتالى تستغرقنى وتستحوذ على، وتمتلكنى، فإنها لابد أن تعتمد على جوانب متعددة ومختلفة من طبيعتى، ولابد أن تتطلب منى القيام بواجبات اجتماعية عديدة ومتناقضة، وبالتالى لا يمكن أن تشكل هذه القضايا قضية واحدة، إلا إذا شكلت جميعها نسقاً كاملاً من القضايا. ولذلك يصبح ولائى خاضعاً للصعوبة القديمة المتعلقة بالواحد والكثير. فإن لم يكن الولاء واحداً وله غايته القصوى، فلن يكون هناك ولاء للولاء الكلى، وإن لم تكن الغرائز المختلفة، والمصالح الاجتماعية المتعددة الخاصة، بكائن مثلى، فإنها لا تستطيع أن تستحوذ علىّ، وبالتالى الولاء لها.

وبالرغم من هذه الصعوبة الكبرى، فإن أصحاب الولاء الذين نحيا وسطهم، يبينون لنا، أن هذا الاتحاد بين الواحد والكثير فى الحياة، وعلى الأقل فى نسبة كبيرة من الأعمال الإنسانية المستمرة، أمر ممكن وليس مستحيلاً. حقيقة لم ننجح فى تحقيق هذا الاتحاد تحقيقاً كاملاً، ولم تحقق حياة الولاء كاملة، ولكن طالما كنا على ولاء. فإننا نحقق ما يكفى من هذه الوحدة للحياة، بصورة تمكننا من فهم المثل الأعلى، ونجعل منه مرشدنا الشخصى. ولكن، يظل سؤالنا قائماً : طالما أن حياة الولاء الوحيدة، التى

نستطيع أن نحياها، حياة معقدة جداً وطالما أن خدمة قضية الولاء الكلى، لا يمكن خدمتها، إلا خدمة شخصية، وفى حياة خاصة، نحاول فيها توحيد ولاءات معينة مختلفة، وطالما دائماً ما تبدو لنا هذه الولاءات فى حالة صراع وتناقض، فكيف نستطيع أن نقرر فى حالة وجود صراع بين ولاء وآخر، أيهما أجدر بالاتباع؟ أيمكن للمبدأ أن يوضح لنا ماذا نفعل، عندما تبدو لنا الولاءات، تتصارع فيما بينها؟

لا تكفى الإجابة بأن الولاء للولاء، يطلب منا أن نبذل قصارى جهدنا للتوفيق وتحقيق الانسجام بين هذه الولاءات المتصارعة ظاهرياً، ونزيل الصراع من الوجود، أو فى أضعف الحالات، إذا كان محتماً أن نستفيد منه. لدعم، وتعزيز قضية الولاء العام. ولقد سبق أن عرضنا لمثل هذه الإجابة، فى محاضرة سابقة. ولئن كانت إجابة صحيحة، إلا أنها لا تغطى كل الحالات التى يفرض فيها الصراع علينا بأن نختار ولاء أكثر، أو نهمل ونقضى على ولاء من الولاءات المتصارعة وربما عرض نموذج أو نموذجين من هذا النوع، يبين لنا نوع الشكوك الأخلاقية، التى يمكن أن تهتم بها فلسفتنا عن الولاء. أو تهم فلسفتنا الأخلاقية على وجه الخصوص.

فى بداية الحرب الأهلية[١] فى بلدنا، وجد الكثير من سكان ولايات الحدود، والذين خدموا الاتحاد فترة طويلة، ولكنهم كانوا على وعى بالواجبات الشخصية تجاه الولايات التى ينتمون إليها، أنهم يعانون من صراع بين الولاءات. فبالنسبة للمشكلة الشخصية للجنرال " لى "، هل يمكن لمبدأ " عليك أن تحيا الولاء للولاء، ولتحقيق هذه الغاية عليك أن تختار، قضيتك الشخصية الخاصة، وتكون على ولاء لها " .. ربما تقول، هل يمكن لهذا المبدأ، أن يساعد الجنرال، فى اتخاذ قرار، بالنسبة لمشكلته الشخصية، فى اللحظة الحرجة ؟

أو مرة أخرى، لنأخذ مشكلة، دائماً ما يثيرها طلابى فى المحاضرات، كحالة نختبر فيها كيف تساعد نظريتى فى الولاء على الاختيار: امرأة شابة، بعد أن أمضت فترة طويلة فى التعلم والتدريب، بدأت عملاً ناجحا ليس ناجحاً خاصاً بها فقط، تفيد

(١) المقصود الحرب الأهلية بين الشمال والجنوب فى أمريكا (١٨٦١ - ١٨٦٥) " المترجم "

منه شخصياً، وإنما تفيد منه المجتمع أيضاً، كانت على ولاء شديد لمهنتها، وهى مهنة مربحة أيضاً، وربما إذا استمرت فى ممارستها، ، لتركت بصماتها على تطورها. فى نفس الوقت، كانت تكن ولاء خاصاً لعائلتها. وقد يدخل المرض والموت المنزل الذى تركته للعمل. فربما أخوتها الصغار فى حاجة ماسة لها، أو هناك مجموعة من بنات الأخ المتوفى، تحتاج لرعايتها. فبوصفها منتمية إلى أسرتها، كانت لابد قائمة بهذا الواجب، أى العناية بالأطفال الذين يحتاجون إليها حاجة ماسة، لسنوات طويلة، ويحرمها فى نفس الوقت من الوظيفة التى تشغلها، والتى كانت تعلق عليها آمالاً كباراً، وترى فيها نجاحاً باهراً. إذا تفرغت تفرغاً كاملاً لهذه الوظيفة .

ما هى أوامر الضمير؟ كيف لهذه المرأة الشابة أن تحل مشكلتها؟ كيف يمكن أن تختار من بين هذه الولاءات المتعارضة؟ فكونها تختار الولاء للأسرة، ولحاجة تربية الأخوة أو أبناء الأخ، فإنه يعد بالتأكيد، عبارة عن ولاء ذات معينة لقضية ما. ولكن أن تختار الولاء للمهنة الناجحة، والواعدة بالفعل، بمستقبل باهر، ألا يعد أيضاً نوعاً من الولاء لقضية معينة؟ وهل يمكن " لمبدأ الولاء للولاء " أن يساعد هذه المرأة الشابة على الاختيار بين الولاءين؟ واختيار الولاء الذى تلتزم به؟

ويمكن أن نعتبر هذين النموذجين، أو هاتين الحالتين، نمطاً للكثير من الحالات التى تواجه الضمير، وتعبر عن الصراع بين الولاءات. وربما تسأل الآن، ماذا يفعل المبدأ، وماذا يقرر ويحكم فى تلك الحالات؟

- ٧ -

أجيب مباشرة، بالتأكيد على حقيقة أن مبدأ " الولاء للولاء " يتضمن خاصيتين أساسيتين يتصف بهما سلوك الولاء، وترتبطان مع بعضهما البعض. الخاصية الأولى، الحسم من قبل القائم بالولاء الأخلاقى. والثانية الوفاء لقرارات الولاء، بمجرد الاستقرار عليها، أو عدم بيان زيفها، بعد إعادة فحصها ثانية، الأمر الذى يمنع الاستمرار فى الولاء لها. فدعنى أوضح المقصود بهاتين الخاصيتين.

لم يكن الولاء للولاء فى أى لحظة مجرد رغبة خيرة عابرة. إنه ولاء شخصى، يعبر عن نفسه بالأفعال، وليس مجرد عواطف. ولذلك يتطلب الولاء للولاء، اختيار طريقة للفعل. وأسلوب للفعل، ويتضمن هذا النمط، فى الحالات الحرجة، اختياراً جديداً معيناً لقضية شخصية، يستطيع من خلالها، أن يخدم الفرد من الحين فصاعداً، القضية العامة الخاصة بالولاء للجنس البشرى. ولكن اختيارى الخاص للقضية، يكون دائماً معرضاً للخطأ. لأنى لا أستطيع أن أعرف أبداً، وأكون متيقناً من قيامى بالاختيار الصحيح لخدمة الولاء للولاء. فإذا اخترت خدمة الولاء للولاء، بالعمل فى وظيفة معينة، كأن أكون كاتباً، أو موظفاً، أو حارساً ليلياً، فإنه ليس فى مقدورى، معرفة، ما إذا كان اختيارى لوظيفة أخرى، قد يكون أكثر فائدة لخدمة الولاء للولاء. إن مبدأ الولاء للولاء، لا يوضح لى أو يرشدنى عن أفضل ولاء، أو أنسب الولاءات، التى يمكننى اختيارها. ولا تعد الشكوك حول هذا الموضوع شكوكاً أخلاقية، إنما مجرد تعبير عن الجهل العام بالعالم وبقدراتى الخاصة. فإذا تيسر بالفعل معرفة عدم قدرتى على أن أكون كاتباً جيداً، أو حارساً ناجحاً، فإن مبدأ الولاء، يوضح، أن تبديد طاقاتى، فى عمل لا يناسبنى، يعد نوعاً من عدم الولاء. من جهة أخرى، إذا هدانى عقلى إلى أفضل الأفعال من بين الأفعال المتاحة أمامى، لخدمة الولاء للولاء، فإن المبدأ العام للولاء، يتطلب على الفور، ألا أرى أو أتحدث، إلا بما تأمر به هذه الخدمة، التى اهتديت إليها. ولكن، إذا لم أستطع، فى اللحظات الحرجة، أن أتنبأ، بالفعل الذى قد يخدم المبدأ بصورة أفضل، فى حالة المفاضلة بين خدمتين، من المؤكد أن المبدأ العام، لا يمكن أن يرشدنى للفعل الذى يمكن اختياره.

ومع ذلك لا يتخلى المبدأ عنى فى لحظات الجهل. ويظل مرشدى، لأنه يصيح، ويصدر أوامره قائلاً: "عليك أن تختار قضيتك، واحسم اختيارك، ولا تتردد". وفى هذه الحالة، وبهذه الصورة الجديدة للمبدأ، يظل عملياً، تماماً مثله مثل الحالة التى أكون فيها، عالماً بالعالم وبقدراتى، ولست جاهلاً بهم. لأنه يمنع الجبن، والتردد وراء نقطة معينة، يسمح فيها بقبول أفكار جديدة للموقف، يمنعنى من ممارسة دور "هاملت" ويطلب التمسك بروح الولاء، وفى حدود معلوماتى، ومعرفتى، أختار القضية، وأبدأ فى الفعل، ولا يعنى ذلك، ادعاء العلم بكل شىء، وإنما أسلك سلوك، من يعرف أن أفضل طرق الولاء، هو ممارسة سلوك الولاء بأمانة وإخلاص، بصرف النظر عن مقدار علمه أو جهله.

وللتوضيح نعرض الحالة بصورة أخرى، أشعر بحالة التردد فى اللحظة الحرجة بين القضايا المتصارعة. فأى القضايا اختار خدمتها، من بين قضيتين بينهما تعارض أو صراع، حتى أستطيع أن أحقق مبدأ الولاء للولاء؟ فإن كنت أعلم بالنتائج، استطعت الاختيار بسهولة. ولكن من الواضح جهلى بالنتائج، ولذلك لا أستطيع الاختيار ولكن التزمت بأن أكون على ولاء للولاء. وبالتالى بات لدى قضية. ولا يجب أن أرى أو أتحدث، إلا بما تأمر به هذه القضية. فبماذا تأمر هذه القضية الأعلى، أى قضية الولاء للولاء؟ إنها تأمر بأن أختار بدون تحيز، وطالما أن فى هذه اللحظة الحرجة لابد أن أختار بين عدة ولاءات، فلابد أن أختار، مهما كان جهلى، أو القضية التى اخترتها، والسبب فى ضرورة قيامى بالاختيار، يأتى من أن عدم الاختيار والتردد، والانتظار حتى اتخاذ القرار، معنى عدم اختيار قضية ما أو اتخاذ قرار عدم القيام بفعل ما، وفى كلتا الحالتين، يمنع مبدأ الولاء للولاء اتخاذ هذا الموقف. ودائماً ما يطلب منى المبدأ، بعد دراسة متأنية للحالة، لا تخش شيئاً، وبقدر علمك، وبصرف النظر عن جهلك، لابد من اتخاذ القرار.

ولذلك نلاحظ أن واجب الحسم واتخاذ القرار، لمن يحيا حياة الولاء، يكون مؤسساً، على مجموعة من الاعتبارات تشبه تلك التى قال " وليم جميس "، فى حديثه عن بعض المشكلات المتعلقة بالاعتقاد، فى مقالته المشهورة عن " إرادة الاعتقاد ". عندما يكون عدم اتخاذ القرار مساوياً من الناحية العملية، للقرار. بعدم القيام بفعل ما، وذلك يعنى الفشل فى الولاء للولاء .. لابد من اتخاذ القرار فى الحال. فذلك هو الفعل الوحيد الصائب، فإن لم تستطع اتخاذ القرار عن علم، اعتمد على إرادتك الشخصية، واتخذ قرارك، لأن الخدمة التى تتم، بالرغم من عدم توفر علم يكفى لأدائها، وتعرف نفسها على أنها محاولة، لخدمة قضية الولاء الكلى، أفضل من الرفض القائم على العلم، والتوقف عن اتخاذ القرار. ففى مثل هذه الحالات، يطالب المبدأ، بوجوب اتخاذ القرار.

ولكن القرار فى حد ذاته، لا قيمة له، إلا إذا صاحبه ولاء نشيط ثابت، وبمجرد استسلام الذات للقضية المختارة، يمنعك الولاء، وبالتحديد بوصفه ولاء للولاء، من تحطيم وحدة أهدافك التى التزمت بها، فتصبح نموذجاً لعدم الولاء، ولا تتحول عن القضية التى قد اخترتها، إلا إذا وضح لك بالفعل، ومن خلال نمو وتطور معرفتك، أن

الاستمرار فى خدمة هذه القضية فى المستقبل، يتضمن نوعاً من عدم الولاء لمبدأ الولاء الكلى. إن الإخلاص للقضية المختارة، يعد جانباً هاماً من الجوانب التى تكرس بها الذات نفسها لقضية الولاء الكلى.

يساعد النمو المعرفى وتطوره على اكتشاف أن القضية، التى تم اختيارها، قد باتت قضية غير جديرة، وتمثل خيانة، وعدم ولاء للولاء الكلى، فقط يستطيع النمو المعرفى وحده، وقف قرار الإخلاص للقضية المختارة. باختصار شديد، اختيار قضية شخصية معينة، يعد نوعاً من التزاوج الأخلاقى مع هذه القضية، مع الفارق بأن واجب اختيار قضية شخصية معينة، يعد واجباً على كل فرد، بينما الزواج ليس واجباً على كل فرد، إن الزواج بالقضية، لا يمكن إلغاؤه، إلا إذا بات واضحاً أن الاستمرار فيه يعد خيانة لمبدأ الولاء الكلى، ولكنه مثل أى زواج، تقوم فيه الأنا بالتزاوج مع القضية الشخصية المختارة، بدون العلم أو المعرفة بنتائجه. إذن فى الحالة الحرجة، عليكم اتخاذ القرار، اترك كل شيء، وتشبث بقضيتك. بهذا فقط تستطيع تحقيق الولاء للولاء.

فإذا ما رأيتم المسألة على هذه الصورة التى عرضناها، لن نتصور أن المبدأ، يمكن أن يترك الجنرال "لى"، أو المرأة الشابة، بدون إرشاد. إنه يقول لكل منهما، انظر أولاً للموقف ككل، وادرسه بعناية دراسة كافية، وابحث عن إمكانية التنبوء بنتائج الولاء العام، التى قد يتضمنها الفعل الذى تزعم القيام به. فإذا، بعد هذا الاعتبار والاهتمام، شعرت بأنك مازلت جاهلاً، بالوقائع التى تستطيع اتخاذ القرار طبقاً لها، فعليك أن تنظر مباشرة لولائك الأعلى، وتنتبه وتوجه فكرك، نحو قضية الولاء الكلى نفسها. وتذكر دائماً، أن أصحاب الولاء، يخلقون أنفسهم. ثم قم بوضع كل إمكاناتك وحواسك فى خدمة هذه القضية، وتنشيط كل اهتماماتك الصادقة، وكل دوافعك الذاتية، إلى طاقة ممكنة، ثم اتخذ القرار بحرية وحسم كامل. ومن الآن فصاعداً، عليك أن توجه كل قواك، وتخضع عقلك وروحك، بحرية وأمانة وإخلاص، للقضية الشخصية المختارة، حتى يتبين لك وتعرف معرفة أكيدة، بأن القضية قد فقدت مصداقيتها، وباتت خدمتها نوعاً من عدم الولاء. لذلك عليك أن تسلك، وأنت على يقين، بأنك تفعل الصواب، سلوكاً أخلاقياً.

هكذا فعل الجنرال "لى"، وهكذا سلك كل من كان على ولاء للشمال. ونعرف اليوم

؛كيف كان هناك ولاء للولاء، لدى الجانبين، وكيف كان الجميع على ولاء لقضية واحدة، تمثلت فى تحقيق وحدة الأمة. وأمة واحدة. وضحوا بدمائهم، الشمال والجنوب. وكذلك أيضاً، بالنسبة للمرأة الشابة، التى مثلنا بحالتها، عليها أن تختار، ولافائدة تجنيها من سؤال الآخرين، عن ماذا تفعل، أو أن ينصحها أحد كيف تختار بين عملها وأسرتها. ولا فائدة أيضاً من أن نقول لها، لك أن تختارى، حسب هواك، أو ما يسعدك، وإنما يجب أن نقول لها، بأن اختيار أى حياة من هاتين الحياتين، حياة العمل الناجح، أو حياة خدمة أولاد الأخت أو الخالة، وخدمتهم بأمانة وصدق، يمثل الحياة كلها بالفعل، ولا يمكن للفرد أن يطلب حياة أكمل، وأسعد، وأفضل، من اختياره لأى حياة منهما.

ومهما كانت الحياة التى اختارها غامضة، وغير معروف نتائجها، فإنها تعد الأفضل، طالما تفانى الفرد فى خدمتها، وعاشها بصدق وأمانة. فلا شىء أفضل من الولاء. ولكن عليك أن تحيا حياة واحدة منهما فقط، وطالما أن الإنسان الفانى، لا يستطيع أن يعرف، ما هو الأفضل لحياتك وعالمك. عليك بكل وجدانك، وباسم الولاء للولاء، أن تختار وتتخذ القرار وتخلص لاختيارك. وهكذا تكون كائناً أخلاقياً.

والآن إذا صحت هذه النظرة، بالنسبة لتطبيق المبدأ، فمن الواضح أنها أكثر إنصافاً، من ذلك الجانب الشخصى الغامض للضمير، الذى يصر عليه الفهم العام. فاختيار الولاء، الذى قد وصفته، يتطلب، إرادة الفرد، الوعى الفردى الحاسم. ويتطلب أيضاً، كل الغرائز الذاتية الشخصية اللاشعورية إلى حد ما، إلى جانب كل اهتمامات الفرد، ومشاعره، وانفعالاته، وعاداته الاجتماعية، وكل ما يدخل فى نسيج وحدة الأنا الفردى لكل فرد منا. الولاء كما قد لاحظنا، تفان وإخلاص إرادى. وطالما كان إرادياً، فإنه يعتمد على الاختيار الواعى. وطالما كان إخلاصا وتكريساً، فإنه يتضمن السر الذى يجعل قضية معينة، تثيرنى، وتحظى بإعجابى، وتسيطر على كيانى كله، وتمتلكنى. ولئن كانت القرارات الحرجة، المتعلقة بوجهة ولائنا، تتحدد تبعا لاختيارنا الخاص ويتضمن ولاؤنا، أيضاً ما هو أكثر من الاختيار الواعى العاقل، فإنه يتضمن أيضاً جانباً لاشعورياً، لأنه يعنى استجابة كل جوانب طبيعتنا، الواعية واللاواعية، والشعورية واللاشعورية. هذه الاستجابة من قبل الطبيعة الكلية للأنا، والتى ينتج عنها قراراً أخلاقياً، هى ما يعنيها الفهم العام، عندما يرد قرارتنا الخلقية لضميرنا. ولكنه ينظر

للضمير بوصفه شيئاً غامضا، ومقدساً، أو ذاتاً أكثر عمقاً من ذواتنا.

إن الضمير، عبارة عن المثل الأعلى للأنا، وقد ظهر فى الوعى، بوصفه أمراً مباشراً. يقول : عليكم بالولاء. فإذا ما سأل سائل، الولاء لماذا؟ يجيب الضمير فإذا ما بدت الولاءات متصارعة ومتعارضة، يقول الضمير : عليك اتخاذ قرارك، طبقاً لما آمرك به، بوصفى التعبير المثالى، عن كل طبيعتك الشخصية الواعية واللاواعية. فإذا ما عاد السائل يسأل : ولكن ربما نكون على خطأ؟ يجيب الضمير بكلمة أخيرة، قائلاً " إن كنا لسنا معصومين من الخطأ، فإن لدينا القدرة على الحسم والإخلاص، وهذا هو الولاء ".

المحاضرة الخامسة

بعض المشكلات الأمريكية وعلاقتها بالولاء

عند عرض فلسفة الولاء فى المحاضرات السابقة، حاولت التوفيق بين مفهوم الولاء، والفردية الأخلاقية العاقلة. لقد قلت لكل فيلسوف من أنصار النزعة الفردية فى الأخلاق، إن الولاء هو الشيء الوحيد، الذى يحقق كل الأهداف والغايات العاقلة لمذهبك الفردى. فإن كنت تبغى وتسعى للحرية الحقة، ابحث عنها فى الولاء. وإن كنت تسعى للتعبير الذاتى والروحانية، والاستقلال فى الحكم الخلقى، فالولاء وحده القادر على تحقيق هذه الأشياء الخيرة، ولكن أكدت فى نفس الوقت على تفسير الولاء، تفسيراً يبين أهمية الاختيار الفردى للقضية الشخصية، التى يختار الفرد الولاء لها. وفى هذه الليلة ، حيث أقترب من محاولة تطبيق فلسفتنا عن الولاء، على بعض المشكلات الأمريكية المشهورة، أود أن أنبه لأهمية أن نضع فى اعتبارنا منذ البداية، هذا المركب من النزعة الفردية والولاء، الذى يشكل كل مذهبنا الأخلاقى.

- ١ -

لقد ربطت النظرة التقليدية للولاء، بين المصطلح والمواقف الأخلاقية، التى تحدد فيها بعض القوى الاجتماعية الخارجية، للفرد، وبصورة مسبقة، وبدون موافقة منه، كل القضايا، التى يجب عليه الولاء لها. وبذلك تم إدراك الولاء، بوصفه معارضاً للحرية الفردية. ولكن فى فلسفتنا عن الولاء لا توجد إلا قضية واحدة، معقولة وواضحة، تظهر للفرد بوصفها القضية المناسبة له ولكل فرد آخر، وهى القضية العامة التى عبرنا عنها، بعبارة الولاء للولاء. ولئن كانت الطريقة التى يظهر بها الفرد ولاءه للولاء فى فلسفتنا عن الولاء، تتنوع تبعاً لتنوع الأفراد، إلا أنها لا يمكن معرفتها، وتحديدها تحديداً دقيقاً، إلا من خلال موافقة الشخصية. فلا أستطيع الولاء للولاء، إلا بطريقتى الخاصة، وخدمة مجموعة من القضايا الشخصية المتعلقة بحياتى الخاصة. ولقد بينت المحاضرة السابقة، مدى اتساع مقدار الحرية الأخلاقية، التى تمنحه هذه الحقيقة للضمير. ولكى

نلقى مزيداً من الضوء على هذه الحقيقة أو الواقعة اسمحوا لى تلخيص نظامنا الأخلاقى مرة أخرى، وبتسلسل يختلف عما أوردناه فى المحاضرات السابقة.

لقد جاء القانون الخلقى، فى فلسفتنا عن الولاء، كما يلى : (١) يجب عليك الولاء. (٢) ولكى تحقق ذلك، عليك باختيار قضية معينة، أو نسق من القضايا، تجعل منه موضوعاً خاصاً لولائك، يحدد مهمتك فى الحياة. (٣) ابدأ اختيار قضيتك الخاصة، بطريقة حاسمة، ثم عليك أن تظل محافظاً عليها، ومخلصاً لها، وبقدر ما يسمح المبدأ العام للولاء، استمر فى خدمتها، حتى يتم العمل، الذى تستطيع القيام به. (٤) والمبدأ العام للولاء، الذى تخضع له كل الاختيارات الخاصة للقضايا، يقول " عليك أن تكون على ولاء للولاء، أى عليك أن تبذل أقصى طاقاتك، لتقديم الخدمة المخلصة للقضايا، وتحقيق أقصى درجات التفانى فى خدمتها، ومشاركة كل النفوس التى تحيا حياة الولاء .

وتبعاً لهذا القانون الخلقى، يجانب كل من يحيا بدون ولاء الصواب. فإن كنت من أنصار الفردية، بمعنى عدم الولاء لأى شىء فأنت تحيد عن واجبك. كذلك، لكى تحيا حياة الولاء، فإن القضية التى يجب عليك الولاء لها، لابد أن تجمع مجموعة من الأفراد، وتوحد بينهم، برابطة اجتماعية معينة، تتصف فى بعض جوانبها، بأنها قضية لا شخصية (عامة). أو مجاوزة لحياتهم أو تفوق اهتماماتهم، وفى نفس الوقت، تعبر عن اهتمام شخصى لكل فرد من الأفراد، الذين تجمع بينهم.

من جهة أخرى، لا يعطى لنا المبدأ، إلا حقاً محدوداً جداً، وفرصة ضئيلة، فى فرض، أو تحديد القضايا، التى يجب أن يخَتارها أى فرد، أو أى جار من جيراننا. فتعريف الولاء، كما قد عرفته، بأنه إخلاص لقضية، توجد خارج الذات، يتم اختيار الولاء لها، من قبل هذه الذات الفردية، بوصفها قضيتها. وتوضيح الطبيعة العامة التى يجب أن تتصف بها هذه القضية، لكى تصبح جديرة بالولاء وبالتحديد، القول بأنها لابد أن تتضمن التوحيد، بين الاهتمامات الشخصية والعامة، ثم التأكيد على أن كل الولاءات، التى يتم اختيارها، اختياراً صحيحاً، لا يكون الباعث عليها تحطيم ولاءات الآخرين، وإنما الإيمان بالولاء للولاء، وبالتالى يسعى الفرد، ويبذل قصارى جهده لتعزيز الولاء، بوصفه خيراً مشتركاً لكل أفراد الإنسانية. ولقد أكدنا على أن، من

الضرورى. حسب وجهة نظرى. أن نترك اختيار الفرد للقضية أو نسق القضايا التى يرغب الولاء لها، لا يخضع لأى شىء، إلا لهذه الشروط السابقة. فحسب التعريف، لا يحق لى، إلا فى أضيق الحدود، الحكم على ولاء رفيقى، بأنه ولاء حقيقى أم لا.

قد لا أعرف القضية، التى اختار الفرد الولاء لها ولكنى أستطيع الحكم بعدم ولائه، عندما أعرف القضية التى ألزم نفسه بها، والفعل الخاطىء الذى قام به تجاهها، أو مرة أخرى، أستطيع الحكم بعدم ولائه، إذا ما ظهر فى أفعاله، واعترافاته، أنه لم يختر أى قضية على الإطلاق، فإذا كان ولاؤه واضحاً تجاه قضية معينة، مثل وطنه، أو وظيفته، أو أسرته، قد يحق لى توجيه النقد لتعبيره عن هذا الولاء، إذا رأيت أنه يتضمن، نوعاً من العدوان غير المبرر على ولاءات الآخرين، أو على وسائلهم لتحقيق هذه الولاءات. ولذلك يرفض مذهبنا فى الولاء، أى اعتداء شخصى غير ضرورى، على ما نسميه عادة بحقوق الآخرين، لأنه إذا حرمت رفيقى من ملكيته، أو حياته، أو كيانه المادى، فإنى أسلبه، الوسائل التى يستطيع التعبير بها، عن ولائه، بطريقة عملية. فهذا العدوان غير المبرر، يتضمن عدم الولاء للولاء العام للإنسانية وجريمة ضد الإنسانية بصورة عامة، ولا يتسق مع أى صورة من صور الولاء. ذلك هو مجال الحكم، الذى يحق لنا الحكم فيه، للتقييم الخلقى للآخرين. وكما سبق أن أوضحت أن هذا المجال، يسمح لنا بصورة كافية، من تعريف كل مبادىء الأفعال الخاطئة والصائبة.

فطبقاً لهذه النظرة، تصبح السرقة، والكذب، والفتنة، والقسوة، صوراً لعدم الولاء.

ولكن مسألة الحكم، أو حقى فى الحكم على اختيارات أى فرد آخر، مسألة محدودة جداً، فلا أستطيع القول بأنه، ليس له ولاء لأى قضية شخصية، ليست قضيتى، أو لأنى لا أشعر بالتعاطف مع القضية التى اختارها، ولا يحق اتهامه بعدم الولاء، لمجرد الإحساس بأنه لا يخدم القضية بنفس الصورة التى قد أخدمها بها، إذا قد اخترت الولاء إليها، أو أنى إذا فعلت نفس أفعاله لشعرت بعدم الولاء، لا يجب أن أحكم، بأن هذا الرجل لا ولاء له، وليس لديه موضوع، لمجرد عدم معرفتى بالموضوع الذى يسعى لتحقيقه، قد أعتبر قضيته، قضية محدودة جداً، إذا تبينت أن بمقدوره أن يقدم خدمات أفضل، عن تلك التى قام بها، لقضية الولاء الكلى. ولكن عندما ألاحظ، كيف يؤدى تواضع أصحاب الولاء، إلى مساعدة الآخرين، عن طريق العدوى، على تحقيق ولائهم

بوصفهم نموذجاً للإخلاص، لابد أن أكون حريصاً عند الحكم، على قضية فرد آخر، بأنها قضية محدودة، فلا تستطيع بسهولة، أن تضع حدوداً للوظائف التى قد يقوم بها الفرد، الذى يعبر تعبيراً حقيقياً عن الولاء للقضية التى اختارها. فقد يحيا الفرد فى عزلة، أو فى جماعة قد يقضى حياته فى المكتب، أو فى الدراسة، أو المصنع، أو الحقل، أو اكتشاف القطب الشمالى، أو عمل الخير وحب الإنسانية، أو فى المعمل، ومع ذلك عندما تفهم فهماً صحيحاً، غايات الأنا التى تحكم عليها، تصبح الصورة الصحيحة والحقة، وروح الولاء للولاء، صورة واضحة وكلية وصادقة.

لذلك، أتردد كثيراً، قبل أن أصف لفرد ما، الطريقة التى يمكن أن يستخدم بها، كل الفرص الطبيعية الواضحة للولاء. حقيقة تقدم لنا الطبيعة كل الفرص للولاء، التى يعد إهمالها نوعاً من الخبل. ولئن كانت المحبة تبدأ من الأسرة، فإن الولاء أيضاً يبدأ من الأسرة. والناس الذين يهملون كلية، كل الروابط الأسرية الطبيعية، يتعرضون لوصفهم بعدم الولاء. ولئن كان القول المأثور عن كراهية الأب والأم، من أجل خدمة قضية كلية، يعد قولاً متناقضاً، إلا أن إمكانية تحققه، قد جسدها، أكثر من مرة فى التاريخ، شهداء المسيحية الأوائل ولكن إذا استطاع الشهيد التحرر من كل الروابط الأسرية، من أجل خدمة قضية الإيمان، فإننا لا نستطيع أن نحدد لأى فرد آخر، فى أى نقطة بالتحديد، يعد إهمال الفرص الطبيعية للولاء، مسألة ضرورية، وأمراً لا يمكن تجنبه، لتحقيق واختيار الولاء، للقضية التى عزم الفرد على اختيارها. عموماً، تقدم لنا الطبيعة فرص الولاء، ولابد من استخدام بعضها، ويجب ألا نتجاهل هذه الفرص، حتى لا نتهم بزيادة عدم الولاء للبشرية. ولكن لئن كان الفرد يحتفظ بواجبه، ولا يستطيع غيره القيام به، وإصدار الحكم عليه، وهو الواجب بأن يقرر أين يكمن ولاؤه. إلا أن واجبه بأن يحقق الولاء للولاء، يعد واجباً كلياً ومطلقاً.

وكما قد لاحظنا سابقاً، أن الوفاء و الولاء، لا ينفصلان، فإن من ينقض العهد دائماً، يوصف بعدم الولاء. إلا فى حالة اكتشافه، أن استمراره على هذا الوفاء، قد يعد نوعاً من عدم الولاء للقضية العامة للولاء، وبالتالى لابد من نقض العهد. فإذا تاب أحد أفراد عصابة وفاق إلى رشده، فإنه بات ملزماً باكتشافه ضرورة الولاء للإنسانية عامة، بنقض عهده مع العصابة. ولكن بالرغم من ذلك، يظل مديناً لأفراد العصابة، لحصوله على نوع من الوفاء والإخلاص لم يكن فى مقدوره أبداً الحصول عليه بدون أن يصبح

عضواً فى العصابة. حقيقة أن واجبه تجاه رفاقه السابقين، لابد أن يتغير، بسبب تغير نظرته للولاء الجديد. ولكنه لا يستطيع، أن يتجاهل أبداً ولاءه القديم، ولا يمكن أن يتحلل من التزامه ومسئوليته تجاه رفاقه السابقين وهو الالتزام بمساعدتهم على خدمة أرقى للإنسانية عن تلك التى قاموا بها فى السابق.

وتستطيع أن ترى، طبقاً لوجهة النظر، كيف أن متطلبات روح الولاء، تكون بمعنى معين ثابتة وصارمة ومحدودة، بينما بمعنى آخر، يجب أن تكون قابلة، لقدر كبير من حرية التأويل والتفسير. ففى الحكم على نفسى، وقرارى ببذل أقصى درجات الولاء، واختيار القضايا التى تستحق ولائى، والحكم بمدى ملاءمة فعل ما من أفعالى مع ولائى، فى كل هذه المجالات لابد أن أكون مع نفسى، على الأقل من حيث المبدأ، صارماً تماماً ومحدوداً. ولئن كنت دائماً أكتسب معارف جديدة، تؤدى إلى تحسن أدائى فى خدمة الولاء. وأتعلم الولاء لقضايا جديدة، وكيفية التخلى عن القضايا، التى تفوق قدراتى، وأصبح بصفة عامة، أكثر قدرة ومهارة على خدمة قضيتى، إلا أن الالتزام فى كل لحظة من لحظات الاختيار، والتزامى بالولاء لقضية، ولتحقيقها، لا أرى، ولا أتحدث، إلا بما تأمر به القضية، لابد أن يكون هذا الالتزام التزاماً مطلقاً. فلا أستطيع الهروب منه، بدون خيانة أهدافى. فقط أتكاسل أو أنام، ولكن إذا كانت مثل هذه الراحة، تناسبنى، وتهيأنى للعمل. وقد أحيا حياة اللهو والتسلية، ولكن من منطلق أنها ضرورية لتحقيق خدمتى للولاء. وقد أسعى لمصلحة شخصية، ولكن طالما أن ذلك يخدم القضية، ولا يتناقض مع ولائى لها، وبوصفى أداة فعالة لخدمتها. ولكن يظل المبدأ العام كما هو : بالعمل أو بالكسل، النوم أو اليقظة، الفرح أو الحزن، التفكير الجاد أو اللامبالاة، فى اللحظات الحرجة، أو فى الحياة العادية الروتينية، فطالما أن إرادتى تستطيع تشكيل وجودى، فلابد أن أمتثل لولائى ولمتطلباته، وطالما أن حياتى الإرادية، من وجهة نظرى، تعد موضوعاً لأحكام محددة وكاملة من حيث المبدأ.

ويختلف الوضع اختلافاً كبيراً، فى حالة الحكم على ولاء رفيقى. فالواجبات الإنسانية، ليست واجبات عامة فقط، وإنما فردية أيضا. فطالما كنت واثقاً فى ولائك. ولم تَخُنْ هذه الثقة، لا أستطيع الحكم مطلقا بعدم ولائك. كل ما أستطيع الحكم به، وفى بعض الأحيان فقط، أن ولاءك، ولاء عقلى متنور أم لا، ناجح أم غير ناجح، يتصارع مع ولاء الآخرين أم يهادنهم. ولذلك لابد أن أكون حريصاً أشد الحرص، فى تقرير مطالب

الولاء منهم. ولكن الشيء الذى أعرفه معرفة أكيدة، هو أن أى إنسان، لم يختر لنفسه قضية يخدمها، لم يصل بعد إلى العقلانية، أو إلى ذاته العاقلة، ولا يمكن وصفه بأنه كائن أخلاقى.

- ٢ -

كانت تلك هى النتائج العامة، بالنسبة لطبيعة الولاء، بوصفه مذهباً أخلاقياً. ويجب أن نحفظ فى ذاكرتنا، هذا المركب المكتمل بين الولاء والفردية، عندما نحاول التطبيق العملى، لهذه المبادئ، على حياتنا الأمريكية الحاضرة، وإذا ما صح تحليلنا السابق، فإن مفهومنا يساعدنا فى محاولة تحديد مدى حاجة حياتنا للديمقراطية، والوسائل التى نستطيع بها إشباع حاجاتنا الأخلاقية، ولا نمس فى نفس الوقت حرية الأفراد فى مجتمعنا الأمريكى.

إذا صحت المبادئ السابقة، التى عرضناها، فما قيمة الحرية بدون ولاء، وهل يمكن أن يحصل الناس على هذه الحرية؟ كذلك إذا ما استرجعت موقف صديقنا الشاب الروسى، الذى ذكرنا موقفه فى محاضرة سابقة، فإنك سريعا ما تنتبه للمهمة الهامة والصعبة الملقاه على عاتق الشعب الأمريكى والمتعلقة بتعليم ملايين الناس الأجانب، الذين يفدون على المجتمع، معنى الولاء، وكيفية الانتباه إلى قيمته، وكذلك كيف يمكن الحفاظ على ولائنا كاملاً، وسط التعقيدات الاجتماعية، وتعقد الحياة الاجتماعية، بسبب الزيادة المستمرة فى عدد الوافدين من المهاجرين، والزيادة المستمرة فى مساحة الدولة واتساعها، وكبر حجمها، والمشكلة هنا، ليست مشكلة، تعليم واجبات المواطنة لهؤلاء القادمين الجدد، وليست مشكلة إثارة الشعور بالوطنية والحفاظ عليها. وإنما مشكلة المحافظة على ما نعتبره الآن، المبدأ الرئيسى للحياة الخلقية، فى تركيبة سكانية، تتبدل دائماً، بسبب الوافدين الجدد، والتغيرات الاجتماعية المستمرة وغير المستقرة.

وإذا ما تذكرتم ما سبق حديثنا عنه، فى محاضرات سابقة، بالنسبة للنزعة الفردية الحديثة عموماً، تستطيع أن تدرك، أن مشكلة الهجرة الأمريكية، ليست إلا جانباً واحداً من جوانب الحاجة إلى التنوير الخلقى وهى حاجة باتت مميزة لعصرنا. وقد يميل المرء

إلى كلمات لنكولن العظيمة، ويقول بأن كل الأمم وبالأخص الأمريكية يجب أن تعمل على ألا يختفى الولاء من العالم، ولاء الشعب للشعب ومن الشعب ولأجل الشعب.

ليس صحيحاً بالفعل أن أصحاب الولاء، باتوا لا يعيشون بيننا، فليس نادراً وجود من يعرفون الولاء، ويحيون به، ويموتون عليه. وولاء العامة من الناس، يعد الثروة الأخلاقية لعصرنا. ولكن المخاطر الأخلاقية لحضارتنا الأمريكية تتمثل فى أمرين. الأول، أن الولاء ليس منتشراً بصورة كافية وواضحة، بين المثل العليا الاجتماعية فى أمريكا. فدائماً ما يترك لضمائر الناس، وسرائرهم الغامضة. فلا يتم توضيحه أو التأكيد عليه بصورة كافية. ويتجاهله الأدب الشعبى، أو فى أفضل الحالات، يساء عرضه. والواقع أن ذلك يعد من أحد المخاطر، طالما أنه يعنى، أن يظل الولاء غامضاً ومبهماً، ولا يتم الحث والتشجيع عليه، وإذا استمر ذلك الوضع مدة طويلة، فإنه دائماً ما يؤدى إلى نقص كبير فى الولاء. الخطر الثانى: يكمن فى واقعة أنه، عندما يتم مدح الولاء والتأكيد على قيمته و أهميته، نادراً ما يتم فهم الولاء بمعنى الولاء للولاء الكلى، ولذلك دائماً ما نفكر بالولاء، على أنه فضيلة كما قد وضحنا، لا يعنى إلحاق الأذى بولاء الآخر. ولا يحارب، إلا عدم الولاء فقط، وحروبه ليست إلا حروباً روحية. فلا يتجه إلى نشر الكراهية بين الطبقات، ولا يعرف التمييز العرقى وينظر لكل الأجناس نظرة متساوية، وإلى حاجتهم جميعاً للولاء. يتجاهل سوء الفهم، ويهتم بمعنى الولاء ذاته، وبالتحديد حسب ما هو متعارف عليه وكائن بالفعل. لا يهتم الولاء المستنير بالجيوش والأساطيل الكبرى، فى حد ذاتها، وإذا ما اهتم بهم، كان ذلك بسبب قيمتهم فى تحقيقه، وبوصفهم مصائب ضرورية. لا يهتم بتنمية الروح القومية، إلا إذا كانت، تساعد على تعزيز الولاء الكلى. ينظر لروح الحرب، التى سبق أن أشرنا إلى ارتباطه بها، فى محاضرة سابقة، على أنها تحتاج إلى تعليمه لأبناء المجتمع الأمريكى بصورة واضحة وصريحة. أى لا يتم تعليمه بالطرق والأساليب القديمة البالية، أو لمجرد عرض لقوة اجتماعية أو سياسية، أو بإثارة طبقة على أخرى، أو لمجرد تمجيد القوة، أو بوصفه وسيلة لإنماء الروح القومية والوطنية. نريد تعليم الولاء للولاء، بمساعدة الناس على الولاء لقضاياهم الخاصة، وبأن تبين لهم، أن الولاء من أنواع الخيرات الإنسانية العامة، وبالتالى ليس من الخيرية فى شىء أن نؤذى ولاء الآخرين، إلا فى الحالات الضرورية التى ندافع فيها عن ولائنا.

إذا عزمتم على تعليم الولاء، طبقاً لوجهة نظرنا، لمجموعة كبيرة من الناس، مثل أفراد المجتمع الامريكى، وليس لفرد واحد أو لمجموعة محدودة، فعليك القيام بثلاثة أمور: (١) يجب أن تساعدهم على المحافظة على قدراتهم الجسدية والمادية والعقلية، وكل قواهم وممتلكاتهم، التى تعد أشياء ضرورية لممارسة الولاء. (٢) يجب توفير الفرص لولائهم، وذلك بالمشروعات الفكرية، التى إذا ما تم الولاء لها، يستطيع أن يؤمن لهم، أقل الظروف، التى تؤدى إلى صراع الولاءات، وتقدم لهم فى نفس الوقت الفرص المختلفة لربط القيم الاجتماعية بقيمة الولاء. (٣) يجب أن تبين لهم بوضوح، أن الولاء أفضل الخيرات الإنسانية وأن الولاء للولاء، يعد التاج الحقيقى لكل أنواع الولاءات.

ومن الواضح أن مساعدة الناس على الحصول والمحافظة على قواهم، يتضمن نوعاً من رعاية الصحة العامة، ونوعاً من التدريب العام على الذكاء، وتحقيق الحماية والمساعدة، التى دائماً ما ينادى بها المدرسون والمحسنون والمصلحون، ويرون دائماً أهميتها. ولئن كان ليس هناك أدنى شك، فى أن الحياة الأمريكية الحديثة، ونظامنا الاجتماعى، يوفر الحماية والمساعدة التى لم تكن متوفرة فى المراحل الحضارية الأولى. إلا على الجانب الآخر، أى تعليم الناس طرق النمو الخلقى، ووسائل تقدم الأخلاق، أى الجانب المتعلق، بتعليمهم الولاء، وتوفير الفرص اللازمة للتدريب عليه وتحقيقه، أقول، إن هذا الجانب الذى يجب أن نهتم به، لتحقيق التطور الخلقى لشعبنا، مازال حتى اللحظة الراهنة جانباً ناقصاً، ولا يحظى بالاهتمام الكافى.

قد نعترف بالنهضة والرفاهية التى نعيشها، وبالتعاطف والروح العامة، والمصلحون الذين لا يسعون فقط للتقليل من تعاسة الناس ومعاناتهم وإنما تقديم مساعدات فعالة لهم، فكل هذه الأشياء قد انتشرت فى حياتنا، وأدت إلى تحسن جانب من جوانبها. ومع ذلك، مازلت مصراً على أن الرفاهية ليست فضيلة، والقوة ليست هى الأخلاقية، والمحبة بين الناس، وتدريبهم على اكتساب العلم والقوة، كلها لا تعد كافية، لتوفير التدريب الخلقى الصحيح لشعبنا، أو لتعزيز ونشر الحياة المثالية بينهم.

إن الناس تحتاج لوجود فرص للولاء، ويستطيعون الحصول عليها، من خلال اقتراح

الموضوعات التى يمكن الولاء لها، فإذا أردت تدريب إنسان على الحياة الصالحة، لابد أن تبذل قصارى جهدك لتوفر له بالفعل الصحة والقوة. وتستطيع إفادته إذا أمكن، أن تضرب له مثلاً أو تسن له قاعدة، يهتدى بها، فتشجعه على الشعور بالتعاطف والروح العامة، ولكن الشعور بالإحسان أو بالتعاطف، أو ما يصطلح الناس على تسميته بالغيرية، ما هى إلا مجرد جوانب جزئية من الخيرية، ومن الحياة الأخلاقية. إن ما نحتاجه هو الولاء. ولكن وفى نفس الوقت، طالما أن الولاء فضيلة مرنة، واختيار الموضوعات المستحقة للولاء، يختلف اختلافاً كبيراً، بين فرد وآخر، وطالما فوق ذلك كله، لا تستطيع إجبار أحد على الولاء، وكل ما هناك أنك تستطيع أن تقدم له، فرصاً للولاء وتعليمه بالمثال والقاعدة، أو نظرياً وعملياً، معنى الولاء، فإن الحاجة الماسة التى تحتاجها أى حضارة متقدمة، أو دولة متحضرة، هى أكبر قدر من الفرص المتنوعة والمختلفة، التى يمكن للفرد اختيارها واختيار الولاء لها، وعرض أكبر قدر من المقترحات، حول الصور الممكنة للولاء .

ولا أستطيع أن أتجاهل، أن كل حضارة متقدمة، وبالطبع حضارتنا، لا تقدم للفرد العاقل فرصاً عديدة للولاء، ولكن ما أود الإشارة إليه، فى حياتنا الأمريكية، أننا لا ندرك هذه الفرص، بسبب ظروف حضارتنا، ولذلك لا يعرف كثير من الناس، فرص الولاء المتاحة لهم، ولا حتى معنى الولاء ذاته. وفى نفس الوقت، تؤدى نهضتنا القومية، وشعورنا بعظمة أمتنا، إلى إغرائنا بعدم الولاء، وتشتيت عقولنا، والبعد عن كل ما يمت إلى الولاء فى حياتنا، لذلك فى نفس اللحظة التى ينمو فيها إحساسنا بحب الإحسان ويزداد شعورنا بالتعاطف، من خلال الصحف والمسرحيات، وبحياتنا الاجتماعية عموماً، ينهار إحساسنا بالولاء، ونفشل فى التدريب عليه، فيشب أولادنا، وعيونهم على النجاح الشخصى، وبقدر ضئيل من الشعور بالتعاطف والتدريب العاطفى ونقص فى المعرفة العملية والنظرية، بمعنى الولاء وكيفية الشعور به .

- ٤ -

تمثل الروابط الأسرية، أول فرصة طبيعية للولاء . وكلنا نعرف أن ظروف

حضارتنا، وزيادة عدد السكان قد أدى إلى تفسير جديد لمعنى الروابط الأسرية ، قلت منه قيمة الولاء إلى حد كبير فى حياة الأسرة ، عن تلك القيمة التى كانت له فى السابق، فمنذ أن كانت الأسرة الحديثة، من النوع الذى بدأت تقل فيه سلطة الأب، فإن أطفالنا، قد تدربوا على الروح الفردية، وبالتالى بدأت واجباتهم تجاه الوالدين، تقل عما كانت عليه فى السابق، بل وأهملت واجبات معينة، كانت الأسرة القديمة تعتبرها واجبات سامية، لا تخالف أو تناقش. لقد فضل الكثيرون منا، التخلص من المسألة الأبوية، وسعدوا لتحرر الأسرة الحديثة من سيطرة الآباء، خاصة فى مسألة اختيار الزوجات. وأكد الكثيرون أيضاً على أن ضعف الروابط الأسرية، والسماح بالطلاق، وبالاتجاه لوضع القوانين المنظمة له، يعد خطوة هامة على طريق الاعتراف بالمصالح الفردية.

لن أحاول مناقشة هذه المسائل بالتفصيل. ولكن أستطيع القول بدون أدنى تردد، بأن الروابط الأسرية، طالما كانت من الأمور الطبيعية، فإنها تعد فرصاً مناسبة للولاء. وطالما يتم اختيارها اختياراً عمومياً، فإنها أمثلة على اختيار الولاء. ولذلك، وحسب وجهة نظرنا، يجب أن يتم الحكم عليها، مثل كل الصور، والفرص المناسبة الأخرى للولاء. ولئن كان تبديل هذه الصور والفرص لخصائصها كلما تغيرت وتقدمت الحضارة، مسألة صحية، وليس هناك أى حاجة، للتمسك بوجود أى عناية خرافية، تحافظ على سلطة الأسرة، إلا أن الإخلاص والتفانى لخدمة الأسرة، من بين الفرص المناسبة والأمثلة الواضحة للولاء. إن الإخلاص فقط لا يمكن أن يصبح فضيلة، مهما قالت التعاليم التقليدية عن اختلاف صوره الخارجية. لأن من يحطم الرابطة، التى يكون قد كرس نفسه لها، يفقد الفرصة المناسبة، والوضع الذى تحتله دائماً الذات التى تحيا حياة الولاء، وبالتالى يفقد أفضل ما فى العالم الأخلاقى، ولا يمكن أن يؤدى الإعجاب بالفردية إلى القضاء على هذه الرابطة فنحن نحتاج إلى مزيد من التفرد، وإلى فردية عاقلة، ولكن أفضل قيمة أخلاقية للفرد، تكمن فى ولائه .

عندما يشعر الإنسان، بأن الروابط والعلاقات، التى يحيا بها تعسفية، أو آلية، فإنه يقول أحياناً بأن من اللامعقول، أن يكون الإنسان مجرد ترس فى آلة. والذات التى تحيا الولاء ليست إلا هذا الترس. ولكن يظل من الأفضل، أن تكون ترساً فى آلة، عن

أن تكون خارجها. ولن تحصل على أفراد، يتصفون بالأخلاقية، أو توفر فرصها، من مجرد تحطيم الروابط والعلاقات، ولذلك، طالما يتضمن نظام الأسرة، بالفعل خسارة لفرص الولاء وصوره، والتى أكدت عليها التقاليد دائمًا، فإن نظامنا الاجتماعى، يفقد بالتالى أهم الأشياء الخيرة، ألا ترى ما يحدث أمامنا الآن ؟ فإذا ما تفككت الأسرة البطريركية، أو تبدل نظامها، فإنه لا مكسب لدينا أو نستطيع تحقيقه، إلا إذا حصلنا على نمط أسرى جديد، يقوم على عواطفنا الإنسانية، وغرائزنا الطبيعية، مثل التى كان النمط القديم يعتمد عليها.

ولكن ضعفت الرابطة الأسرية فى حياتنا الامريكية الحديثة، ولم يظهر البديل بعد، ولذلك فقدنا كثيراً من الفرص المناسبة للولاء .

فكيف نأمل فى استعادة هذه الفرص ؟ أجيب، بأننا نستطيع استعادة بعض ما قد فقدناه، إذا حصلنا لأنفسنا، ولأمتنا، على مفهوم جديد لمعنى الولاء. فلقد فقدت الولاءات الماضية معناها، لأن كثيراً من الناس، يحصرون الولاء، فى مجرد العبودية للتقاليد أو فى مجرد استسلام الفرد وتنازله عن حقوقه ومتطلباته ورغباته. ولقد نسى هؤلاء الناس أن ما جعل للولاء قيمة، لا يكمن فى التقليد المعين، أو المعتقد الذى يرتبط به، أو يعمل على رفع قيمته، وإنما كان دائماً فى الكبرياء والكرامة الروحية، التى يشعر بها صاحب الولاء.

لا يستطيع الفرد الحصول على حقوقه أو تحقيق رغباته، تحقيقاً كاملاً، بعيداً عن الولاء للروابط الثابتة و القوية ، التى يمكن أن تدخل حياة هذا الفرد. ولا يتم كسر هذه الروابط أو تحطيمها، إلا إذا كان الاستمرار فيها يعد نوعاً من عدم الولاء للقضية الكلية للولاء. وعندما تتوفر الأسباب لقطع هذه الروابط، فإن التوقف عنها يعتبر واجباً، والإصرار على التمسك، بما ثبت بطلانه، يعد خيانة للولاء، وفعلاً لا ينتمى للولاء، ولكن يجب أن نضع فى اعتبارنا، أن قطع هذه الصلات والروابط، لا يمكن أن يحدث، إلا إذا حلت محلها روابط وصلات جديدة أقوى منها. فلا يمكن أن أقول : "لم يعد الولاء، يقيدنى، أو يحكم حياتى، لشعورى، برغبة شديدة فى الحرية الفردية " فمثل هذا القول لا يصدر، أو يقول به إلا فرد جاهل، بالمطالب العميقة للروح الإنسانية.

إن عدم الولاء يعد انتحاراً أخلاقياً. ويستطيع الإنسان البسيط، تشكيل ذاته الحقة بقدر ما يعمر فى الحياة. ولكنه أحياناً ما يقضى حياته كلها كما لو كان مجرد حالة نفسية، أو لحظة وتعبيراً عن شخصية أخلاقية، بسبب فشله فى رؤية ولاءه الذى كان قد اختاره وبات خاصاً به، وشكل لب شخصيته الأخلاقية، فعندما يظهر الولاء واضحاً، ثم يضل أو يخبو فإنه قد يظل يضطرب شوقاً للحياة، مثلما تظل السفينة محطمة الأشرعة تتأرجح عبر الرياح فلا وجود لأى حرية، فى وجود شخصى. لأن الشخصية الأخلاقية التى كانت تحيا حياة الولاء ثم سعت لحرية زائفة، تفقد قيمتها الخلقية. لأنه فى مثل هذه الحالة، لا يبقى من حياتها، إلا نبذة صغيرة، مثل من يحبون الشهرة، دائماً ما يعبرون عن رغبة فى قراءة خبر وفاتهم فى الصحف ونبذة صغيرة عن حياتهم، ولكنهم لا يحظون بممارسة هذه الحياة، بصورة كاملة.

ويفشل الناس أحياناً، فى إدراك هذه الحقيقة، إما بسبب تصورهم أن الولاء شيء يفرض عليهم من التقاليد واعتبارهم أن الولاء، إن وجد، لا يكون إلا علاقة الفرد بآخرين. والنظرتان خاطئتان. فلا تستطيع التقاليد أن تحدد مسبقاً ولائى الشخصى، بدون موافقتى. ولكن بمجرد موافقتى على الإخلاص للقضية، ووهبة نفسى لها، يعد عدم الإخلاص، نوعاً من الانتحار الخلقى، وفى نفس الوقت، لا يمكن أن يشكل أى فرد معين موضوعاً لكل ولائى، لأنى أستطيع القول لأى إنسان مفرد، "طالما كان لدى إخلاص، فإنى أكون على ولاء لعلاقتنا، ولقضيتنا، ولوحدتنا ". ولهذا السبب لا يكون أصحاب الولاء عبيداً للتقاليد، وفى نفس الوقت لا يستطيع أن يقول كل منهم للآخر، "لقد توقف ولاؤنا، أو لقد مات الولاء لك". فإن تمل القضية التى التزم "الأنا" كله بالدفاع عنها والتمسك بها، يعنى أن تمل الأنا الأخلاقى " وهويتها الأخلاقية. لا أستطيع تحقيق حريتى بهذه الطريقة ولا يوجد فرد أو يمكن أن يوجد، من يمثل أو يشكل كيان كل القضية التى اختار الولاء لها. فقضيتى دائماً عبارة عن علاقة معينة، أو رابطة تجمع مجموعة من الأفراد فى وحدة واحدة.

والآن هل يمكن أن يتعلم الشعب الأمريكى هذا الدرس المستفاد من الروابط الأسرية ؟ وهل يدرك، أن الولاء لا يعنى عبودية فرد لآخر. وإنما يعنى تسامى الأفراد

لمنزلة الشخصية الحقة بسبب القبول الحر والإرادى لقضاياهم، وبسبب تكريس حياتهم لخدمة هذه الروابط الشخصية المشتركة ؟

فإذا استطاع أصحاب العقول الجادة، والذين أضلتهم صورة زائفة للفردية، تنتشر فى أيامنا، أن يتعلموا هذا الدرس، فإننا لا نكون قد تخلصنا من مشكلاتنا الخلقية، وإنما تمكنا من تبسيط موقفنا الخلقى، واحتفظنا فى نفس الوقت بصورة عاقلة للفردية، ولئن ظلت مسألة التعامل مع عدم الولاء، مسألة عملية خطيرة، إلا أننا لن نفلح فى التعامل معها، إذا تصورنا أن العلاج، يكمن فى الانتقام، أو بفعل فيه خيانة للولاء، أى مجرد إثبات حريتنا الفردية. إن تدريب الناس على معرفة القيمة الأساسية للولاء، يعد الطريق الوحيد الذى نأمل به، أن نرد للأسرة كيانها، حقيقة لن يكون لها نفس الصور التقليدية القديمة، وإنما على الأقل نرد لها كرامتها الحقة وكبرياءها. إذن مشكلة خلاص الحياة الأسرية فى أمتنا، تحل نفسها فى المشكلة العامة عن كيف نعلم شعبنا كله وندربه على الولاء للولاء.

- ٥ -

وتظهر الفرصة الثانية للولاء متاحة للسواد الأعظم من الناس، من خلال علاقاتهم بالمؤسسات والقوى السياسية المختلفة، وبالمنظمات الاجتماعية العامة. ففى حياتنا الأمريكية، ولاءات عديدة على أن حياتنا السياسية والاجتماعية، تشكل فى عصرنا، مدرسة لتعلم فنون الولاء للولاء .

إن الولاء وكما سبق أن وضحت أكثر من مرة مازال قائماً بيننا ، فالأهداف النبيلة، والخطط العظيمة، والأفراد المجهولون، الذين يختارون الولاء لقضيتهم وكذلك من يقومون بالخدمات العامة، تطوعاً وبدون مقابل، ويعدون فى مواقف كثيرة علامات مضيئة لنا على طريق الأعمال الخيرية، أقول إن كل هؤلاء يحيون بيننا، بل وما تزال تظهر صور جديدة للولاء فى حياتنا الاجتماعية. فحركات الإصلاح، والاتحادات التجارية، والمؤسسات الدينية، والمنظمات الوطنية الصالحة، والطالحة منها كلها قد أدت، بصورة أو بأخرى، إلى تشجيع الناس على الولاء. ولكن هذه الولاءات الخاصة، لم

يتم تنظيمها، تنظيماً يساعد على تعزيز مبدأ الولاء للولاء. فالولاءات المحدودة، والصور اللاعقلانية للفردية، والسخرية من أصحاب الولاء كلها أمور نلاحظها جميعاً فى حياتنا الأمريكية. والولاءات الخاصة، عندما تبلغ أقصى مدى وأكثر تطوراً وانتشاراً بين الناس، فإنها دائماً ما تأخذ صورة الولاء للعداء المتبادل، بين المنظمات والجماعات والفئات والطبقات الاجتماعية على حساب الولاء للمجتمع ككل أو لكل أفراد الأمة، فتطلب الاتحادات العمالية من أفرادها الولاء لها، ولكنها تفعل ذلك بالتأكيد على أن ممارسة الفرد للولاء الصحيح لطبقته، أو بالتحديد للاتحاد، تتطلب منه، إجمالاً، واجبات معينة تجاه المجتمع ككل، أو لأمة، وهى واجبات من الواضح أن الولاء للولاء يطالب بها. كذلك يؤدى سوء استخدام قادة الأحزاب من السياسيين لولاء الأفراد، إلى إلحاق الأذى بالدولة، فالولاء للمنظمات الخاصة، كاتحادات العمال، وعدم ولاء اتحاداتهم وفسادهم، دائماً ما يعرض مصلحة ورفاهية النظام الاجتماعى كله للخطر.

ولقد نتج عن ذلك أن كثيراً من المحللين الاجتماعيين، وأنصار الفردية والذين سبق أن عرضنا لآرائهم، قد بدأوا يشكون فى روح الولاء ذاتها. ولكن إذا اعترض هؤلاء النقاد وأصحاب الفردية الأخلاقية، على الأعمال الخاطئة للفاسدين من الساسة، أو لقادة الاتحادات العمالية، بسبب تصورهم، أن الولاء يعد المسئول عن مثل هذه الشرور، والاخفاقات، فإن على هؤلاء النقاد مراجعة التاريخ الحديث للإدارات الفاسدة لمؤسسات هذا البلد، وقليل من الفردية، خاصة لمن يسعون للسلطة منهم. وأستطيع القول، إن نفس النوع من الولاء، نحتاجه من قادة الاتحاد وأعضائه. فلا يوجد إلا قانون واحد للكل.

إن مواجهة مثيرى الفتن بين العمال، والإدارة الفاسدة للحزب، لا يمكن أن يتم، إلا بغرس روح الولاء للولاء، والتدريب عليها. فالولاء فى حد ذاته، لم يكن شراً على الإطلاق. والتدخل المتعسف فى ولاءات الآخرين، وعدم الولاء الكلى، يؤدى دائماً إلى الفساد والشرور التى نتحدث عنها. فإذا زاد ولاء الفرد لاتحاده، وكان مدركاً أن هذا الولاء، مجرد وسيلة لتحقيق الولاء للولاء، كلما أصبح هذا الاتحاد، أداة لتحقيق الانسجام الاجتماعى، وليس كما هو عليه الحال الآن وسيلة للقهر، وللفوضى الاجتماعية. فالولاء الذى يطالب به الاتحاد التجارى أفراده مثلاً، ما هو إلا مجرد ولاء طبقى ومصادرة لحرية كل من لا ينتمى للاتحاد، بل وأحياناً كثيرة، يحرم قادة الاتحاد

الأفراد من ممارسة حق الاختيار. ولكن يجب أن يتعلم الناس، أن الولاء لا يعنى العداء لولاء الآخر.

فالولاء حق لكل إنسان، الملوك والعمال ولاؤهم واحد. وعندما ندرك هذه الحقيقة، لن يصبح الولاء سبباً للصراعات والعداءات، أو تصريحاً بخيانة الدولة من منطلق الإخلاص لقادة فاسدين ولدعاة الفتنة، ومثيرى الشغب .

- ٦ -

قدتتساءلون عن كيف يمكن تعليم هذه الجموع الضخمة من شعبنا درس الولاء للولاء. وأعترف معكم، بأن مسألة تدريب شعبنا على الولاء الواسع مسألة غاية فى الصعوبة، بل وتزداد صعوبة، بسبب واقعة أننا نحن الأمريكيين، لا نشعر بعاطفة الولاء لأمتنا. فى العصر الحاضر كتلك، التى شعر بها فى الماضى، أناس شعوب أخرى تجاه دولهم. فاسمحوا أن أوضح مقصدى من هذا القول.

يختلف تاريخ شعورنا وعاطفتنا، تجاه حكومتنا الوطنية، عن تاريخ الشعور الوطنى فى البلاد الأخرى. فمن ناحية لم يحكمنا ملك على الإطلاق بوصفه رمزاً للكبرياء والوحدة الوطنية، ومن ناحية أخرى لم ندخل حروباً ضد طبقة مميزة. والمشكلة الدستورية التى أدت إلى نشوب الحرب الأهلية، تختلف تماماً، عن تلك التى أدت إلى حدوث الثورة الفرنسية، أو الحروب السياسية الإنجليزية فى القرن السابع عشر. فلقد كان هناك فترة، وقف فيها الولاء للأمة ككل فى ذهن الكثيرين مقابل الولاء، لمدينتهم أو لمقاطعتهم. ولقد أدى هذا التعارض فى كثير من الأحيان، إلى الصراع بين هذين النوعين من الولاء، وفى النهاية أدى هذا الصراع إلى نشوب الحرب الأهلية، وظهور ما يسمى بسلطة الأمة فاعتلت الحكومة الوطنية المنتخبة قمة السلطة السياسية، وبقيت دون منازع. وتم الاعتراف بسلطة الحكومة الوطنية، بوصفها السلطة الأعلى، وبأنها السلطة القانونية الوحيدة، التى لا يحق لفرد مقاومتها كان ظهورها عند حدوث الشغب أو نزاع بين جماعتين، يعد أفضل تعبير عن السلطة الشعبية، التى منحت لها، بالرغم من قلة عدد جنودها أحياناً، مقارنة بعدد المتصارعين من الأفراد فالنظرة لهذه الحكومة

الوطنية، بوصفها، السلطة القانونية، والقوة المادية، قد حقق لها وضعاً آمناً خاصاً. وبات لرئيس الولايات المتحدة فى أى لحظة من اللحظات، قوة تفوق قوة أى ملكية، على وجه الأرض. فإذا نظرنا لكل ذلك، بوصفه نتاج صراعنا الدستورى الطويل. فإنه قد يوحى، بأن كل الشعب الأمريكى، قد أصبح على ولاء حقيقى لحكومتنا الوطنية.

ولكن أهذا شيء حقيقى ؟ أعتقد أن أى مفكر أمريكى، يعترف بأننا، فى زمن السلم لا نعامل حكوماتنا الوطنية بمثل هذا الولاء الذى يكنه المواطنون اليابانيون، تجاه أمتهم والإمبراطور. فهم يعتبرون وطنهم جزءا من الدين. وقد جاء فى وعيهم، أن الأرض مقدسة، لذكرى موتاهم، ويحيا الأموات فى ذاكرتهم دائماً، حتى وإن لم تكن هناك صورة محددة لديهم عن طبيعة الحياة بعد الموت. ولقد قيل بأن اليابانيين أحرار فى تكوين معتقداتهم الدينية ولكن فى جميع الأحوال، لابد أن يحوى الدين، نوعاً من التقديس للماضى التاريخى، ووفاء لموتاهم، الذين تميل ذكراهم إلى تقديس الوطن، وعلى ولاء يتحدد من هذه الدوافع الدينية.

والواقع أنه يصعب على أى مواطن أمريكى مخلص، أن يتظاهر، بأنه ينظر لموطنه، بهذه الصورة الدينية، فالوطن بالنسبة لنا، ما هو إلا سلطة سياسية حاكمة. ندافع عنه إذا تعرض للخطر، ونردد بعض عبارات الفخر والوقار والشعارات الصورية التى تتحدث عن تاريخه، وهى عبارات كانت لها قيمتها لدى الأسلاف، حينما كان الوطن محدوداً وصغيراً أو حينما كان يتعرض للعدوان. ولكن فى هذه الأيام، ألا يكون ولاؤنا الوطنى دافعاً وراء وعينا العملى ؟ أنحن بالفعل شعب يتمسك بوطنيته تمسكاً شديداً ؟ من المؤكد طبعاً أن الملاحظ لحملات الانتخاب للرئاسة، لا يستطيع أن يتصورها حملات للتوعية الدينية، أو لها وظيفة دينية، أو يعتقد أن التقديس العميق لذكرى الآباء، يلعب دوراً هاماً فى تحديد اختيارنا للحزب الذى نقوم بالتصويت له.

فإذا قلتم بأن النزاع والجدل السياسى، دائماً ما يخفى وراءه شعوراً بالوطنية، ورغبة فى الدفاع عنها، فإنه قد يرد عليكم، فهل هناك ما يوجد فى حياتنا، وبعيداً عن النزاع والصراع السياسى، ما يعبر عن ولائنا للأمة بوصفها مثلاً أعلى، وأن لدينا من الأعمال والمناسبات والتغييرات العملية، ما يحافظ على ولائنا، ويضخ فيه الدماء، بوصفه عاملاً هاماً فى حياتنا ؟ ومتى كان فى مقدور المواطن الأمريكى العادى، أن

يقول فى زمن السلم، بأنه قد قام بأفعال خدم بها وطنه، ويستطيع أن يصفها بأنها تشبه ما قام به، المتحدث باسم مجلس العموم الذى سبق أن أشرنا له فى المحاضرة السابقة ؟ بمعنى آخر هل مارست فى حياتك، أو لاحظت فى حياة أقرانك، الذين تعرفهم معرفة وثيقة من مارسوا ، أفعالاً، تعبر عن مواقف حرجة، وهل صدر عنك شخصياً، فعلاً يتضمن التضحية بذاتك، أو كان دافعه الحب لوطنك، بحيث تستطيع أن تقول بأنك لا ترى ولا تسمع ولا تتحدث إلا بما يأمر به الوطن ؟

والواضح أن كل هذه الأمور تتعارض مع رؤيتنا وتصورنا للمطالب التى يأمرنا بها مبدأ الولاء للولاء فى علاقاتنا السياسية والاجتماعية. وإن كان يبدو أن هذه الأمور والأخطاء التى قد تحدثنا عنها، لا تخص مجتمعنا الأمريكى وحده، وإنما أتصور أنها أعراض لنمط حضارى عام يتكرر فى التاريخ، وربما نكون على أبواب الدخول فى تاريخنا الوطنى فى نمط مشابه لهذا النمط العام . إن " هيجل " فى كتابه " فلسفة التاريخ "، قد تصور أن نمطاً حضارياً معيناً، ارتبط بانهيار وسقوط الامبراطورية الرومانية، وبالاستبداد السياسى فى القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر فى أوربا الحديثة، واعتبر أن هذا النمط نمط عام ، يمكن أن يتكرر فى عصور وحضارات مختلفة. وأطلق "هيجل" على هذا النمط من الوعى الاجتماعى نمط "العقل الاجتماعى"، أو الروح، الذى أصبح "غريباً عن ذاته" فماذا يقصد " هيجل بهذه العبارة.

قد يكون الوعى الاجتماعى، من النوع الريفى (المحلى)، أى النمط الذى يسود الولايات الصغيرة أو المقاطعات، مثل مستعمراتنا الثلاث عشرة سابقاً، ومن جهة أخرى، قد تكون الحياة الاجتماعية حياة أمة عظيمة يبلغ اتساعها حداً، يجعل الأفراد لا يشعرون بالوحدة الاجتماعية التى يشعرون بها فى المجتمعات الصغيرة. ففى الولاية الصغيرة، من الطبيعى أن يشعر العقل الاجتماعى، بأنه يحيا فى بيته، بينما فى الامبراطورية الرومانية، أو فى دولة لويس الرابع عشر، لا يشعر أى فرد بالألفة. فالحكومات فى مثل هذه النظم الاجتماعية الكبرى، تمثل القانون، الذى يجده الفرد مفروضاً عليه، وبالتالى غريباً عنه، بمعنى آخر، إن سلطة الدولة، يراها الفرد، بالرغم من إعجابه بها أحياناً، سلطة تشبه قوى الطبيعة، وتختلف عن سلطة الأنا الملتزم بالولاء. إن عالم " العقل الاجتماعى المغترب عن ذاته " الذى قال به هيجل، نستطيع

تعريفه، بعبارات اليوم، بأنه عالم، النوع الاستبدادى من الوعى أو الشعور الوطنى، أو عالم الاستبداد، ففى مثل هذا العالم وكما وضح هيجل بمهارة فائقة، يجد نفسه فى علاقة بقوى اجتماعية، لا يستطيع فهمها، ولا يعى وضعه بأنه من الناحية الصورية مواطن حر، أن يقضى على شعوره بالاغتراب الذاتى عن العالم الاجتماعى الذى يحيا فيه. كذلك، طالما أن المجتمع، الذى يحيا فيه الفرد، يبلغ من الاتساع والضخامة حداً كبيراً، بصورة لا تجعل الفرد جاهلاً بقواه السياسية فقط، وإنما بكل القوى الاجتماعية الأخرى، فإنه يبدو للفرد مجتمعاً غريباً تعسفياً. ولقد أكد "هيجل" فى تفسيره، على حتمية وجود صراعات بين أصحاب الثروة والسلطة الحكومية، والهيئات السياسية، وهى صراعات تميز المرحلة الاستبدادية من الحضارة. وفى عالم "العقل الاجتماعى المغترب عن ذاته"، يتجه الولاء إلى الوراء أو إلى الاختفاء. فيسعى الفرد لمصلحته. ويخضع لقوة كبرى من القوى التى تسود المجتمع. وربما مناصب اجتماعية رفيعة. ولكن مثل هذا الترحيب، أو الإذعان للسلطة التى يخضع لها، سواء كانت سلطة الحكومة أو سلطة الثروة، أو رأس المال، لا يعبر عن أى صورة من صور الولاء الحقيقى.

ولئن كانت هذه المعادلة التى قال بها " هيجل "، لا تؤدى إلى نهضة المجتمع ورفاهية الحياة، إلا أننا نستطيع أن نفهم واقعنا الوطنى، بصورة أفضل، إذا أدركنا أن أمتنا قد دخلت فى هذه الأيام عالم "الروح المغترب عن ذاته "، وهو عالم اجتماعى، تكون الحكومة الوطنية فيه بالرغم من انتخابها بعيدة ومنفصلة وسلطة لا تستطيع مقاومتها، وبالتالى قد تحقق الأمان، أو تحظى بالقبول السياسى من الأفراد، ولكنها تصبح قوة لا يخضع لها الأفراد، بدلاً من الشعور بالولاء لها، تقضى على الفرص المناسبة للولاء، والروح الوطنى الذى كان لأجدادنا. وفى نفس الوقت، فى عالم المغترب ذاته، تثير قوى المجتمع الأخرى فضولنا، ويؤدى اهتمامنا بها إلى الاستسلام لها، حتى يمكن استمالتها لصالحنا. ولكنها قوى صناعية ضخمة، مؤسسات مالية كبرى، تكتلات ضخمة من القوى المادية، تعمل لغايات اجتماعية متنوعة. إن هذه القوى الاجتماعية الضخمة تشبه تلك التى تسببها الرياح التجارية أو العاصفة الثلجية. فتترك عواطفنا الوطنية باردة خاملة. إن سحابة المدنية السوداء تخفى السماء التى كنا نشعر بها مؤقتاً، والنجوم التى كنا نسترشد بها. ولئن كانت آثار هذه الظروف الاجتماعية، لا يمكن تجنبها، ومسألة حتمية، إلا أنى لا أقترح أى خطط لإصلاح اجتماعى، يخلص

عـالم "الروح المغـتـرب عن ذاته" من هذه الظروف، بل إن مـثل هذه الظروف الخـاصـة بنظامنا الاجتمـاعى الوطنى، لا تجعل الولاء للولاء أقل أهـميـة. فكل مـا فى الأمر، أنها تحـرمنا من بعض الفرص المتاحـة لمثل هذا الولاء، وتؤدى بنا إلى الهروب إلى المنظمات والطوائف والاتحـادات الفاقدة لروح الوطنية. ولكنها تدفعنا بالضرورة، بأن نحـاول، فى ظل هذه الظروف، أن نزيد من مـقدار الولاء، ونسـعى للوصول به إلى أعلى صـوره، ليس عن طريق القـضـاء على هذه الطوائف و الاتحـادات وإنما إمـدادها بنمط معين من الولاء للولاء.

لقد أصـبحت قطاعات كبيرة من الأمة، بعيدة كل البعد عن شـعورنا الذاتى، وعن وعينا، وفقدنا نسبة كبيرة، من الولاء الذى كانت تحـياه قطاعات كبيرة من سكاننا قبل الحرب، وأقصد هنا الولاء للولايات الصغيرة المنفصلة، والمقاطعات المحـدودة، ولئن كان مثل هذا الولاء المحلى "الريفى" مازال قائماً، إلا أنه لم تصبح لديه القوة أو المقدرة التى كانت لديه، عندما كان قادراً على إشعـال الحرب الأهلية، وتحطيم الوحـدة الوطنية إلى حد مـا. وبدلاً من خطر التـجزئة، بات لدينا الآن اتجـاه خطير آخر لإشـعـال الحـرب بين الفئـات، وتظهـر أعـراضه فى الاتحـادات العمـالية، ومظاهر عديدة للسـخط الاجتمـاعى. لدينا الآن حيـاة سيـاسية فـاسدة، بسـبب التعصـب وسوء الإدارة، ولا مبالاة كاملة، تجاه كل صـفـوف الولاء، يرفع شـعـارها مـعظم أنصـار السلطة الفـردية، وتظهـر واضـحـة فى كثير من المشروعات التجارية التى تنفذها مؤسسات تجارية ضخمة معينة .

إن كل هذه الأمور التى تحدث فى حياتنا الأمريكية، ما هى إلا أعراض حالة الروح المغترب عن ذاته " وانـهيـار الولاء الأسرى، الذى تحـدثت عنه، من فـتـرة وجيـزة، يمكن النظر إليه بوصـفه أحد أعـراض نفس هذا الاتجـاه العـام. والولاء نفسـه، فى ظل هذه الظروف، يظل غير واع بقيمته الحقيقية، أو بدوره فى الحياة وبدلاً من تطوره نحو الولاء للولاء، يفشل فى التعرف على ذاته، فى هذا العـالم الواسع من المشكلات الوطنية، ينبهر بمظهر القوة والسلطة، يحـصـر نفسـه فى خدمـة الحزب السيـاسى، أو الاتحـاد العمـالى، أو أى مؤسسـة اجتمـاعيـة مـحـدودة النطاق. وفى الحـيـاة الشـخـصـيـة، وكمـا رأينا يفـقـد سيطرته على الأسرة، وفى الحياة العامة، إما يظهر وكأنه خدمة لشىء خيالى، أو كنوع من الإعجاب الغامض بمثل عليا بعيدة لا صلة لها بحياتنا.

ولايعد الولاء للولاء فكرة أو مثلاً أعلى غامضاً، فروح الولاء، روح عملية، بسيطة، يمكن اكتسابها بالتدريب، وفى مقدور كل الناس. ولتعليم الولاء للولاء لعدد كبير من الناس، يجب أن نساعدهم على التقليل من الغربة التى يشعرون بها، تجاه نظامهم الاجتماعى.

ولتلخيص هذه المراجعة المسهبة للموضوع، فإن مشكلة تدريب شعبنا الأمريكى ككل، على ولاء اجتماعى حقيقى وشامل، لتكن فى تدريب الروح القريب عن ذاته " لأمتنا، على معرفة ذاتها معرفة أفضل. فإذا كانت هذه هى المشكلة، فما هو الحل الذى يمكن اقتراحه ؟

إن مسألة المناهج التى يجب اتباعها للتدريب على الولاء، سوف أتناولها فى المحاضرة التالية . ولكن وقبل إنهاء هذه المحاضرة المتعلقة بحاجاتنا الوطنية، هناك اقتراح أود طرحه، حول أفضل سبل تعليم الولا ء لأمتنا، وتدريبها عليه. فالواقع أننا فى حاجة إلى الولاء الريفى أى إلى روح الولاء الريفى الجديد، الأكثر عقلانية. وأقصد بالروح الريفى الروح التى تجعل الناس تسعى إلى النهضة، وتربية أبناء ولايتهم أو قريتهم، وتقديس عاداتها وتقاليدها، وتكريم أبنائها البررة، وتأكيد ملكيتها العامة، يعبر عن نفسه فى إنشاء المكتبات العامة، المنتزهات، وفى عمل الجمعيات التاريخية المحلية، ومشروعات تحسين مجتمعات القرية والاجتماعات القبلية والأندية الريفية، وأقصد أيضاً الروح التى أسست الكليات والجامعات فى مدننا الجديدة، والمدن والولايات، وكل المعاهد التعليمية المنتشرة فى كل أرجاء بلدنا. ولئن كانت هذه الروح الريفية منتشرة بيننا إلى حد ما، وتتشكل فى صورة جديدة بيننا، إلا أن ما أود توضيحه، مدى الفائدة الكبيرة التى يمكن أن تفيدنا بها، فى تدريبنا على الصور العليا من الولاء.

وتعد هذه الروح الريفية من الصفات الوطنية الجيدة، التى قد تتصف بها الدولة، وتقدم لنا كل من ألمانيا وبريطانيا العظمى نموذجين من أفضل النماذج، بالرغم من التعارض بينهما. فالقرية الإنجليزية والريف الانجليزى وحب الاسكتلندى لمقاطعته الخاصة، كلها تعد ملامح رئيسية فى تحديد نوع الولاء الذى قامت عليه كل الامبراطورية البريطانية، وأما ألمانيا، فلئن قد عانت مثلنا من النزعة الإقليمية إلا أن

الوعى الألمانى الوطنى يفترض مسبقاً، ويعتمد على حياة ريفية متطورة إلى أقصى درجة، وعلى الولاء، ولقد كان من أهم نواحى الضعف التاريخى لفرنسا، تركيزها السلطة والنفوذ الاجتماعى فى العاصمة باريس، فقط الأمر الذى أدى إلى قلة نمو الوعى الريفى وضعفه. ونحن لا نريد نوعاً من الكراهية المتبادلة بين الأقاليم وإنما نريد نمواً حقيقياً للمثل العليا الريفية، ونمواً فى المثل العليا للولايات المختلفة وقطاعات الريف، وتمثيلها تمثيلاً حقيقياً فى الحكومة الوطنية. لأنى على ثقة تماماً، بأن الولاء للطائفة، أو لاتحاد العمال، أو لأى منظمة سياسية متعصبة، لا يعد الولاء الأمثل، والولاء الريفى المتطور يعد أفضل وسيط يجمع بين المصالح الخاصة والمحدودة للفرد، والمصالح العامة الواسعة والوطنية لبلدنا. وإذا ما تم تركيز السلطة فى الحكومة الوطنية فقط بدون تحديث وتنمية الوعى الريفى، فإن ذلك مؤداه، زيادة اغتراب الروح الوطنية عن ذاتها، ويبين لنا التاريخ، بأنك إذا أردت القوة لشعب عظيم، عليك أن تعتمد على الولاءات للمقاطعات، والقرى، للتوسط بين الشعب ودولته أوحكومته.

ولذلك اتجاهنا نحو تركيز السلطة أو القوة فى حكومتنا الوطنية، يعد خطراً واضحاً، لأنه استبدال القوة بالولاء، ولئن كنت أبحث عن أفضل وسيلة اجتماعية عامة لتدريب الناس على الولاء للولاء، إلا أنه من الواضح أن التدريب على الولاء للولاء، يرتبط بتدريب الأفراد، وسوف يتم تخصيص المحاضرة القادمة لمسألة التدريب على الولاء، وكيفية أن يحيا الفرد حياة الولاء للولاء .

المحاضرة السادسة

التدريب على الولاء

قبل البدء فى عرض كيفية تدريب الأفراد على حياة الولاء. جاءنى اعتراضان من السادة الذى حضروا محاضراتى السابقة. ولابد من محاولة الرد عليهما ومناقشتهما .

- ١ -

يدور الاعتراض الأول حول استخدام مصطلح "الولاء". يقول الاعتراض "لماذا لم تستطع تجنب التكرار الممل لمصطلح الولاء. لماذا لم تستخدم مصطلحات أخرى، مثل الوفاء والإخلاص والتفانى، والثقة للتعبير عن الصفة الأخلاقية التى عبرت عنها بمصطلح الولاء؟

ويتعلق الاعتراض الثانى، بتعريفى لمصطلح الولاء، وبالتالى يعد استمراراً للاعتراض الأول. يقول الاعتراض " لماذا تصر على أن القضية المستحقة للولاء، لابد أن تكون قضية اجتماعية؟ ولماذا، لا تستطيع أن تعتبر نفس الصفة الأخلاقية، التى قمت بتعريفها عن ولاء الفرد بأنها قد تتصف بالغرابة، وقد لا تمت بصلة للمجتمع، أو قد تتصف بالعقلانية ولكنها، لا توصف بأنها اجتماعية؟ فالقديس "سيمون"، والنصب التذكارى، "وبوذا" يبحث عن المعرفة والتنوير تحت شجرته الوحيدة، وعالم الهندسة اليونانى، الذى يحاول تربيع الدائرة، ألا يمكن وصفهم بالإخلاص مثل من يحيا حياة الولاء؟ وهل كانت قضاياهم، قضايا اجتماعية؟

وأجيب على الاعتراضين معا. فلقد عرفت استخدامى الحالى لمصطلح الولاء بطريقة فنية واضحة. فيعنى الولاء بالنسبة لنا، وبالتحديد فى هذه المحاضرات، التفانى الإرادى والعملى الكامل من ذات معينة لخدمة قضية ما. وتعنى القضية فى هذه المحاضرات شيئاً يدركه من يقوم بخدمتها، على أنه يوحد حياة مجموعة من الأفراد

المختلفين فى حياة واحدة. والواقع أنى لا أعرف كلمة أخرى. يقترب استخدامها الشائع من المشكلات التى أود التعبير عنها، أفضل من الكلمة القديمة، التى تجسد المعنى الذى أنسبه إلى مصطلح الولاء. وأعتقد أنى كنت محقاً فى وضع هذا التعريف

فقد تأسس على الاستخدام الشائع للكلمة، وتجاوز هذا الاستخدام بطريقته الطبيعية، وسوف أبين لكم الآن، أننا أصبحنا مستعدين، لاستبدال هذا التعريف الأولى الإجرائى، بتعريف أكثر وضوحاً، يبين لنا، ولأول مرة الروح الحقة للمشروع، الذى يشترك فيه بالفعل كل من عاش حياة الولاء. ولما كنت لا أستطيع وضع تعريف أكثر اكتمالاً، إلا من خلال هذا التعريف البسيط، فلابد أن أظل متمسكاً به على بساطته وعدم كفايته، حتى لا نستطيع الوصول إلى شىء أفضل منه.

والواقع أنى لا أجد مصطلحاً آخر بسهولة، سواء أكان شعبياً أو فلسفياً، يمكن أن يعبر عن المعنى الذى أقصده. فلا أستطيع أن أستخدم كلمة " التفانى " أو " تكريس الذات " بدلاً من الولاء كما أتصوره، نوع خاص من التفانى أو تكريس الذات، فقد يكرس الفرد حياته للبحث عن السعادة، أويتفانى فى السعى لها، ولكن ذلك لا يعنى أنه يحيا حياة الولاء، أو صاحب ولاء. كذلك كلمة "الوفاء"، حسب تصورى، ما هى إلا جانب من جوانب الولاء. فالولاء يشمل "الوفاء"، لأنه يعنى الحسم وقرار قبول القضية. ولا يعنى وفاء الكلب لصاحبه، إلا مجرد لمحة من الولاء، أو مجرد جانب من الخلق، الذى يعبر عن نفسه تعبيراً كاملاً فى حياة الولاء الكاملة والعاقلة. ونفس التعليق يمكن أن يقال عن كلمة الإخلاص وبالنسبة لكلمة " الاستغراق " ،فأصحاب الولاء تستغرقهم قضاياهم، ولكن الإنسان الغاضب أيضاً يكون مستغرقاً فى انفعال غاضب. ولا أعنى بالولاء مثل هذا الاستغراق. كذلك يوصف صاحب الولاء بالثقة وإمكانية الاعتماد عليه، ولكن الساعة توصف أيضاً بإمكانية الاعتماد عليها، فلا تعبر هذه الكلمة تعبيراً صحيحاً، عن الطبيعة الارادية لروح الولاء.

إذن لا أستطيع أن أجد مصطلحاً آخر، يعبر عن مقصدى تعبيراً مباشراً وواضحاً. ذلك إلى جانب أن تبسيط تصوراتنا عن الحياة الأخلاقية، الذى أتاحته نظريتنا، كان سبباً رئيسياً لاستخدامى لهذا المصطلح .

وإذا تم الانتقال لمسألة الإصرار على الجانب الاجتماعى لحياة الولاء، فإن ذلك الإصرار يتضمن أمرين بالنسبة لهذه الحالات الشبيهة بحالة الراهب المنعزل، أو بوذا الباحث عن المعرفة، أو الرياضى الباحث عن حل لمسألته. الأمر الأول. إن كل هذه المشاريع الفردية، لا تحمل قيمة أخلاقية على الإطلاق، إلا إذا كانت تحتل جانباً من جوانب خدمة الفرد لقضية الإنسانية ككل. فالراهب فى كهفه، يحاول أن يزيد من المزايا التى تتصف بها الكنيسة الكلية. وإن صح التعبير، فإنه يصبح لديه قضية اجتماعية يخدمها، وبالتحديد، أى الوحدة الروحية لكل المؤمنين، ولئن كان قد أدرك قضيته إدراكاً خاطئاً فإنها تظل مع ذلك وحسب تصوراتنا، قضية اجتماعية، وكان بوذا، طبقاً للأسطورة، لا يسعى لخلاصه وحده فقط، بل للإنسانية ككل، ولذلك حسب وجهة نظرنا، يعد من أصحاب الولاء، وكذلك العالم اليونانى وبحثه عن حل لمسألة، تتعلق باهتمام العقل الإنسانى، وبالأخص، الاهتمام بالكشف وملكية الحقيقة العقلية. وكانت الحقيقة مطلب كل إنسان، وتؤدى إلى وحدة حياة كل الناس، فإن كل من يبحث عن الحقيقة، وبالأخص حقيقة مهمة مثل التى يبحث عنها العالم الهندسى، ويسعى لها بإخلاص شديد، تكون لديه قضية اجتماعية.

ويتمثل الأمر الثانى بالنسبة للجانب الاجتماعى للقضية فى أن حياتنا قد يسعى بعض الناس لعبادة وخدمة الله بأساليب وطرق غير اجتماعية على الإطلاق، ويكرسون أنفسهم لخدمة عالم غير مرئى، وكائنات أسمى من الإنسان، ولكن إذا كانت هذه الكائنات حقيقة بالفعل، ومستحقة لهذا التفانى الخلقى، فإنها تستحق بالفعل العبادة من كل إنسان، وإن كانت هذه العبادة، لها أسبابها العقلية، فإن البركة تحل على كل الناس. ولذلك عبادة الآلهة، وفى اللحظة التى لا يفكر فيها العابد فى بنى جنسه وإخوانه المؤمنين، تتضمن نوعاً من الولاء لقضية البشرية ككل، أو على الأقل لأمة هذا العابد وشعبه. إن المسيحى فى عبادته لله، يكون مشاركاً فى الوحدة الروحية، وعلى ولاء لمجتمع الإيمان والكنيسة، ولا وجود لجانب غير اجتماعى، فى نوع من أنوا ع العبادة الحقيقية، وإن كان، فإنه مجرد شيء ظاهرى. فالدين يسعى لتحقق معين لغايات الحياة الأخلاقية وهو تحقق نتجه لدراسته بالتفصيل، ومن ناحية أخرى، فالولاء نفسه بوصفه تكريس الذات لخدمة قضية توحد حياة عدة أفراد، وكما سوف نرى يعد ذا طبيعة دينية، ولا تخلو روحه من مسحة دينية، وإذا نظرنا للناس بوصفهم ظواهر

طبيعية، لن نجد إلا الصراع المتبادل بين مجموعة من المخلوقات. ويهدف الولاء إلى وحدتهم ومثل هذه الوحدة، كما سوف نرى أيضاً، تكون دائماً شيئاً مجاوزاً لطبيعتهم، وذا معنى مستقل عنهم، وباختصار أى عبادة لقوى إلهية، وبروح أخلاقية حقيقية، تعد دائماً خدمة لقضية، وعادة ما تكون قضية اجتماعية، من المنظور الإنسانى مثل قضية الدولة والكنيسة أو الإنسانية. بينما ومن جهة أخرى، الولاء لخدمة القضايا، يعنى إعطاء الحياة الإنسانية قيمة روحية وإكسابها مسحة إلهية .

لذلك أهيب بكم أن تتذكروا دائماً هذا المصطلح الذى أكرره كثيراً وتقبلوا تعريفه الظاهرى أو المحدود إلى حد ما، فإن تحقق ذلك نكون فى طريقنا تجاه إدراك الوحدة الروحية لكل الحياة الإنسانية، إدراك يبرر لنا، هذا الاستخدام الفنى للمصطلح، وهذا التفصيل المسهب للحياة الأخلاقية وهذه التحليلات الشائعة للمشكلات الاجتماعية.

- ٢ -

كيف يتم تدريب الأفراد على الولاء؟ هذا هو موضوع محاضرتنا الآن. وللإجابة عن هذا السؤال أبدأ بتعريف بسيط ومختصر، بتوضيح المكانة التى يحتلها التدريب على الولاء فى نظامنا التربوى. ثم أتبعه بالحديث عن الطريقة التى يتم بها تدريب الكبار على صور الولاء، بوصفها من الصفات والمهام الرئيسة للعالم الإجتماعى.

وبغض النظر عن قبولكم المصطلح أو عدم قبوله، فقد تتفقون معى، على أن تدريب الصغار على التفانى الإرادى والكامل فى خدمة قضية اجتماعية، يعد عملاً شاقاً ويحتاج لفترة طويلة. فقبل أن يبدأ الولاء فى الظهور فى حياة الفرد، أو فى مجموعة من الصور الجزئية، التى تعبر عنه طوال حياة الفرد، لابد أن يسبقه ترتيب للأفكار وتنظيم طويل للفكر، اذ لابد أن يكون الفرد قادراً على تصور وإدراك معنى القضية الاجتماعية. ومدرباً على الحسم واتخاذ القرار والقدرة على الوفاء والالتزام به، من خلال استعداد عام للإرادة، ولذلك إذا كانت المراحل الأولى للتدريب على الولاء، تمتد لتبدأ فى المراحل الأولى للطفولة، فلابد أن يبلغ أقصى مداه فى مراحل الشباب والنضج. فالمحبة والطاعة والاهتمام الزائد والمستمر بأنشطة معينة والقدرة على الصبر والتحكم الذاتى، كلها

أمور تعد أساسية وتمهيدية، لصور الولاء الأكثر تعقيداً ولا تحتل فى ذاتها أى نوعًا من أنواع الولاء. ولما كان نضج ولاء الفرد لا يتم بصورة تلقائية، فإننا نتفق مع الاتجاه العام للنظرية التربوية الحديثة، ونؤكد على أنه عند تدريب الأطفال على الولاء، يجب على المدرسين تجنب الدعوة لأى نوع من أنواع الولاء، قبل وصول الطفل للمرحلة المناسبة لمثل هذا النوع، وقبل وصوله السن المناسبة له، وتكوين الأرضية المناسبة، أى وجود تطور لمجموعة من العادات الاجتماعية التى تعد أساسية لقيام الولاء. ولذلك فمن الصعب وجود ولاء حقيقى ومتكامل قبل بلوغ سن المراهقة. فلابد أن يكون لدى الفرد المادة المناسبة للشخصية الأخلاقية، قبل اكتساب الضمير، أو نضج ضميره. ولقد سبق أن رأينا أن الضمير ثمرة الحياة الأخلاقية، وليس جذراً من جذورها .

وهناك نوع من المساهمة، تقدمه الطفولة من جانبها، وتساعد به على تحقيق الولاء فى مراحل النضج ، ولكن لا نلتفت إليها، ولا تثير انتباهنا. وتتمثل هذه المساهمة فى المحاولات المستمرة من جانب الأطفال، لتمثل الأبطال والمغامرين، وتصور نوعاً من الحياة الخيالية، وصداقة بعض الأصدقاء المثاليين، والحلم بالأعمال العظيمة. ولقد أكدت منذ عدة سنوات، وشاركنى لفيف من المهتمين بتربية الأطفال ومشكلاتها، على أن فنون التصوير و التمثل والتعقيل التى يمارسها الأطفال عادة بصورة تلقائية، لا تعد فى حد ذاتها مجموعة من الصور الخيالية، المسببة للمتعة والسعادة للأطفال، وإنما تعد نوعاً من التمهيد الأولى، للتدريب على المقدرة الحقيقية، لفهم الطبيعة الحقة للقضايا الاجتماعية، التى يعتمد عليها الولاء فيما بعد. فإن لم أولع وأشعر بالإعجاب بالأبطال فى مراحل الطفولة الأولى، فإنه من الصعب أن أهتم أو أتخيل واجبى فى مرحلة النضج. فالولاء وكما سبق أن رأينا، وكما سنلاحظ فيما بعد، نوع من تعقيل الحياة الإنسانية، أو تحويلها إلى مثل أعلى، ومن المشاركة فى جوانب خفية ولا مرئية من وجودنا الاجتماعى. ولذلك تعد الحرفية والواقعية الشديدة فى تفسير العلاقات الإنسانية، عدواً لدوداً لتطور الولاء. فإن كان الجار مجرد مخلوق عادى، وابن اللحظة الحاضرة، ومن يمشى ويأكل ويتحدث ويبيع ويشترى، فهناك استحالة لمشاركته الولاء لقضيته، أو لقضيتى، ولكن الطفل الذى يلعب مع رفاق من خياله، والذى يتمثل أفعالنا ويعيد صياغتها بصورة لا شعورية على طريقته الخاصة، يستطيع أن يحصل على لمحات عن العالم الروحى الحقيقى، وعلى صورة مبسطة لحقيقته ووحدته. فيبدأ الطفل

دخول مملكة السماء عن طريق الخيال والتخيل. وربما تحتاج مثل هذه الخيالات إلى نوع من العناية والتوصية إذ ربما تلعب دوراً عكسياً، فتشكل خطورة، وتسبب المشاكل لطفل أو لآخر، ولكن إذا تم الاهتمام بها، وفى صورها الصحيحة، لن تكون مجرد أوهام، وإنما ذات فائدة عظيمة، وتصبح إرهاصات للضمير، ولوحدة ممكنة لعالم الحقيقة الإلهية.

ولما كان الولاء، يتضمن سلوكاً، فإن خيالات الطفولة تعد مجرد إعداد للولاء. ولسلوكه، ثم يأتى الولاء الحقيقى فيما بعد، ولكن نلاحظ أن بعض صور الولاء قد تظهر بالفعل لدى العديد من الأطفال، وهناك العديد من أنماط السلوك التى يمارسها الاطفال، تظهر فيها لمحات الولاء لبعض القضايا، التى يهتم بها الطفل ويدرك معناها وكلنا نعرف هذه الصور. فأعضاء العصابة من الأطفال يعبرون فى سلوكهم عن صورة من صور الولاء للعصابة، وطوّر أطفال المدارس ميثاق الشرف الذى يمنع أى طفل من الوشاية بأصحابه فى الفصل، فباتت الثقة الفضيلة الأولى فى مراحل الطفولة العادية، ولها معاييرها الطفولية، حتى وإن كانت معايير بسيطة.

ولذلك يجب أن نحترم دائماً كل هذه البدايات والإرهاصات الأولى للولاء، ونتحمل صورها فى ضوء الحدود المسموح بها اجتماعياً، والآباء والمدرسون الذين يستخفون بميثاق شرف الأطفال، فيتشجعون على النميمة والفتنة بينهم ويطلبون من الطفل أن يتحول إلى واش ويشجعون على عدم الولاء، يفسدون ضمائر أطفالهم، ويسيئون إليهم. إن القائمين على تربية الأطفال، مطلـوب منهـم معاملة الأطفال بنوع من الحرص، إذ يقدرالأطفال ولاءنا تجاههم، ثم سريعاً يتعلمون واجبهم الخاص بهم، لذلك يجب على كل من يقوم بتدريب الأطفال على الولاء، أن يراقب نفسه ويدقق فى كل التفاصيل الصغيرة المتعلقة بولائه.

- ٣ -

ولكن وبصرف النظر عن دقة وصلاحية طرق تدريب الأطفال على الحياة الأخلاقية المستقبلية، نلاحظ أن التطور السريع تجاه الولاء، يحدث دائماً فى فترة المراهقة. ولقد

أكد الرئيس المسئول عن الشباب " استانلى هول " أهمية فترة الشباب، بوصفها الفترة الطبيعية للتدريب على الولاء وعلى صوره الأكثر تطوراً. ففى فترة الشباب، تظهر صور عديدة للولاء وعلى درجة عالية من التعقيد، وتتصف بقدر كبير من التلقائية، وهناك صورتان من هذه الصور، أصبحتا على درجة كبيرة من الأهمية، بالنسبة لشباب مجتمعنا الأمريكى أيضاً. الأولى صورة الولاء الأخوى، أى رابطة الأخوة، وعادة ما تتصف بالأخوة السرية، والثانية صورة ولاء للفريق الرياضى الذى ينتمى إليه، أو لكليته، أو لأى مؤسسة أخرى، ينظر لها بوصفها كياناً رياضياً.

والواقع أن سوء استعمال هاتين الصورتين، أو المبالغة فيهما، دائماً ما يؤدى إلى صورة ونتيجة عكسية، فقد تصبح جماعة الأخوة السرية، مؤسسات للفساد والفوضى، والمنافسات الرياضية، قد تزداد حدتها، نتيجة الانفعال الزائد، فتسىء إلى الولاء العام، باتباع الوسائل غير المشروعة لتحقيق المكسب الرخيص، ومن الملاحظ أن سوء الاستعمال لهاتين الصورتين والمبالغة والتطرف فيهما، يعود بدرجة كبيرة إلى محاولة ألحت عليهما، فى المراحل الابتدائية من التعليم. إذ تبين النتائج الخطيرة لهاتين الصورتين إنه لا يجب غرسهما بالقوة. فالولاء يجب أن ينمو فى الوقت المناسب، وعند بلوغ الطفل السن المناسبة، وقد يصاب الولاء بضرر بالغ، نتيجة تحويل تجمع شبابى طبيعى إلى حزب أو بناء اجتماعى. وقد حدث خلل كبير فى السنوات الأخيرة، من التركيز الزائد على الرياضة وحياة الأخوة فى المدارس الابتدائية.

ولكن عندما يصل الشاب لمرحلة المراهقة، وتصبح مسألة الأخوة السرية والنشاطات الرياضية، أمراً واضحاً وملفتاً للنظر، فمن الواضح أن جهودنا لتدريب أبنائنا على الصور الأعلى لحياة الولاء، يجب أن تعتمد على هذه الأنماط الطبيعية للولاء، وتحاول تنظيمها والاستفادة منها، ولكن يجب أن نفعل ذلك بدون المبالغة أو التقليل من طبيعتها الأصلية. يجب أن نبنى دائماً على ما لدينا .. وقيام عداء غير ضرورى للجماعات السرية والمنظمات الرياضية مسألة مرفوضة. إن معظم الصور السيئة للمنظمات الرياضية أو للأخوة الطلابية التى تظهر دائماً فى جامعاتنا وكلياتنا، يعود إلى الأهمية الاجتماعية الزائفة، التى يؤكد عليها من لا صلة لهم بالحياة الجامعية، ويفرضون على الطلاب السعى لها. فالخلل فى التنظيمات والفرق والروح الرياضية، لا يحدث غالباً

بسبب الشباب أنفسهم بقدر ما يحدث بسبب الأهمية الاجتماعية الزائدة، والتى لا قيمة حقيقية لها، واهتمام الصحف والجماهير الشعبية بالمنافسات الرياضية، التى تبتعد عن روح المنافسة الشريفة. وعن الروح الرياضية الحقة. لذلك إن كان من الضرورى الاهتمام بالولاء الطبيعى وتنمية صوره، فإن من الضرورى أيضاً أن يتم ذلك بعيداً عن ربط المسابقات بالطابع الوطنى أو القومى. إن التأكيد على أهمية هذه المسابقات، والمبالغة فى المنافسة، يعدان من الأمور السيئة التى تفسد الروح الخلقية للشباب. والدعاية الصحفية والمبالغة فيها، تعد المسئولة الأولى عن نشر مثل هذه الأمور السيئة والشريرة. فعلينا أن نترك الشباب لحياتهم الطبيعية، ولا نتدخل فيها بالإثارة، ونشر الحماس الزائد، بالتعليقات المبالغ فيها من قبل الصحافة، وإذا ما سمحنا للفرق الرياضية بممارسة دورها دون تدخل منا، فإنها تنمى روح الشباب، وتدربهم طبيعياً على الولاء، مثلما تنمى عضلاتهم وأجسامهم. وأما بالنسبة للجماعات، والأخوة السرية، فإن القيمة الاجتماعية، التى يهتم بها الخريجون من أعضائها، وخاصة بعد بعدهم عن الحياة الجامعية، دائماً تفسد روح هذه الأخوة، وتقف عائقاً أمام عملها الحقيقى وتدريبها الشباب على روح وحياة الولاء.

يعد اللعب النظيف[1] مثالاً ونموذجاً ممتازاً للولاء. وإجبار الكبار من قادة الفرق الرياضية ومنظمى المسابقات على اللعب بصورة سليمة، يعد من الأمور الهامة لمصلحة الأمة. إن المدرب أو المشرف على المؤسسة الرياضية، الذى لا يهتم باللعب النظيف، يعد خائناً لشبابنا وأمتنا. وإذا ما أصبحت وجهة نظرنا فى هذه المحاضرات وكان المذهب الذى نعرضه واضحاً، فإننا نستطيع أن ندرك مدى الضرر الذى يمكن أن يسببه هذا المدرب لصالح الإنسانية .

والواقع أننا نعانى نقصاً فى وسائل التدريب على الولاء، وإلى نوع من التبجيل والاحتفال بالمناسبات العظيمة لأمتنا. فقد كان الاحتفال بالرابع من يوليو من وسائل التدريب على الولاء الوطنى، ولكنه بات الآن مهملاً، ولا قيمة له، بالنسبة لقضية الولاء الحقيقى. إن يوم الذكرى[2] ويوم عيد الشكر يعدان أفضل يومين للتعبير عن الولاء لهذا

---

(١) مصطلح رياضى شائع ، يعنى ممارسة الرياضة بالطرق السليمة ودون إيذاء الخصم (المترجم).

(٢) يوافق يوم ٣٠ يونيو ويتم الاحتفال فيه بذكرى شهداء المجتمع الأمريكى (المترجم).

المجتمع وهذه الأمة. ولئن كان الاعتزاز بهما والمحافظة على قدسيتهما أمراً ضرورياً، إلا أن العطلات والمناسبات العامة، بدأ يقل الاهتمام بها، وفقدت طابعها القومي وباتت هناك حاجة إلى مزيد من وسائل أكثر فاعلية، ترمز للولاء، فى المناسبات والاحتفالات العامة، وفى أنواع الخدمات العامة، التى يشترك فيها معظم أفراد هذه الأمة. إن الأمم الأوربية، ترفع من شأن الجيش وتمجده بوصفه معلماً للولاء للصغار والشباب، فجاء الولاء ممتزجاً بالروح الحربية وغالى الثمن. ولذلك لسنا فى حاجة إلى الخدمة العسكرية كوسيلة من وسائل التدريب على الولاء . وبات واجباً على قادة هذه الأمة البحث عن وسائل لنشر روح الولاء والتدريب عليها، غير تلك التى اعتمدت عليها الأمم الأوربية.

- ٤ -

يكتمل الولاء فى مرحلة النضج وسن الرشد، ولذلك نحتاج دائماً إلى نوع من التدريب الفردى على الولاء. فكيف يتم تحقيق ذلك فى النظام الاجتماعى؟ إذا أجبنا على هذا السؤال. واسترشدنا بالتاريخ والخبرة الاجتماعية اليومية. نتعلم ثلاثة دروس. الأول : إن ولاءنا يتم التدريب عليه ونحافظ عليه، بسبب التأثير الشخصى للقادة. والثانى : إن الصور العليا من الولاء، تتضمن عملية فى غاية الأهمية، وسوف أطلق عليها اسم، عملية تحويل القضية إلى مثل أعلى، أو تعقيل القضية. والثالث : إن الولاء لا يتحقق كاملاً، إلا من خلال التدريبات الشاقة والأفعال، والتضحيات التى يقوم بها الفرد فى خدمة القضية ومن هذه العوامل الثلاثة، لا ينفصل العامل الأول عن العامل الثانى، وهما عاملان ضروريان، فإن كنا نريدالولاء، فإننا نحتاج إلى قيادة شخصية خاصة بنا، وإلى قضايا مثالية، أو قد تحولت إلى مثل عليا. وإن كان فى بعض الحالات، يستطيع الفرد أن يقود نفسه، فإنها حالات نادرة إلى حد كبير، فحقيقة يحتاج من يحيا حياة الولاء، أن يستخدم دائماً قدرته على القيادة، كما قد رأينا فى المحاضرة الرابعة من قبل، مثل قيام ضمير الفرد بقيادته. إلا أنه يحتاج دائماً إلى مساعدة من القيادات الأخرى، بجانب قيادته لنفسه. ولقد اعتبرت العامل الثانى، عاملاً هاماً، وسنرى لماذا وصفته بهذه الصفة. لأننا بهذه العملية، أى تحويل القضية إلى مثل أعلى، نكون قد دخلنا العالم الروحى الحقيقى.

إنكم تعرفون تماماً. تاريخ الأندية والمنظمات الاجتماعية الطائفية، فكيف نحجت هذه المؤسسات الاجتماعية، سواء كانت مؤسسات خيرة أو فاسدة؟ إننا نعرف جميعاً، أن تكوين أى ناد أو طائفة، أو حركة اجتماعية أو سياسية، يتطلب دائماً وجودَ شيئين ضروريين : الأول وجود قائد أو مجموعة من القادة، يتصفون بالحماس والجرأة والقدرة على الإقناع، أو فى أسوء الحالات، الحديث كما لو كانت أحاديثهم مقنعة. قادة لديهم صلابة فى الرأى والإصرار والمثابرة، والحزم الذى يصل إلى حد العدوانية، الشئ الثانى، وجود قضية، يمكن تحويلها إلى مثل أعلى، بحيث عندما يتحدث عنها القادة، أو يخطبون فيها، خطبهم ومواعظهم الإنشائية، يولدون لدى السامع شعوراً، بأنها مجاوزة لحياته الطبيعية، وأنها قضية عامة لا شخصية. ولكن فى نفس الوقت يشعر السامع بذاتيتها، وارتباطها به مباشرة. أى سامية ولكنها قوة روحية ذاتية قابلة للتشخيص. إن جانبى الولاء، الشخصى أوالذاتى، وما يبدو مجاوزًا لحياته، يجب أن يوجدا معا.

وإذا درسنا بالتفصيل، العملية التى تؤدى إلى نجاح أى نادى أو جمعية جديدة. نلاحظ أنه لابد من وجود مجموعة من القادة وأحياناً قائد واحد، لديه القدرة على تكريس الوقت والجهد لإدارة هذه المنظمة الجديدة. ولابد أن يثق القائد أو القادة فى قيمة المشروع، ويدركون أهميته إدراكاً واضحاً، ويصبرون ويتحملون مشاق المرحلة الأولى. ولكن نلاحظ من جهة أخرى، أن التأثير الشخصى لهؤلاء القادة، لا يكفى لحث الأعضاء على الولاء للنادى، إلا إذا بدا هذا النادى أو تلك المنظمة، كما لو كان شخصية مثالية، ولها استقلاليتها، ووجودها المستقل عن الوجود الإنسانى. فإذا ما ترك القادة لدى الأعضاء انطباعاً، بأنهم يبحثون عن مصالحهم الخاصة، يفقدون مصداقيتهم ويفشلون فى دعواهم. فلكى يتحقق النجاح للنادى يجب أن يعطى القادة له صفة الكائن المثالى، وغالباً ما تكون أقرب إلى شىء أسطورى، أو قد يأخذ هذا الكائن شكل الآلهة التى تدرك على أنها تفضل المؤمنين، وتخصهم بالرعاية، وتمنحهم مزايا روحية، واجتماعية أكثر من غيرهم. وإذا كان هناك بعض الاحتفالات السنوية التى يقيمها النادى، فلابد أن تتصف بالوقار وبنوع من الهيبة التى تعطى لهذا النادى الصفة المثالية، لابد أن يصبح النادى قضية يتكاتف ويشترك كل الأعضاء لخدمتها. فإن كان النادى من النوادى الإصلاحية أو التهذيبية، فإن المصالح الاجتماعية، التى تقع خارج حدود الوجود المستقل للنادى، تعمل على تحديد هذه القضية، وبالتالى

يصبح النادى، مجرد وسيلة لتدعيم نوع من الولاء ، يمكن فهمه وإدراكه، إدراكاً مستقلاً عن هذه الأداة أو الوسيلة، وفى مثل هذه الحالة يصر القادة ويؤكدون على أهمية هذا الولاء. ولكن إذا كان النادى غاية فى حد ذاته، أى مؤسسة موجودة لذاتها، أى لخدمة أعضائها فقط، فإن عملية صبغ النادى بصبغة القضية العامة المثالية، تواجهه صعوبة كبيرة ولئن كانت الوسائل التى يتبعها القادة لتحقيق هذه العملية وسائل مباشرة، مثل تسمية النادى بأنه مثالى، أو وصفه بخطب حماسية شاعرية، أو مدحه بأنه كائن فوق إنسانى، أو بصبغ النادى بصبغة قانونية، واعتباره نوعاً من الملكية الخاصة. إلا أن هناك أيضاً وسائل غير مباشرة، مثل الاحتفالات والمراسيم والمناسبات المصحوبة إلى حد ما ببعض الطقوس، وربما أحياناً إضافة جو من الغموض كما يحدث عادة لدى المنظمات السرية أو بعمل رموز معينة وشعارات خاصة يرددها الأعضاء - كل هذه الأمور تعطى للنادى على الأقل من حيث المظهر، صفة الكيان المثالى المستحقة للولاء. كذلك من الوسائل غير المباشرة، أيضاً، تسمية النادى بأسماء بعض المشاهير الذين أسهموا فى بناء الحضارة، أو بأبطال بعض الأساطير القديمة. كل هذه الوسائل والطرق، تساعد على نمو الولاء، وبالرغم من بساطتها وتفاهتها إلى حد ما، إلا أنها تفيد فائدة كبيرة فى تحقيق الولاء، إذا كانت المنظمة الجديدة، بالفعل جديرة ومستحقة للولاء.

وينطبق هذا التفسير السابق، مع بعض التعديلات المناسبة على الخطط التى تؤدى إلى تكوين طائفة دينية جديدة، فدائماً ما تجد نفس الوحدة بين الحماس الشخصى من قبل القادة، مع الاتجاه والميل إلى تعريف المثل الأعلى للطائفة الجديدة، بصورة تجعله مجاوزاً لحدود الحياة الإنسانية الفردية. فالإنسان حتى حينما يكون منتمياً لكيان اجتماعى لطيف المعشر، يميل إلى تصور وجود نوع من الوحدة بين حياته الشخصية وهذا الكيان الاجتماعى، وإدراك وجود هذه الوحدة وجوداً فوق إنسانى. لذلك تبين التجربة والخبرة لنا، أن مثل هذه الإجراءات السابقة، تنجح فى معظم الأحيان فى تدريب الناس على الولاء، وعلى الصور الجديدة منه، سواء كانوا فى شكل جماعات صغيرة أو كبيرة.

ولا تختلف الخطط التى أدت إلى احتفاظ مؤسسات قديمة بالفعل، بولاء أعضائها،

عن الخطط التى قد عرضنا لها فى الفقرة السابقة. فالولاء لمجتمع الخريجين والطلبة لكلياتهم، مثال نموذجي وتقليدى على استمرار الولاء نتيجة اتحاد المؤسسة بشخصية قادتها. كذلك ولاء أبناء أمة مستعبدة، مثل الأمة الايرانية أو البولندية، قد ظل حياً، بسبب مثل هذا الاتحاد بين تأثير القادة الأفراد، مع التقديس العام واللاشخصى لنموذج القومية المثالية. بالرغم من اختفاء الكيان السياسى لهذه القومية.

لقد رأيت الآن، كيف لا ينفصل القادة الأشخاص عن القضية المجاوزة لحياتهم عند التدريب على الولاء. فيتم تحويل القضية إلى مثل أعلى بالفعل. وفى نفس الوقت يظل للقادة وقارهم ومهابتهم بسبب الهيبة التى تخلعها القضية عليهم فإذا ما انفصل أى منهم عن قضيته، لبدى مجرد أحد أبواق الدعاية، الذين يسعون للتربح والشهرة وسوء السمعة فى النهاية، كذلك القضايا التى يبذل الجهود والحماس من أجلها، لا قيام لها فإذا لم يقم القائد بالحديث عن القضية ويمدها بحماسه الذاتى، يصعب على أى فرد تصور القضية، بوصفها مثلاً أعلى. لذلك تحتاج القضية للتجسد فى شخصيات القادة، وفى نفس الوقت يحصل القادة على تأثيرهم وقيمتهم الذاتية من واقع ظهورهم، بوصفهم مجسدين للقضية، أو تعبيراً عنها .

- ٥ -

ولكن بالرغم من أن تحويل القضية إلى مثل أعلى، لا يتم إلا بمساعدة الأشخاص والقادة، إلا أنه هناك عوامل أخرى غير مسألة التأثير المباشر للقادة. وعندما ندرس التاريخ العام للولاء بين الناس، سريعاً ما يجذب انتباهنا، عملية تعليمية، حدثت فى حالات معينة .. بعضها حالات عظيمة ورائعة .. وكانت نتيجتها تحويل القضايا إلى مثل أعلى ليس فقط عن طريق التأثير الشخصى للقادة، وإنما بسبب دوافع عاطفة عميقة معينة، يعتمد عليها القادة باستمرار. وسوف أشير لهذه العملية، بما يسمى بتاريخ القضايا الميئوس منها. أو التى لم يكتب لها النجاح.

أشرت من فترة وجيزة لولاء الأيرلنديين والبولنديين لقوميتهم المسلوبة، ولذلك ربما يستمر ويحيا الولاء لقضية ميئوس منها، ليس فقط، فى صيغة صورة خيالية، تستمد

من الذاكرة والعاطفة، وإنما ولاء يحيا بصورة عملية واقعية. وربما يصبح هذا الولاء للقضية الميئوس منها شيئاً أكبر من مجرد العادة أو الذكرى. فقد تظهر خطط جديدة، ومؤتمرات مستمرة، ومشروعات اجتماعية مفيدة، ومؤسسات سياسية كبرى - نعم فى بعض الحالات المتطرفة - أديان جديدة، قد تنمو على أساس الولاء للقضية، فقدت اهتمام العالم بها، وبدت مفقودة وضائعة وميئوساً منها، ولكنها ظلت لها حيويتها على مدى العصور.

إن التطور الدينى الذى لحق باليهودية والمسيحية، والذى لم ير العالم مثله، يعد نتيجة تاريخية للولاء القومى لقضية ميئوس منها أو خاسرة ولم يتحقق لها النجاح. فالوحدة السياسية لكل قبائل بنى اسرائيل التى لم تتحقق إلا فترة وجيزة ، خاصة تحت حكم داود " وسليمان " ، ثم اختفت تماماً من العالم والتاريخ، ثم اختفت تماماً من العالم والتاريخ، فقد عاشت بوصفها مثلاً أعلى. وفقط من خلال هذا المثل الأعلى الميئوس منه، أمكن تصور كيف كان تاريخ بنى اسرائيل وكيف يكون مستقبلهم، وإلهام أنبياء العهد القديم بالحديث عن حكمة الرب حول طريق الصواب والخير الذى يتم به حسب قول الأنبياء، استرجاع مجد إسرائيل وكذلك، ومن خلال نفس المثل الأعلى الميئوس منه، ومن هذا الاكتشاف الناتج للنظرية النبوية عن حكومة إلهية فى الأمور الإنسانية، كان يمكن ظهور هذه التفسيرات الدينية المتأخرة، وإلى هذه الإعادة لكتابة كل التاريخ القديم لبنى اسرائيل، والذى نراه اليوم مسطوراً فى العهد القديم، وأمكن وعلى نفس الأساس أن يصبح لفكرة المسيح معنى، ولفكرة انتصار الخير فى المستقبل أن تتشكل وهكذا، ومن خلال عملية تاريخية، تعتمد كل مرحلة فيها على شعور عاطفى بالولاء لقضية قومية ضائعة وميئوس منها، فإننا نجد كل المثل العليا المتضمنة فى هذه القضية، تم تعميمها والتركيز عليها، حتى ظهرت كل المجتمعات المسيحية. وبالتالى ماتزال المسيحية حتى اليوم، عند الحديث عن آمالها فى الخلاص الإنسانى، ووصف مملكة السماء القادمة، تستخدم نفس المصطلحات المألوفة لدى بنى إسرائيل مثل " جبل صهيون " ، وعرش داود، والقدس، وهى عبارة عن مصطلحات كانت تستخدم فى الماضى للإشارة إلى أماكن وأشخاص، عاشوا فى عصر مملوء بالصراعات والخصومات القبلية - لذلك الولاء الراسخ، والمتطور فى نفس الوقت على مر العصور، يحول تدريجياً، المسائل التى كانت مهملة، وخاصة من قبل السياسات المحلية، وليس

لها أهمية خاصة، إلى أكثر المسائل أهمية، وقيمة فى دين عالمى واسع الانتشار.

إذن لا يعد الولاء للقضايا الميئوس منها، شيئاً ممكناً فحسب، وإنما واحد من أهم الأشياء المؤثرة فى التاريخ الإنسانى. وفى مثل هذه الحالات يتم تحويل القضية إلى مثل أعلى من خلال فشلها فى تحقيق مكسب مباشر أو أى انتصار ملموس ومحسوس ومرئى. وربما تكون الفائدة عظيمة للولاء. ولاحاجة لى بأن أذكركم بأن الكنيسة المسيحية، عبارة عن درس طويل وممتد، يبين لنا، كيف يمكن أن تتحول القضية إلى مثل أعلى من خلال هزيمة ظاهرية، وكيف نتج عن ذلك، نشر الولاء بين أجيال وأجيال من الناس وظهور نماذج وصور جديدة منه، وربما انتقل إلى أناس وشعوب، لم تكن لهم أى صلة على الإطلاق بالقضية المذكورة. إن هذا التاريخ يبين لنا، كيف أن تعلم فكرة ما، وتتابع تطورها، يمكن أن يتعزز ويتأكد، بما قد يبدو فى النهاية غير مشجع على الولاء لها، أى الفشل فى تحقيقها، واليأس والحزن والمعاناة وهزيمتها فى الواقع المحسوس والمرئى.

إن الولاء لقضية ميئوس منها أو خاسرة، مهما كانت قيمتها، يعتمد فى جانب منه على الدوافع، التى قد تعتمد عليها صور الولاء المباشرة والبسيطة، ولكن عندما يتم الفشل فى تحقيق القضية فى العالم المرئى، وعندما تحيا القضية فى قلوب المؤمنين بها، يستطيع أن يدرك المرء بوضوح، وبصورة لم يسبق لها مثيل، كيف لم تعد القضية تعتمد على أى فعل من الأفعال الحاضرة، وأى فعل يكون فى مقدوره القيام به لخدمة القضية، لا يكون كافياً على الإطلاق. أو مهما قام بأفعال فى خدمتها، لن يكفيها حق قدرها. وينتج عن ذلك، أن القضية باتت تطالب المؤمنين بها، بالعمل والتخطيط من أجل المستقبل، ولكل العصور حتى نهاية الدهر، ويجب عليهم تمهيد الطريق، لحضور "السيد" القضية، وتهيأت كل السبل. وبذلك يصبح النشاط أكثر بؤساً وشقاء، لأن المرء لا يستطيع أن يرى نتائجه، وآثار أفعاله. إن محنة الإنسان فرصة مناسبة للولاء. حيث يبدو الحاضر مظلماً، وما تزال هناك حاجة لمزيد من الأعمال الكبرى والشاقة. والمستقبل البعيد يجب الإعداد له.

ودائماً ما يتأثر هذا التفانى الكبير والعميق، الذى يمارسه أصحاب الولاء تجاه قضيتهم الميئوس منها أو الضائعة، تأثراً عاطفياً شديداً. فالحزن على ما فقد يدمى

قلوب المخلصين. وكلما زاد تأثرهم زادت درجة التفانى والإخلاص. وفى نفس الوقت يؤثر هذا الحزن على ذكرياتهم الماضية، ويصبح كل ما كان مرتبطاً بالقضية الخاسرة منسياً. لأننا كما نعرف جميعاً، دائماً ما تسعى ذاكرة من يحزن على الخسارة إلى اصطناع الأساطير، وينظر لها، بوصفها الصور التى تظهر فيها الحقيقة. ففى الأيام العظيمة والمجيدة الماضية، كانت مجيدة وعظيمة، ولما كانت الأسطورة دائماً أكثر مصداقية – وكما قال أرسطو إن الشعر يحوى ويتضمن فلسفة أكثر مما يحوى التاريخ – فلا ترى فى الماضى ما كان قائماً بالفعل أى ما كانت عليه القضية بالفعل فى الواقع، وإنما ماكانت تقصده وتسعى إليه، فإن كان جسدها قد مات، فروحها قد تبعث من جديد. إن الخيال الحزين والمصحوب بحاجة ورغبة شديدة لا يعدّل أو يعيد صياغة الماضى وإنما يبنى رؤية لما كان ينبغى أن يكون عليه.

وبالرغم من أن الولاء للقضية الخاسرة أو الميئوس منها يكون مصحوباً بالحزن والخيال، إلا أنه يكون دائماً فعالاً ونشيطاً، فلا يخبو بسبب هذه الانفعالات الشديدة، ولا يتشتت ويرتبك من كثرة الأفكار والرؤى، وإنما يكرس نفسه للتفكير على ما سوف يحدث وما ينبغى أن يكون. ولذلك يتحول الحزن إلى إحساس شديد بالحاجة أو باعث، فإن كنا قد فقدنا وفشلنا، فعلينا أن نثبت وننجح. وكذلك ولئن كان الولاء يوجه أفعاله حسب الرؤى التى يصورها له الخيال، فإنه فى نفس الوقت يطلب من الخيال بدوره، أن يمده بالصور والرؤى، التى يمكن ترجمتها إلى أفعال، وعندما يسمع من الخيال قصة النصر القادم، لا يقبلها قبولاً مسلماً به، وإنما يحذر نفسه قائلاً : فأنت لا تعرف اليوم أو الساعة التى يحقق فيها النصر للقضية .

"إن كان الماضى قد رحل حزيناً

فهناك مستقبل لم يأت بعد

عليك أن تستعد له"

إن هذه اليقظة و النهضة النشطة والرائعة من غياهب الحزن، والعزم على استمرار التمسك بالقضية الميئوس منها أو الخاسرة، وتحرر الخيال من الحزن على الوجود المفقود والضائع للقضية، وهذا التحكم الكامل فى عاطفة وانفعال الحزن والخيال على تحويل كل شيء، وتوجيه الأعمال، تجاه خدمة القضية كل ذلك يعد امتيازاً خاصاً، يتمتع به كل من كان على ولاء لقضية ميئوس منها، واعتبرها العالم من القضايا الخاسرة، ويختص به أيضاً كل من يرى قضيته قد انتقلت إلى عالم أعلى، ويكون متيقناً فى نفس الوقت من بعثها مرة أخرى فى أبهى وأعظم صورها. لذلك يعد الحزن عوناً وداعماً للولاء. وربما يمكن أن أضيف أيضاً، بأن من الحقائق الواضحة للطبيعة الإنسانية، ارتباط الولاء بالحزن، ولا يمكن بلوغ الولاء أعلى مستوياته إلا من خلال الحزن الشديد. لأن الخبرة التى يكتسبها الانسان من الحزن على القضية الميئوس منها أو الخاسرة، هى بالضبط الخبرة التى تشكل الرابطة الحقيقية بين الولاء بوصفه سلوكاً أخلاقياً، وما له قيمة أبدية فى الدين، فعندما يخدم الفرد قضية ميئوساً منها أو خاسرة، فإنه يبدأ فى اكتشاف أنه يجب عليه، التفانى، وتكريس الولاء الأعلى، لتلك القضايا التى تبلغ من الخيرية، ما يستحيل تحققها أو رؤيتها رؤية كاملة، فى هذا العالم المرئى، أو فى أى لحظة من لحظاته سريعة الزوال، هذا العالم الذى لا نرى فيه ولا نلمس إلا الأشياء، وما لدينا مجرد إحساسات، ومشاعر وانفعالات لحظية. إن الولاء يريد وحدة القضية كاملة، لذلك يسعى دائماً لشيء مجاوز للمستوى الإنسانى وهكذا كما ترون، يرتبط الولاء بالدين، إن أعلى درجة يصل إليها الولاء، هى اللحظة التى يخدم فيها قضية، تبدو ميئوساً منها الآن – ويكمن سبب هذا اليأس فى تحقيقها فى قصر الحاضر وعدم كفايته، لتحقيق الوحدة المثالية للحياة، التى تتطلبها كل صورة مكتملة من صور الولاء. إن قضية الولاء للولاء التى قد أكدت عليها فى المحاضرة السابقة، وتعد بالفعل من القضايا الميئوس من تحقيقها، لدى العديد من الناس. ولكن هذا اليأس، لا يكمن فى القضية ذاتها بقدر ما يكمن فى الناس. فدعنا نسعد لخدمتنا قضية من القضايا التى لم يعرف العالم قيمتها بعد.

ولا نستفيد من معرفة تاريخ القضايا الحاسمة أو الميئوس منها، فى معرفتنا لجانب جديد لقيمة الولاء. وبالأخص، ما قد أطلقت عليه الآن، اسم الرابطة بين الولاء والدين،

وإنما أيضاً فى معرفتنا للطريقة، التى استطاع بها، الحزن والخيال، وتأثر طبيعتنا الإنسانية بالهزيمة والخسارة واليأس، أن يخدموا فى الماضى التدريب على الولاء. إن مدرسة الشقاء أو درس من النكبة دائماً من الدروس الشاقة، ولكن الولاء الذى تم التدريب عليه فى هذه المدرسة، والذى تعلم من خلال هذا الدرس، قد مد البشرية بأغلى الكنوز الروحية. ولذلك من خلال وجود القادة الشخصيين، ومن خلال المعاناة يتعلم الولاء تحويل قضيته إلى مثل أعلى.

- ٦ -

ولكن ما الفائدة التى قد تعود علينا من هذا الدرس السابق، عندما نسأل أنفسنا، عن كيف نتدرب على الولاء؟

من الواضح أن أول شىء، يتمثل فى أنه مهما كانت قضيتنا، فإننا نحتاج للقيادة الشخصية، أو لقادة لنا، ولكن كيف نجد مثل هؤلاء القادة الشخصيين؟ هل نجدهم بين من يشاركوننا نفس القضية التى نكون قد اخترناها بالفعل؟ وهل نتخذ من بعضهم قادة لنا؟ من الممكن أن نفعل ذلك، ولكنه لا يعد كافياً. لأن سوء الفهم والألفة الزائدة، دائماً ما تفسد توجيه أقراننا لنا. فنحن نحتاج لنظرة أوسع. فلئن كانت الصداقة الحميمة من أهم القوى المعززة والمدعمة للولاء، إلا أن الناس، عندما يتخذون من أصدقائهم قادة لهم وقدوة لهم فى الولاء، دائماً يصابون بضيق أفق، وينسون قضية الولاء الكلى، وعلى ذلك يعتمد جزء كبير من التدريب على الولاء، وعلى فن الولاء، على تدريب نفسك، على ملاحظة كل أصحاب الولاء المحيطين بك مهما كانت قضيتهم، لا صلة لها بقضيتك، وحياتهم بسيطة ومتواضعة، كذلك من المفيد أيضاً عندما نواجه عدواً، أن نتعلم فن احترام ولاء الخصم، حتى لو تعلمت ذلك من إحساسك بحدة سيفه وملمس نصله " إن الجرح عميق، ولكن من جرحنى، عدو يحيا حياة الولاء " .إن التفكير بمثل هذه الصورة، وعلى هذا النحو، قد يضفى نوراً على كآبة وظلام الصراع مع ما قد يبدو أحياناً، أغلى من مجرد نصر لحظى، لأن فى اللحظات التى نحترم فيها ولاء عدو خطير نتعلم أن كل من يحيا حياة الولاء، مهما كانت درجة ذكائه، يخدم قضية

الولاء الكلى نفسها. ومن المؤكد أن الناس، إذا ما وعوا هذا الدرس وعياً كاملاً، سوف يتوقفون عن الصراع ولكن حتى يتحقق ذلك، إن لم تستطع محبة عدوك، عليك أن تحترم ولاءه .

ولكن لا يعنى ذلك، أن يتقاتل الناس، حتى يرى كل منهم ولاء الآخر، أو ليستعرض كل منهم ولاءه، وعليك أن تنتبه لولاء المسالمين وصناع السلام، مثلما تنبهت لولاء المقاتلين، عليك أن تنتبه لولاء جارك البسيط المتواضع، وللغرباء الذين تصادفهم. إن كان هؤلاء نماذج حية للولاء. فاجعل منهم قادة لك. انظر لكل من يحيا حياة الولاء، بوصفه قائداً لك، فى خدمة قضية الولاء الكلى.

- ٧ -

هناك درس آخر نتعلمه من مراجعة تاريخ الولاء، فنحن لا نحتاج فقط للقادة، وإنما نحتاج أيضاً إلى تحويل القضايا إلى مثل عليا. أى نرى فيهم أهم ما يربطهم بقضية الولاء الكلى. والواقع أن الإجراء الذى نستطيع به تعقيل القضايا، يتضمن مجالاً واسعاً من التجارب والخبرات الممكنة والأنشطة التى يصعب حصرها فى محاضرة واحدة، فهناك كل العلاقات العملية والمفيدة بين الولاء والفن، وبين الولاء والدين، التى يوضحها لنا تاريخ الإنسانية، والتى نستطيع أيضاً الإفادة منها فى التدريب على الولاء. فيؤيد الفن الولاء، ويربط قضيتنا بموضوعات جميلة ويضع أمامنا، رموزاًلقضيتنا، فى صور معبرة واضحة، إن الفن يبين لنا، فى كل صورة من هذه الصور الجميلة، نمط التعلم ونوع الوحدة التى لا يتوقف الولاء عن إمداد الحياة الانسانية بها، ولذلك قد ينظر للفن بوصفه معلماً للولاء. ولا يعنى هذا القول، الحكم مسبقاً، بالنسبة للسؤال المشهور عن الغاية الرئيسية للفن وعلاقة هذه الغاية بالحياة الخلقية، فلا نسعى هنا لوضع نظرية فى الفن ولكن ما نود قوله فى هذا المجال الذى نتحدث عنه الآن، إن جزءاً كبيراً من تدريبنا على الولاء، يتحقق من خلال حب الجمال، والمعرفة الجمالية التى لدينا. إن الآثار التى تخلفها القضية، إن كان لها آثار، يجب أن تربط حبنا لهذه القضية بحبنا للجمال، فإن كانت القضايا التى نهتم بها، قضايا جديرة

وجيدة وخيرة فإنها تحتاج إلى رموز جميلة تعبر لنا بها عن قيمتها وجدارتها، فكل شئ يظهر لنا جميلاً، يظهر مجسداً لمجموعة من العلاقات المتناسقة ومظاهر الانسجام والبحث العلمى عن الانسجام والتناسق فى الحياة، يشكل الولاء ويبينه، ولذلك التدريب على الولاء، يتضمن المعرفة بالجمال.

ولئن ما يزال الدين يعد الأكثر فاعلية وكفاءة، فى مسألة تحويل القضايا الشخصية والخاصة إلى مثل عليا. فإن مسألة مدى قيمة الخبرة الدينية التى قد نكتسبها من الولاء، أو أثر الولاء، ومدى قيمته بوصفه شاهداً على أى حقيقة دينية حقيقية، سوف ندرسها فيما بعد. فتتناول المحاضرة الختامية مسألة تأثير الولاء على الدين، ولكن لا نستطيع هنا وفى عجالة، دراسة العلاقة العكسية وبالأخص تأثير الدين على الولاء. علينا أن نتبين قيمة الدور الذى يقوم به الدين فى الأمور الإنسانية و فى تكوين الولاء، وكيف يساعد على تحويل ولائنا إلى مثل عليا تربط قضايانا، مهما كانت قيمتها، بعالم غير عالمنا، أو يبدو لنا دائماً عالماً مجاوزًا لحياتنا الإنسانية.

- ٨ -

عموماً لا يعتبر الدين والفن المصدرين الوحيدين اللذين نتعلم منهما التدريب على رؤية قضايانا الشخصية، مرتبطة بالاهتمامات الإنسانية الكلية، وبعالم مجاور لعالمنا وغير مرئى. فالحزن والهزيمة وخيبة الأمل، والفشل، وكل ما نشعر به أثناء خدمة القضية، يمكن الاستفادة منها كلها لتعلم نفس الدرس، الذى نتعلمه من الفن والدين، ولقد بين تاريخ القضايا، التى بدت يائسة، وخاسرة، كيف تحولت بسبب هذه الخسارة أو الشعور باليأس من تحقيقها إلى مثل عليا وإلى قضاياهم الإنسانية ككل. عموماً إن درس تاريخ القضايا الفاشلة، والتى بدت يائسة، يعد درساً هاماً، لتدريب الفرد على الولاء. ولما كنا دائماً لا نعى هذا الدرس وعياً صحيحاً، فإننا نتصور دائماً، أن الحفاظ على ولائنا ثابتاً ومستمراً، أثناء الهزيمة أو خسارة القضية، يعد شيئاً زائداً على الولاء ذاته أى التغلب على عائق مؤلم أمام الولاء، يعد شيئاً زائداً على الولاء ذاته، ولا يجب علينا تحقيق رؤية المسألة على هذه الصورة. فالهزيمة والحزن، عندما يصاب المرء بهما،

أثناء خدمته للقضية، يعدان من الأمور المفيدة للولاء والمعاونة له. وإذا ما صححنا نظرتنا، سوف تبرهن هذه المشاعر والانفعالات على مدى إيجابيتها ومساعدتها على تحقيق الولاء. لأنها سوف تمكننا بالفعل، من معرفة، ما إذا كنا قد أخلصنا فى خدمة القضية وضحينا من أجلها تضحية حقيقية، أو أن ولاءنا كان مجرد لحظة عاطفية أو نزوة عابرة، فعندما يهز الحزن على فشلنا فى خدمة قضية، كل كياننا، فإنه يكشف عن مدى صدق ولائنا. فدعنا ننتبه إلى قيمة هذا الكشف، حتى فى أدق لحظات حزننا، وحينئذ سوف ندرك السبب الذى كنا نحيا من أجله. وكل من أحس فى لحظة الهزيمة، بنفور من القضية سبب الحزن والمعاناة التى شعر بها، لا يكون فعلاً قد تعلم معنى الولاء. كذلك إذا نظرنا للقضية وسط مشاعر الحزن على خسارتنا وفقدان قيمتها فى عالمنا الأرضى، فإننا نميل فى الحال إلى تحويلها إلى مثل أعلى – تماماً مثلما تحول عرش داود الضائع إلى مثل أعلى لدى شعب إسرائيل، وتحولت قضية رحيل المعلم، إلى مثل أعلى لدى الكنيسة الأولى .

يقول التلاميذ فى القصة المشهورة لعابر السبيل الذى يسألهم، عن معلمهم الغائب، أثناء سيرهم فى الطريقة إلى " امماويس " لقد كنا على ثقة بأنه الشخص الذى يصلح إسرائيل. ولكن بمجرد رؤيته ومعرفته، اختفى من أمامهم " وتعتبر هذه القصة من أهم القصص التى عبرت تعبيراً كاملاً عن روح الولاء، الذى ينتصر من خلال الهزيمة، ويتحقق من خلال اختفائه من العالم المرئى واستطا ع الانتصار فى العالم.

إن الدرس المستفاد من هذه الخبرات التى يسجلها التاريخ، لا يقتصر فقط على الأحداث العظيمة ويخص الإنسانية عامة، وإنما يعد درساً شخصياً، يهم كل فرد منا وأعيد عليكم ما سبق أن صرحت به مرة أخرى : إذا نظرت إلى حزنك نفسه، لن تجد إلا واقعة مظلمة وميئوس منها، أما إذا نظرت إلى قضيتك على ضوء هذا الحزن، تغير مظهرها وتجلت، وباتت أكثر وضوحاً. لأنك تعلم حينئذ أنه ليس هذا النمط أو ذاك النجاح، أو حتى تلك الحياة الإنسانية، هى ما تشكل قضيتك، فلقد كان هناك شىء منذ البداية، يبدو من وجهة نظر الإنسان، مجاوزاً لحياته، وينتمى للسماء والارض فى وقت واحد. وذكرى ما قد فقدته القضية دأبت أن تظهر للوعى، هذا العنصر اللاشخصى. ولقد سبق أن وضحت الجوانب السيكولوجية لهذه العملية، التى تحدث فى مثل هذه

الحالات. فالجاذبية والسحر اللذان تضفيهما الذاكرة على الماضى، ونشاط التخيل والخيال عند اختفاء شئ ما من الوجود، والنشاط المصاحب للحزن، عندما نحاول التفكير فى القضية ورؤيتها فى ضوء هذا الحزن و التفكير فيها ذاتها والتحول الذى يطرأ على أفكارنا تجاه القضية إذ طالما غيرت الخسارة الحياة، فلا يمكن الاستمرار فى خدمة القضية بنفس الأساليب القديمة، ولابد من بذل محاولات جديدة، وبالتالى صور جديدة للتفانى .. إن كل هذه الأمور، وكل هذه الدوافع الرئيسية لتحويل القضية إلى مثل أعلى، تكون حاضرة بمجرد حدوث الخسارة أو الشعور بالفشل فى تحقيق القضية وأود التأكيد مرة أخرى .. بأن الولاء الإنسانى لا يمكن أن يكون كاملاً بدون الحزن. لذلك عليك أن تنظر للهزيمة والفجيعة، على أنها فرصة للولاء. وقم باستخدامها كوسائل لتحويل قضيتك إلى مثل أعلى، وبذلك تجعل قضيتك الخاصة، على صلة وثيقة بقضية الولاء الكلى.

يعد الموت من أهم الأسباب والأمور المتعارف عليها، التى تؤدى إلى خسارة القضية، أو فشلنا فى تحقيقها، وخاصة عندما يصيب من ارتبطت به قضيتنا، أو شاركنا إياها زمناً طويلاً وهل هناك دافع فى حياتنا الإنسانية، يدفع بنا إلى تحويل القضية إلى مثل أعلى، غير الموت؟ إن الموت إذا تم النظر إليه، بوصفه مجرد واقعة من وقائع الخبرة الإنسانية، ومجرد دافع سيكولوجى فقط لكان واحداً من أعظم الذين حاولوا تحويل الحياة الإنسانية، يدفع بنا إلى تحويل الحياة الإنسانية إلى مثل أعلى، فذكرى الميت تحول كل ما كان يتشارك فيه مع الأحياء قبل وفاته. وتقديس الموتى يعنى احترام أى جهد يسعى لإنجاز ما قد بدأوا من أعمال قبل وفاتهم، أو ما كانوا يرغبون فى عمله أو القيام به من أعمال . ولئن تركزت نسبة كبيرة من الولاء منذ بداية التصور الدينى لدى الإنسان حول واقعة الموت. فما يزال تفشى الوضع قائماً حتى اليوم. لدى كل أصحاب الولاء، مهما كانت درجة إيمانهم.

«عليك أن تجعل من قضيتك مثلاً أعلى». تلك أولى قواعد التدريب على الولاء تدريباً ذاتياً. ولقد وضحت فقط مجرد لمحات لكيفية تحقيق مثل هذه القائمة. وكل ما أستطيع قوله الآن هو كيف للعلم أن يلحق بالفن والدين، وكيف تتعاون لحظات السعادة مع لحظات الشقاء والتعاسة أوخبراتنا السعيدة والتعيسة على تدريبنا على كيفية تحويل

قضايانا المشتركة إلى مثل عليا. بذلك فإن لدينا وسيلتين يمكن بهما التدريب على الولاء الفردى، الانتباه المتعمد من جانبنا إلى أفعال أصحاب الولاء، والاستخدام المتعمد والواعى لكل إمكانات الطبيعة الإنسانية التى تميل إلى تحويل قضايانا إلى مثل عليا – تلك هى طرق التدريب على الولاء.

ومع ذلك فمازال هناك طريق ثالث، ويعد الأكثر شيوعاً، ولكنه الأصعب من بين الطرق الثلاث فالولاء يعنى، تضحية الذات من أجل القضية. ولا يتم تعلم فن العطاء إلا بممارسة العطاء ذاته. فالتوتر والمعاناة والتضحية، والجهد.. والحماس للعمل وبذل مزيد من الجهد، فى اللحظات التى تشعر فيها بالهزيمة والحزن تسحق قدراتنا وقوانا وعندما لا ينقذنا من اليأس إلا هذا الحماس .. كل هذه الأمور تعلمنا معنى الولاء الحقيقى. ولا أود الإطالة هنا فى شرح وتفصيل درس قديم نعرفه جميعاً. يمجد أنصار الحرب دائماً، الحروب، بوصفها تدفع الإنسانية نحو الأخلاق، أو تؤدى إلى تهذيب الإنسانية، لأن النكبات والتوتر والأخطار العظيمة، تستطيع تعليم الناس الولاء الحقيقى. ولا أعتقد أن هناك حاجة للحرب لتعلم مثل هذه الدروس. إن ولاء لحظات السلم، يمكننا جميعاً من معرفة، معنى العطاء، ومهما كانت قدراتنا على العطاء، من أجل القضية، ثم يمكننا أيضاً من رؤية قضيتنا وهى تحتل مكانها، وبالأخص وجهة نظرنا، بين القضايا الخاسرة والتى فشلنا فى تحقيقها، وعندما تأتى مثل هذه اللحظات أو نواجه مثل هذه الخبرات، علينا مواجهتها بدون تردد، لأن هذه الأشياء كلها .. أصدقاؤنا الذين يرشدوننا لخدمة قضايانا، مجتمع الولاء، الذى لا نعرف عنه الكثير، ويمثل الكنيسة اللامرئية لمن يحبون روح الولاء، الأحزان التى نتعلم منها تمجيد الأشياء التى اختفت من مجال رؤيتنا الإنسانية، الخيال الذى يكسب الحياة الإنسانية قدرتها على التحول إلى مثل عليا، العمل الذى يرهق قوانا، الهزائم التى تختبر ولاءنا – كل هذه الأمور تعد الوسائل الوحيدة، التى نستطيع أن نتعلم بها الدخول إلى عالم الحقيقة الروحية .

المحاضـرة السابعـة

الولاء والحقيقـة والواقـع

قلت فى ختام المحاضرة السابقة، إن كل ما يعلمنا فنون الولاء، يمكننا من الدخول فى عالم الحقيقة الروحية، ولقد قصدت بهذه الكلمات، توضيح أن لحياة الولاء جانباً آخر غير هذا الجانب الذى تم التركيز عليه فى هذه المحاضرات. فلقد كان تفسيرنا منصباً، بصورة متعمدة على جانب واحد. إذ كنا نناقش الحياة الأخلاقية، كما لو كان فى مقدور الفرد، أن يضع خطة للسلوك بدون الوقوف كثيراً أمام مكانة الإنسان فى العـالم الواقـعى، واتجـاهه لتـصـور هذه المكانة على غـيـر مـا صـورناها فى هذه المحاضرات. لذلك مازال الموضوع معرضاً للمزيد من الاعتراضات.

ولئن كنا فى حديثنا عن خيرية الولاء، قد اعتمدنا على الخبرة الإنسانية، لمعرفة أين تكمن هذه الخيـرية، إلا أن ذلك قد يبين لنا أيضـاً أن الولاء يعد خيـراً للإنسـان، لأنه يعتقد أساساً فى خيرية قضيته ذاتها، بغض النظر عن خدمته لها، ويؤمن فى نفس الوقت أن قضيته وخيرها من الوقائع التى تتجاوز وتتعالى فوق حياته وتجربته الشخصية. وهنا قد يحق للمرء الشك فى مدى صحة هذا الاعتقاد، ويتساءل ألا يمكن أن يكون هذا الخير مجرد خير وهمى، يختفى من حياة الفرد، بمجرد توعيته وتنويره. طالما أن أى نموذج من نماذج الولاء، يكون معرضا لمثل هذا التساؤل فإن الشك يمكن أن يصل، لما قد أطلقنا عليه القضية الأعلى أو قضية الولاء للولاء، ويشك فى قيمتها، وفيما كانت قضية خيرية، ولأن الولاء أو كل الولاءات، قد تكون قائمة على الوهم، فإنه قد يكون من الوهم أيضاً محاولة نشر الولاء.

- ١ -

وأفضل وسيلة لعرض هذه الاعتراضات هى نقلها مباشرة عن هؤلاء الذين وجهت إليهم بخصوص هذه المحاضرات السابقة، فلقد قام أحد الأصدقاء الاعزاء بتلخيص

هذه الاعتراضات من نفسه ودون طلب منى، بأن يقوم بتلخيصها. وأستطيع الآن أن أعرض عليكم جزءاً منها، قد أرسله صديقى فى خطاب بعد سماعه الجزء الأول من التفسير الذى سبق أن عرضته، عن خيرية الولاء .

كتب الصديق قائلاً " إن الولاء، ليس الغاية النهائية. أليس الولاء لكل الموضوعات المستحقة للولاء، هو الواجب الأعلى الذى علينا أن نسعى له؟ ألا يعد الموضوع وليس العلاقة .. العالم والتفانى له، وأليس التفانى وحده، هو موضوع ولائنا النهائى ..... أليس الجهد المصاحب لهذا الهدف هو الذى يضفى قيمة على أى بحث مخلص .. من جانبنا أو من جانب الآخرين؟ أليس بسبب هذه " الغاية " نشجع كل مسعى لها ..... إن إيماننا بالغاية، أو بغاية كل الولاءات المختلفة تجعلنا نسعد بكل الولاءات التى تجعل تحقيقها ممكناً. فالميناء يعطى قيمة لكل المسارات التى تتجه إليه .... فبدون المعرفة لقيمة غاياتهم بالنسبة لكل حياة سعت لتحقيق هذه الغاية، ألا نكون فى حاجة دائماً لسؤال كل من يسعى إليها، عن غايته من هذا السعى؟ .... الولاء علاقة ... أنستطيع أن نكون على ولاء كامل لأى شىء غير هذا العالم، الذى يعد موضوعاً لكل ما نعرف ولكل من نحب؟

لعلكم لاحظتم فى المحاضرتين السابقتين، مدى اتفاقى مع هذا الاعتراض الذى قدمه صديقى، على التعريف الذى قدمته للولاء فى هذه المحاضرات السابقة، فتعريف الولاء، وعلاقته بالخير الأقصى، الذى يسعى له أصحاب الولاء، مازال تعريفا ناقصا وغير كاف. ولكن كما سبق أن وضحت فى المحاضرة الأولى، أنى بدأت، متعمداً، بتعريف ناقص لطبيعة الولاء. فلقد كنا مجبرين على ذلك. ولقد عبرت عن هذاالمعنى فى المحاضرة الأولى. أما سبب هذا الإلزام، أو سبب التزامنا بتطوير وتوضيح نتائج هذا التعريف الناقص للولاء، أتمنى أن توضحه المحاضرات الختامية. كذلك يمكن الاعتراض، بصورة شبيه لهذا الاعتراض الذى قدمه الصديق، بنقد يوجه دائماً للمذهب الأخلاقى، أى نقد للنظرية الأخلاقية البحتة وللحياة الأخلاقية. فالفرد يحتاج لمذهب فى العالم الواقعى، أو لنظرية دينية، لكى يقيم عليها، أو تساعد نظريته الأخلاقية. لأنه وكما قد أجبت على رسالة الصديق، إذا تم النظر إلى الأخلاقية فى حد ذاتها، لن تكون إلا صفة أو خلقاً، يقوم باقتراحه مثل الموهوبين، فالحياة الأخلاقية، إذا تم النظر إليها

بوصفها حياة أخلاقية فقط، تكون مجرد خدمة يقوم بها مجموعة من المؤمنين بمعلم معين، ويعتقدون فى رحيله إلى بلد بعيد. فيؤمن المريدون به، ولكن خدمتهم لقضيته، يشوبها دائماً من الناحية الخلقية، سر معين، ويحيط بها نوع من الغموض. حقيقة قد يكونون على يقين، وبدون أى حل لمثل هذا السر، بأن خيرهم الشخصى الأقصى، يكمن فى خدمة سيدهم وإلا لن يشعروا بالأمان أو بالسلام النسبى الذى يكمن فى أى خدمة للواجب. ولكن من يقومون بالخدمة، لا ينجون جميعاً من الشعور بالتشاؤم، خاصة بالنسبة لنتيجة الجهد والعمل الإنسانى. لأنه إذا كان الولاء، يمثل بالفعل خيرنا، وأفضل ما لدينا أفلا يكون هذا الأفضل هو الفشل بعينه؟

أو بمعنى آخر، وبصورة مشابهة لمثل الموهوبين، فقد يكون خيرنا الأقصى بالفعل، كامناً فى خدمة المعلم الذى رحل منذ زمن طويل إلى بلد بعيد، ولكننا لا نريد أن تقتصر المسألة على مجرد خدمته فقط، إننا نريد مثل أيوب أن نقابله وجهاً لوجه. لنفرض أننا اكتشفنا أن المعلم لا يستحق هذا التقدير، أو دجال، أو أنه مجرد شبح أو وهم، ولا وجود له، أتظل خدمة قضيته، ممثلة لخيرنا الأقصى؟ أو ذات قيمة ثابتة؟ ألن يأتى اليوم الذى نقول فيه، لقد كانت خدمته، أفضل فرص حياتنا، ولكن هل كانت للخدمة قيمتها ولم تذهب عبثاً. على أية حال يتضمن ولاؤنا الإيمان بوجود المعلم والتأكيد بأن الحياة جديرة ولها قيمتها، ولذلك تحتوى فلسفتنا عن الولاء على محاولة لرؤية معلم الحياة نفسه، ومعرفة ما إذا كان موجوداً بالفعل كما يتطلبه ولاؤنا، ويتصوره، أى السيد والمعلم الجدير بالخدمة والمستحق لها.

خلاصة القول: إذا كنا قد عرفنا الحياة الأخلاقية بالولاء. وبينا السبب الذى يجعل هذه الحياة الخلقية، أفضل حياة لنا. فإننا نريد الآن معرفة الحقيقة التى تكمن وراء وتحت هذه الحياة الخلقية. نريد أن نرى وكما أراد صديقى فى خطابه، علاقة الولاء بالعالم الواقعى.

- ٢ -

ما هى حقيقة العالم، إذا كان الولاء نفسه خيراً حقيقياً، وليس مجرد وهم من الأوهام الإنسانية ؟

إذا كان الولاء حقاً، عبارة عن خدمة للقضايا. والقضية، حسب تعريفنا، تربط حياة مجموعة من الأفراد فى وحدة حياة واحدة. فإن الولاء إذا كان حقيقياً بالفعل، لابد أن يربط بين النفوس الإنسانية فى نوع من الوحدة الروحية الحقيقية. فهل هذه الوحدة كائنة بالفعل، لابد أن يربط بين النفوس الإنسانية فى نوع من الوحدة الروحية الحقيقية. فهل هذه الوحدة كائنة بالفعل وحقيقية، أم أن الإنسان مهما كانت درجة ولائه، عندما يكتشف أن قضيته مجرد حلم، والناس ما تزال تحيا حياة الفرقة، وليس هناك أى رابطة روحية حقيقية كائنة بينهم، أيمكن أن يظل على ولائه؟ ربما يكمن خيره الأقصى بالفعل فى إيمانه بوجود مثل هذه الوحدة أو الروابط الروحية، ولكن أيظل يأمل فى الحصول على الخير من ولائه، إذا اكتشف أن هذا الاعتقاد مجرد وهم، ولا وجود لمثل هذه الوحدة؟

وكذلك بالنسبة للخير الشخصى، الذى يمكن الحصول عليه من الولاء. فلقد لاحظنا أن هذا الخير، دائماً ما يظهر متناقضاً، فى ذهن الفرد الذى يحيا حياة الولاء. فيحصل الفرد على الخير، ولكن طالما أنه يحصل عليه، من الاعتقاد بأن قضيته لها نوع من الوجود الخارجى المستقل خارج الذات وأنها خير فى ذاتها، فإنه لا يحصل على الإعجاب بالولاء، بوصفه محققاً لسعادته الشخصية، وإنما بوصفه تحقيقاً لذاته من خلال الاستسلام لخير كائن ومستقل عنه فى الخارج .. من خلال نوع من التخلى الإرادى عن سعادته الخاصة. ولذا يكون خيره، عبارة عن توقع نوع من الخير الكامن فى القضية وليس فى ذاته، أو نابعاً منه، ولكن القضية ذاتها ليست قضية فرد واحد، أو مجرد مجموعة من الأفراد لا رابط بينهم. إنها عبارة عن أسرة، بلد، كنيسة، أو نوع من الوحدة العقلية، التى تربط مجموعة من العقول والإرادات، أى وحدة فكرية بين الأفراد، تشبه تلك الوحدة التى نتصورها عند الحديث عن علم من العلوم أو فن من الفنون. الآن هل يمكن أن تحوى هذه القضايا، أى شئ خير، أو نوع من أنواع الخير و لا يكون مجرد مجموعة من الخبرات الإنسانية المنفصلة، المتعلقة بالسعادة والرضا والإشباع؟ لذا واقعية وخيرية القضية، لابد أن تكون من الموضوعات التى يعتقد فيها حتى يستطيع الحصول على خبرة الولاء. وإذا كان ولاؤه قائماً على أساس يقينى بالفعل، فلابد من وجود وحدات للحياة الروحية فى العالم وليس مجرد وقائع فى شعور أى فرد من الأفراد. ولابد أن يكون لهذه الوحدات العليا من الحياة، درجة ونمط من الخيرية – ذات

قيمة حقيقية لم تكن لدى أى فرد واحد أو مجموعة من الأفراد فى أى وقت من الأوقات، وخيرية لم يحظ بها فرد واحد أو مجموعة من الأفراد على الإطلاق، أو كانت جزءاً من خبراتهم .

كيف يكون العالم الواقعى، عالماً متناقضاً، إذا كان إيمان من يحيا حياة الولاء، ذا أساس يقينى؟ إن أى وحدة روحية للحياة، تجاوز الخبرة الفردية لأى فرد، لابد أن تكون حقيقية ولها وجود واقعى. لأن الولاء كما قد لاحظنا، عبارة عن خدمة لقضايا، تبدو من وجهة نظر الإنسان، قضايا مجاوزة للشخص، يؤكد الولاء خيرية هذه الوحدات الروحية. فإذا كان الولاء حقاً وعلى صواب، فإن هذا الخير لمثل هذه القضايا، لايمكن أن يظهر واضحاً لأى فرد، أو لأى مجموعة أو جمع من الناس، إن هذا الخير إن كان مكتملاً بالفعل. لابد أن يظهر فى خبرة وعى أعلى، أو على مستوى أرقى من المستويات التى يمكن أن يصل إليها الوعى الإنسانى. كذلك إذا كان الولاء صحيحاً، فالقضايا الاجتماعية والمنظمات الاجتماعية، والصداقات، والأسر والدول، والإنسانية، كلها كما ترى، أن يكون لها وحدة من الوعى، يشارك فيها كل فرد، ولابد أن تكون كائنة فى مستوى أعلى من مستوى الفرد الإنسانى العادى .

علينا أن نتبنى مثل هذه النظرة، وتأكيد هذه الفكرة، إذا نظرنا للولاء فى النهاية، على أنه ليس مجرد وهم مقنع. فالولاء له جانبه الميتافيزيقى. لأنه محاولة لإدراك حياتنا الإنسانية، من وجهة نظر أعلى مجاوزة لحياتنا . نرى من خلالها، منظماتنا الاجتماعية، عبارة عن وحدات شخصية وفعلية للوعى، وحدات يوجد بها خبرة فعلية بالخيرية، التى يمكن أن نشارك فيها، فى لحظات الولاء التى نحياها فإذا كان لولاء المحبين، وجود حقيقى فى الواقع فإن وجودهم بوصفهم أفراداً مستقلين لا يشكل كل الحقيقة.

فإذا كان الولاء ذا أساس حقيقى ويقينى، وكانت هناك قضية واقعية نتفانى فى خدمتها، فإن وحدة واعية، تنتمى لمستوى فوق إنسانى، أى مستوى أعلى من الوعى الإنسانى، لابد أن توجد وجوداً واقعياً، ولكنها تنتمى فى نفس الوقت، وتتصل صلة وثيقة، بشخصياتنا الذاتية المنفصلة ظاهرياً، وبمجرد التسليم بصحة هذا الافتراض، لا يصبح الولاء مجرد خدمة انفعالية لشىء أسطورى. ولا يصبح الخير الذى تتصف به القضايا، مجرد خير وهمى، وإنما واقعة فى خبرة وعى، أعلى من مستوى الوعى

الإنسانى. ويصبح الاتحاد بين التضحية بالذات، وتأكيد الذات، الذى يعبر عنه الولاء اتحاداً واعياً، بوعى اجتماعى أعلى من وجودنا، ونحيا فيه فى نفس الوقت، لأنه طبقاً لوجهة النظر هذه، نكسب قيمتنا بسبب علاقتنا بوعى من نمط أعلى أو يفوق الوعى الإنسانى، وفى نفس الوقت يعتبر الخير الناتج عن ولائنا، خيراً حقيقياً وملموساً، وحاضراً فى هذه الخبرة العليا، التى ترى حقيقية قضيتنا، بوصفها وحدة حقيقية للحياة. وبسبب هذه الحقيقية، نستطيع القول على الفور : إننا لانحيا الولاء، بسبب الخير الذى قد يتحقق لنا شخصيا من هذا الولاء، وإنما من أجل الخير الذى يتحقق للقضية - هذه الوحدة العليا من الخبرة - من هذا الولاء. ومع ذلك يحقق لنا ولاؤنا فى نفس الوقت، خيرنا الأقصى، لأنه يحدد لنا وضعنا الحقيقى، فى عالم الإرادة الاجتماعية التى نحيا ونتحرك فيها، ونحقق وجودنا.

ولا أشك أن مثل هذه النظرة للحياة الإنسانية والقول بأن الإرادة الاجتماعية كيان موجود وواقعى مثل وجودنا، ولها وجود أعلى من وجودنا .. سوف تبدو نظرة خرافية تماماً، ومع ذلك هذه النظرة لوحدة الحياة الإنسانية، أو رؤية الحياة الإنسانية حياة واحدة، اتجاه عام لدى كل من يحيا حياة الولاء. ولقد وضحت هذه الحقيقة فى كل محاضرة من هذه المحاضرات. وكون أن هذه النظرة ليست نظرة خرافية وأن إدراك الحقيقة والواقع، لا يمكن أن يتم إدراكهما، إلا على هذه الصورة، وفى ضوء هذا التصور، وإن فلسفتنا عن الولاء، تعد جزءاً من فلسفة، يجب أن ترى العالم كله بوصفه وحدة من الوعى، يتألف من عدد لا يحصى من الوحدات أقل .. فهذا هو المذهب الفلسفى العام الذى سوف أعرضه لكم الآن باختصار.

- ٣ -

ولقد رأيت أيها المستمع الكريم أن يشمل هذا العرض على بيان أن الإيمان الراسخ لدى أصحاب الولاء .. أى إيمانهم بقضاياهم، وبوجود خير حقيقى فى هذه القضايا .. إيمان حقيقى، وطالما أنى فى جميع الأحوال، سوف أتحدث عن الحقيقة، أود أن أبين لك باختصار شديد، كيف أن كل من يتناول أى نوع من أنواع الحقيقة،

سواء كانت حقيقة أخلاقية أو علمية، حقيقة من حقائق الفهم العام، أو فلسفية يتضمن حتماً، فى كل أحكامه بالحقيقة، وما يقوله عنها، أن عالم الحقيقة الذى يتحدث عنه، عالم له وحدة عقلية وروحية، عالم من الوعى بالخبرة، يكون نمط وعيه أعلى فى المستوى من نمط وعى عقولنا الإنسانية، ولكن حياته، تعد مثل حياتنا، جزءاً من كيان حى. وأود التأكيد هنا، أن عالم الحقيقة هذا، هو العالم الذى يجب أن تحدده، إذا حكمت بصدق قضية ما، من القضايا، ووصفها بأنها حقيقية، ثم حاولت بعد ذلك أن توضح بطريقة منطقية، ماذا تقصد بصحة هذه القضية، أو مصداقيتها.

لذلك فعالم الحقيقة عالم يؤمن كل من يحيا حياة الولاء بواقعيته، عندما يؤمن بوجود وواقعية قضيته. ويؤمن أيضاً بأنه عالم خير و مثل الخير الذى ينسبه لقضيته، لذلك الحياة التى يحياها أصحاب الولاء والباحثون عن الحقيقة، حياة واحدة، منظور لها من جانبين مختلفين. فمن جهة كل من يقوم بخدمة، يكون مقتنعاً بحقيقة ما يخدمه، أى قضيته. ومن جهة أخرى، يفشل كل باحث عن الحقيقة فى تحقيق غايته، إذ يبحث عن مجرد شىء مجرد، لا حياة فيه. فإذا كان الباحث عن الحقيقة، يعرف طريقه جيداً، فإنه يكون حينئذ، وحسب تعريفنا، خادماً لقضية، توحد حياتنا الإنسانية على مستوى من الوجود الروحى، أعلى من مستوى وجودنا الإنسانى، ولذلك يعد من أصحاب الولاء، فإن كان البحث عن الحقيقة نشاطاً أخلاقياً، فمن جهة أخرى، لا يمكن أن تكتمل الأخلاق، إلا إذا سطعت الحقيقة وكستها بنورها .

ولئن كان البعض قد وصف نظرتى للحقيقة، بأنها نظرة صوفية، واعتبرها البعض مجرد نوع من الخيال، إلا أنها ليست كذلك، ونظرة واضحة للحس البسيط. وأعترف أيضاً بأن الكثير من رفاقى الفلاسفة، قد نظروا إليها باستخفاف وأحياناً بدون روية، ولقد هاجم البراجماتيون نظرتى لعالم الحقيقة. والبراجماتيون مجموعة من الفلاسفة قد دأبوا فى الآونة الأخيرة، على حماية الحقيقة، كما لو كانت فى خطر، من بعض الذين يهتمون بها، وينظرون لها نظرة جديدة وعقلية .

من الواضح طبعاً، أن مجرد إشارتى للبراجماتية، قد أثارت فى أذهانكم، الاسم الذى نحترمه جميعاً والفيلسوف الذى عرض فى العام الماضى أمام حضراتكم وفى هذا المعهد، نظرة البراجماتى للمنهج الفلسفى، ولطبيعة الحق، ولئن كان ليس من العدل

فى شئ، وفى حدود إمكانى، أن أعرض التفسير الذى قدمه الأستاذ " وليم جيمس " لنظريته فى الحق. إلا أن التعارض بين آرائه وتلك الآراء التى أود عرضها عليكم الآن، قد يساعد فى حد ذاته على توضيح وجهة نظرى، فاسمحوا لى أن أستخدم بعض عباراته وأحكامه عن طبيعة الحقيقة التى قد توضح التعارض معها، كيف قد وجدت نفسى مضطرا لتناول وتفسير نفس المشكلة أو الموضوع. ولما كان التناقض، قد يحمل فى طياته، أو يصحبه نوع من الاتفاق العميق أحياناً فإنى آمل أن أعرض الذى أقوم به للاختلافات الفلسفية حول طبيعة الحق، لا يبدو لكم مجرد عرض ممل لمجموعة من الآراء المختلفة .

عند مناقشة الأستاذ وليم جيمس طبيعة الحقيقة، فى كتابه الحديث عن «البراجماتية» "بدأ كما يعرف معظمكم، بقبول التعريف الكلاسيكى للحقيقة، بوصفها مطابقة الفكر مع الواقع. فمن يعرف حقيقة معينة، يكون لديه فى عقله، فكرة، أو حكم،أو مركب من مثل هذه الأفكار والأحكام فى عقله. فإن كانت هذه الآراء حقيقية وصادقة، طابقت هذه الأفكار وتلك الأحكام ما يسمى بالواقع، أو شيئاً يسمى بالواقع. فمثلاً من كان على ولاء لقضية معينة، كولائه للصداقة أو لوطنه أو للنادى الذى ينتمى إليه، ويعتقد ويؤمن به، وكان اعتقاده صادقاً، فإن ولاءه يكون مطابقاً للعالم الواقعى. فمن الواضح طبعاً أنكم تقبلون جميعاً هذا التعريف للحقيقة.

ثم يستمر الأستاذ "جيمس" فى توضيح آرائه، حتى يصل إلى نقطة، يقرر فيها أن فى بعض الحالات، تتفق آراؤنا مع ما نسميه أشياء واقعية، بمحاكاتها لهذه الأشياء، فإذا ما فكرت فى الساعة المعلقة على الجدار الذى أمامك، وأنت مغلق العينين، فإن الصورة التى فى ذهنك، عن الساعة، تكون عبارة عن نسخة مصورة لواجهتها. ولكن يصرح وليم جيمس بأن قدرتنا تؤمن على الأقل، بأن لديك بعض الأفكار الصحيحة، عن موضوعات كثيرة، ولكن يصعب عليك تصويرها، بسبب غموضها الشديد أو تعقدها. كذلك قدرتك على التيقن من أن أفكارك، تصور بالفعل شيئاً موجوداً فى الخارج، تعد قدرة محدودة جداً، لأنك لا تستطيع أن تخرج خارج خبرتك الشخصية، لترى بالفعل الأشياء على حقيقتها فى الخارج، لذلك، وبصورة عامة. نستطيع القول، بأن مطابقة

أفكارنا مع الواقع، الذى يشكل مصداقيتها أوصحتها، يتطلب بالفعل بأن تكون أفكارنا، نسخًا، أو صوراً لأننا نؤمن بأن لدينا أفكاراً صادقة وصحيحة، بالرغم من عدم إيماننا بأنها مجرد صور .

كذلك (وهنا نقترب من نقطة هامة فى نظرية جيمس) لا تمثل الحقيقة مجرد تصوير الوقائع، وإنما أيضاً، لا يمكن تعريفها، فى صورة محددة أو ثابتة بين الأفكار والوقائع، والطريقة الوحيدة التى يمكن بها إدراك الاتفاق بين الأفكار والواقع بوصفه يشكل الحقيقة هى التفكير فى النتائج العملية التى تترتب على معرفة الأفكار الصادقة. يقول وليم جيمس «إن الافكار الصادقة، تقودنا بالتحديد من خلال الأفعال، والأفكار الأخرى التى تحث عليها، تجاه أجزاء أخرى من الخبرة، نشعر أثناء القيام بها بأنها متسقة، وعلى اتفاق مع الأفكار الأصلية. فتأتى لنا الانتقالات والارتباطات بين نقطة وأخرى، متسقة ومنسجمة، ومتطورة ومنطقية، ويمثل هذا التوجيه، ما نعيه بتحقق الفكرة. ويستمر "وليم جيمس " فى تفسير وجهة نظره بذكر مجموعة من الأمثلة، لطريقة اختبار مصداقية الأفكار، فى كل من عالم الفهم العام، وعالم العلم، بمقدار النفع والنجاح، الذى ينتج من ربط الأفكار الصحيحة بنتائجها العملية. فمن ضل الطريق فى الغابة، تصبح أفكاره صادقة و صحيحة عن مكانه وما حوله، عندما يحصل على الخبرات والأفكار، التى تجعله يتبع الطريق السليم، الذى يؤدى إلى بيته. وفى العلم، يتم اختبار الفروض، ومدى صحتها، بإدراك الخبرات، التى تؤدى بنا إلى توقعها، ثم رؤية مدى إمكان تحقيق هذه التوقعات. يقول الأستاذ جيمس " إن الصدق هو اسم لعملية التحقق التى تبدأها الفكرة. فمثلاً، الفرض العلمى القابل للتحقق، إذا أدى إلى نتائج ناجحة فى الخبرة، يعد فرضاً صادقاً وصحيحاً. وبنفس الصورة، تعد فكرة اتبا ع طريق معين، من طرق الغابة، للوصول الى المنزل، تعد فكرة صادقة إذا سرت فى الطريق ووصلت إلى منزلك .

ويترتب على ذلك، أن الفكرة الصادقة، هى الفكرة النافعة، والتى تمكنك من توقع نوع الخبرة التى تريدها، وكل فكرة نافعة، بوصفها مرشداً فى الحياة تعد صادقة. ولذلك تعد الاختبارات الشخصية للصدق وللنفع، لكل فرد منا، اختبارات خاصة وتجريبية. وبالطبع تعد اختباراتى المباشرة للصدق، محدودة بنطاق خبرتى. فأعتبر

أفكارى، أفكاراً صادقة، طالما أنها ترشدنى، للخبرة التى أرغبها. ولكن من الواضح طبعاً، كما يؤكد "وليم جيمس"، أننا نتفق باستمرار وبوصفنا كائنات اجتماعية فى التحققات التى يقوم بها كل فرد منا. ولذلك قد يفترض الكثيرون منا، صدق العديد من الأفكار، التى لم يتحققوا منها شخصياً فى خبراتهم، أو لمسوا نتائجها. إن جزءاً كبيراً من الأفكار التى نعتمد عليها فى حياتنا، " نؤمن بصوابها بدون التحقق منها ". ويقول الأستاذ "جيمس" لأننا لم نجد ما يتعارض مع هذا الاعتقاد، فكان أن تعودنا على ذلك". أى قد نعتبر هذه الأفكار، التى نقتنع بها شخصياً، ونجدها ناجحة ونافعة وقابلة للتحقق، أفكاراً صادقة، حتى وإن لم نختبرها، أو نتحقق منها شخصياً. بمعنى آخر إن ضمان صحة هذه الحقائق غير المحققة، هو الفائدة التجريبية، التى قد يستفاد منها فى الحياة، إذا تم افتراض قبولها. يقول الأستاذ "جيمس " تحيا الحقيقة معظم جوانبها، على نظام للثقة ..... ولكنه نظام يقبل كل جزء من أجزائه التحقق فى مكان ما وبدون هذا التحقق المباشر لكل لبنة من لبناته، تنهار بنية الحقيقة كلها، مثلها مثل النظام المالى، الذى لا يعتمد على أساس نقدى. فتقبل تحققى من شىء ما، وأقبل تحققك من شئ آخر. فنحن نتاجر فى الحقائق، أى نتبادل الحقائق. ولكن قيام فرد ما بالتحقق من المعتقدات يعد الأساس، والأعمدة الرئيسية للبناء كله .. إن الأفكار القابلة للتحقق بصورة غير مباشرة أى الأفكار التى تحقق منها فرد آخر، أو حتى الأفكار التى لم يتحقق منها أحد بعد، ولكنها تتسق تماماً، مع الأفكار التى تم التحقق منها، دائماً ما نقبلها، لأن من المفيد لنا قبولها. فأن تقول إن الفكرة، تعد صادقة بسبب منفعتها، أو تقول إنها نافعة بسبب صدقها، فأنت تقصد معنى واحداً، وشيئاً واحداً .

إذن المطابقة مع الواقع، تصبح عند " وليم جيمس " مسألة توجيه وقيادة أى خطة نافعة، لأنها ترشدنا نحو أى موضوعات هامة . وانتهى تفسير الحق، عنده إلى أن " الصدق هو النفع والاستفادة "، أى النفعية فى التفكير. تماماً مثلما يكون فعل الصواب هو الغاية من سلوكنا. وتسعى البراجماتية إلى المستقبل وتتطلع إليه. أى أن الفكرة، تعد فكرة صادقة، حسب النتائج النافعة. " فقيمة الفكرة، أو مصداقيتها، حسب ما يدفع فيها من ثمن. والتزامنا بالبحث عن الحق، جزء من التزامنا العام، بأن نفعل ما يعود علينا بفائدة. إن المكافأة التى نحصل عليها من الأفكار الصادقة، هى السبب الوحيد، الذى يجعل من الواجب علينا اتباعها .

وكـمـا ترى أن ملخص وجـوهر هذه النظرية. يكمن فى أن صـدق أى فكرة من الأفكار، يتحدد فى مدى نجاحها فى تحقيق أو إنتاج ما يسميه رفيلى " القيم الفورية للخبرة "، والتى تظهر بوصفها نتائج للتمسك بالفكرة. وقد تأخذ هذه القيم صور تحققات مباشرة فى الوقائع المحسوسة، مثلما يجد المرء طريقه فى الغابة، ويصل إلى منزله، أو تأخذ صورة معتقدات نافعة، ولها دلالات علمية، لا تتعارض مع الخبرة الحسية، كلما زادت بقبول من يتمسك بها. وكلما كان فى مقدور المرء، تحقيق هذا الارتباط، وتحويل هذه المعتقدات إلى قيم فورية، فإنه يكون حراً فى التمسك بها، ولكن مع الاقتناع، بأن النفع هو الصدق، والصدق هو النفع.

وهكذا كما ترون أن الحقيقة ليست ثابتة. وتتغير تبعاً لنتائجها النافعة فى خبرتك ولذلك هاجم وليم جيمس كل من يدرك عالم الحقيقة على أنه عالم أبوى. وكل فيلسوف يصف عالم الحقيقة بالثبات.

- ٤ -

بعد هذا العرض الموثق للمذهب البراجماتى. عليكم أن تدركوا سواء كان هذا المذهب مذهباً فلسفياً حقاً، أو إنه مجرد مذهب نفعى خاص ببعض الناس، أن هذا المذهب يهم فلسفتنا عن الولاء، خاصة، وقد وصلنا إلى مرحلة، باتت فيها علاقة الولاء بالحقيقة، علاقة هامة وحساسة. ولذلك يحق لنا، أن نخاطر ونسأل، أيعبر هذا المذهب البراجماتى، تعبيراً صحيحياً، عن ما نقصده بالحقيقة أو بالصدق ؟

لإجابة السؤال، دعونى أوضح بداية، الذى أتفق فيه مع الزميل العزيز، ومع نظرته للصدق. أفق تماماً معه، على أنه أينما يصدر الإنسان حكماً بالصدق، فإنه يعد فعلاً .. سلوكاً عملياً، واعترافًا إيجابيًا بواقعة ما. وأتفق معه تماماً، بأن أى محاولة من جانبنا، للتحقق من هذا التعرف، فى خبرتنا الشخصية، ورؤية الحقيقة، والصدق فى التطابق العملى بين أحكامنا، والنتائج التجريبية التى نحصل عليها، بأنها محاولة تصاحب حتماً فى حياتنا الفردية، كل مسعى لقضية البحث عن الحقيقة. ولا تعد البراجماتية الحديثة، كما تدعى، أنها أول من عرضت لهذه الوجهات من النظر، ومثل هذه الآراء.

فتاريخ المثالية الحديثة، ملىء بمثل هذه الآراء والأحكام. ولقد كنت أثناء التدريس، وكمدرس فلسفة، أرى الحقيقة بهذه الصورة العملية. ويجب أن أعترف، بأنى قد تعلمت النظر لطبيعة الحق، بهذه الصورة، عندما كنت أدرس الفلسفة، وعندما تعلمتها على يد أساتذة عظام. مثل كانط، ونتشه، وهيجل، والأستاذ "جيمس " نفسه الذى استمعت لمحاضراته أثناء دراستى فى جامعة جون هوبكنز، ومحادثاته وخطاباته فى السنوات الأخيرة، والتى تعلمت منها، ما شحذ بصيرتى، وساعدنى ربماعلى غير ما قد نصحنى به الأستاذ، على قراءة المثاليين قراءة صحيحة، وعلى البحث عن الحقيقة الأزلية والأبدية وراء كل هذه المذاهب البراجماتية. لأن من الواضح أن المذهب البراجماتى للأستاذ "وليم جميس " بالرغم من رفضه للأبدى، وكثرة التعبيرات التى تنم على الرعب من هذا الأبدى، يعبر بالفعل عن أحد جوانب هذه الحقيقة الأبدية. فمن الواضح تماماً وثابت بصورة مطلقة، أن كل بحث عن الحقيقة يعد نشاطاً عملياً وذا غاية أخلاقية وأى حقيقة نظرية بحتة ، لا تؤدى إلى عمليات نشطة وذات دلالة عملية، تعد لغواً، وليس لها قيمة عقلية ولئن كان هذا ما قضى " نتشه " حياته يطالب به ويعلمه. فلقد تعلمت من الأستاذ جيمس نفس الدرس. وأدين أيضاً بالشكر لكل أساتذتى على هذا الدرس. وحاولت من ذلك الوقت، أن أحيا به، فبدأت بدراسة طبيعة الحقيقة .

لذلك فأنا فيلسوف براجماتى. وأوافق تماماً، على أن أى حقيقة نحصل عليها، تعنى نجاحاً عملياً نشيطاً وحياً، فى أفعالنا وفى الأشياء التى نحاول أن نثبتها، ونتحقق فيها من أحكامنا ولاشك إطلاقاً فى أن قولنا "هذا حق" يكافئ القول بأن الأفكار التى أعبر بها عن هذه الحقيقة والأفكار الناجحة والعملية، والتى إذا اتبعتها، أشبع بالفعل كل حاجاتى العميقة. ولا أعترف بذلك فقط، وإنما أصر أيضاً على أن الحقيقة مفهوم أخلاقى، وأشكر من أعماق قلبى الفيلسوف البراجماتى العظيم، الذى حظى بإعجاب مستمعيه العام الماضى، فى هذه القاعة[1] أشكره، لأنه قد علمهم، ما قد علمنى فى شبابى، وبالأخص، أن معرفة الحقيقة تعنى تحقيق النجاح الذى تحتاجه، والذى تسعى له دائماً كل طبيعتنا العملية المشتركة وتتحمل كل الصعاب للحصول عليه.

ومع ذلك، وبالرغم من كل ما سبق مازال هناك سؤال هام. فعندما نسعى للحقيقة؟

(١) المقصود هنا وليم جيمس (المترجم).

نسعى بالفعل للأفكار الناجحة. ولكن ما الذى بحق السماء، يشكل النجاح؟ حقيقة إن البحث عن الحقيقة، مسعى عملى، ولكن، وبحق كل المخلصين، ما هى غاية السعى الإنسانى؟ أو أى محاولة يقوم بها الإنسان؟ إن الحقيقة كائن حى. ونحن نريد القيادة والتوجيه. " القيادة وإضاءة الطريق " هكذا نطلب من الحقيقة. فلقد ضللنا فى غياهب الزمان. ونريد معرفة الطريق، والحقيقة، والحياة، ولئن كانت كل علومنا ومعارفنا، تحاول تحقيق ذلك، إلا أننا لا نعرف كيف نحيا حياة حقيقية ؟ ولا نعرف لماذا نحيا؟ أو لأى شىء نحيا ؟

- ٥ -

ونستطيع الاستفادة من المرحلة التى وصلنا إليها فى فلسفتنا عن الولاء ، فى محاولة إجابة هذا السؤال، فلقد سبق أن وضحنا، أن أصحاب الولاء، هم أقدر الناس جميعاً، على التطلع إلى أمل تحقيق نجاح حقيقى. فإن فشلوا فشل الجميع. ولئن كانوا يعتمدون بصفة أساسية على خبرتهم الشخصية، إلا أنهم لا يهملون خبرات الآخرين أيضاً. ويشعرون. بسحر وفتنة قضيتهم. ويتأثرون بها فى وجدانهم، ويحقق لهم ولاؤهم، على الأقل فى نطاق حياتهم الشخصية، ما يسميه الأستاذ "جيمس" قيمة فورية. وطبعاً يحبون مشاركة أصدقائهم فى مثل هذه القيم الفورية. ومع ذلك أود الإجابة منكم على السؤال التالى: "هل يسعى أصحاب الولاء، لمجرد الحصول على مجموعة من الخبرات الشخصية والخاصة، عن مشاعرهم الذاتية بالإعجاب، بفتنة القضية ؟ إذا سمعت أحدهم يقول " إننا نحيا حياة الولاء، ونمارس هذا العمل، من أجل تحقيق مكاسب شخصية لنا أو لأصدقائنا؟ "هل تقبل هذا الأسلوب فى الحديث. تعبيراً حقيقياً عن روح ولائهم، أو الروح الحقيقية للولاء؟ عندما واجه " أرنولد فنكلرايد " السهام النمساوية، هل قال " انظروا أيها الأصدقاء، أحاول وأسعى للحصول على القيمة الفورية لولائى، بطريقة عملية "، فانظروا كيف أسحب هذه القيمة الفورية ؟ ربما يعترض زميلى، بأنه طبقاً للأسطورة، فإن البطل قال قبل وفاته، " عليك أن تشق طريقاً للحرية "، لذلك من الواضح أنه يريد الحرية، للحصول على هذه القيم الفورية نعم، ولكن الحرية ليست فرداً إنسانياً واحداً، وليست مجرد جمع من الأفراد. إن الحرية كانت قضية وحدة معينة

للحياة المثالية لمجتمع حر. فإن كان من المفيد بالفعل، أن يموت أحد الأفراد من أجل الناس. ولكن الناس أيضاً، عبارة عن وحدة صوفية، للكثرة فى واحد. فلقد مات البطل من أجل هذه القضية، ولم يشعر أى فرد فى حياته الفردية الخاصة، بكل القيمة الفورية الحقة لهذه الوحدة العليا. ولم يحقق المواطنون السويسريون، فى الماضى أو الحاضر أو المستقبل، بوصفهم مجرد مجموعة من المخلوقات التى تحيا يومها، أى قيمة فورية، كالتى تتحدث عنها، فإذا كانت القضية موجودة، فالكنز موجود، وتكون بالفعل قيمة فورية، فى مستوى أعلى من مستوانا، ومستوى الحياة الإنسانية الحاضرة. ولكن الولاء لا يحيا يبيع بضاعته، من أجل الحصول على قيمة فورية توضع فى محراب قضاياه ،إنه يحرم على مثل هذه البراجماتية دخول المعبد. ويخدم القضية ويعبدها، ويقول لها " أنت المجد كله " .

اذن يسعى الولاء للنجاح، ويثير من لحظة إلى أخرى، فرحة ونشوة لدى أصحابه أثناء قيامهم بخدمة القضية. ولكن هذه الفرصة، تستند على اعتقاد فى نمط مميز لوحدة الحياة ولذلك لا تستطيع بالفعل، أن تعبر عن ولائك، أو قيمة ولائك، بأن تشير لمجموعة من مشاعر الفرحة، التى قد يشعر بها كل أصحاب الولاء . إن خدمة الولاء عبارة عن الحياة الحقة كلها، وقيمة مجموعة من الخبرات الغنية جداً التى لا يمكن أن تعبر عنها، لحظة أو مجموعة من اللحظات الزمنية العابرة.

الآن أليس ذلك نفس الشيء، بالنسبة لحبنا لأى نوع من أنواع الحقيقة ؟ بالطبع دائماً ما نسعى نحن الفنانين لتحقيق أى نجاح، قد نحصل عليه من اختبار وتحقق حقائقنا. ولكن هل تستطيع التعبير عن تعريفنا الإنسانى للحقيقة، فى صورة أى مجموعة من خبراتنا الإنسانية المتعلقة بالمنفعة الشخصية ؟

دعونا نعرض لحالة اختبارية، أى حالة تساعدنا على فهم ماذا نقصد بالحقيقة، أو مفهوم الحقيقة. ولنفرض أن ظهر شاهد من الشهود على منصة الشهادة، واعترض على قول قسم الشهادة، أو قسم قول الصدق المعتاد، لمشاعر خاصة، ولأنه براجماتى حديث العهد، ولديه تعريف رائع جديد للحق، ولن يقسم إلا طبقاً لهذا التعريف. ولنفرض أيضاً أنه منح الحرية الكاملة، فى التعبير عن قسمه، بالطريقة التى يرتضيها ودعه يقول، مستخدماً تعريف زميلى للصدق : " أتعهد بأن أقول كل ما هو نافع،

ولاشيء إلا ما هو نافع، ولتساعدنى الخبرة المستقبلية " والآن دعنى أسألك " هل تعتقد أن الشاهد، قد عبر تعبيراً كافياً، عن طبيعة الحقيقة، التى نتمنى أن يقولها الشاهد ؟ طبعاً إذا كنت براجماتيا تقليديا قد تسعد بالفعل، لسماع شهادته على منصة الشهادة، أو فى أى مكان آخر. ولكن هل تقبل نظريته ؟ وتعريفه للحقيقة ؟

ولكن دعونا نكون أكثر تحديداً، خاصة بالنسبة للشهادة، والموضوع الممكن لها. وسوف أستخدم الحالة المشهورة التى عرضها كانط. فلنفرض أن شخصاً مات، وقد ترك بالفعل مع الشاهد مبلغاً من المال، بصفة وديعة سرية، يمكن استردادها فى أى وقت، ولم يتم تسجيل أى عقد بين الطرفين، بالوديعة أو بشروطها، ولا يوجد أى مستند، يمكن به مواجهة إنكار الشاهد للوديعة، واحتفاظه بالمال، والأسئلة التى يتم توجيهها للشاهد جاءت متعلقة برأيه فى المتوفى، وكان من بينها بعض الأسئلة التى تدور حول ممتلكاته، وما يعرفه الشاهد عنها، والآن إذا قصد فعلاً، أن يخبرنا، عن موضوع الوديعة. هل تتبع فقط منهج النظرة المستقبلية، الذى قال به زميلى البراجماتى؟ يقصد فقط، أن يتنبأ، بنفعية نتائج معينة، يتوقعها لنفسه، أو لمن لهم حق الإرث فى الوديعة ؟ بالطبع، سيكون لشهادته نتائج. ولكن أهى فعلاً، التى يحاول التنبوء بها؟ أتشكل هذه النتائج موضوعه الحقيقى ؟ أو أن صدق شهادته، يحقق نفس النفع، إما لنفسه أو للورثة، بالنسبة لأى نتائج، قد تنتج أو تترتب على شهادته؟ هل تعنى حقيقة أو صدق شهادته بالنسبة للوديعة، مجرد الواقعة التجريدية الحاضرة، التى يعتقد فيها وفى صحتها أو التى يجدها متطابقة مع النتائج التجريبية لذكرياته الحاضرة ؟ كلا، لأن الشاهد، لا يحاول فقط مجرد كشف ما يشعر به، إنما يحاول أن يخبرنا عن الوديعة، أو يقول الصدق عنها. واعتقاد الشاهد، ليس هو حقيقة أو مصداقية اعتقاده، وحتى ما يجول فى ذاكرته، ليس هو الحقيقة التى يقصد أن يشهد بها. ولا تكون النتائج المستقبلية المترتبة على صدق شهادته، ترتبط أو تتصل مباشرة بالشاهد، طالما أن القانون والورثة، هم المسئولون عن تحديدها. إن المقصود هنا أن نعرف حقيقة محددة وكاملة من صدق شهادة هذا الشاهد، وهذه الحقيقة، لا يمكن التعبير عنها بالمنهج الذى يطبقه زميلى. إن الحقيقة هنا، مجرد حقيقة بسيطة، عن الخبرة الشخصية الماضية والخاصة للشاهد.

والواقع أن هذه الحالة، تعد واحدة من عدد لا يحصى من الحالات، التى نحاول فيها قول الحقيقة عن شيء، ننظر له جميعاً، على أنه فى حد ذاته، موضوع خبرة حسية حقيقية، ولا تعنى أبداً " أنه من المفيد أو النافع لى الآن أن أفكر فيه " ولا " أتنبأ بكذا وبكذا من النتائج التى تحدث خبرتى الشخصية أو فى خبرة مستقبلية لأى فرد آخر، وأن هذه النتائج المتنبأ بها تشكل مصداقية أو حقيقة أى حكم حاضر ". أقول إن هناك حالات لا تحصى، تكون الحقيقة التى نقصدها، حقيقة تجريبية بالفعل، ولكنها تتجاوز وتتعالى عن كل المنافع والنتائج الشخصية. ونفس الحكم، بأن " الخبرة الإنسانية، بوصفها كل مجموع الوقائع، خبرة موجودة ". وكلنا نعتقد فى هذا الحكم وإن يكن هذا الحكم حكما صحيحاً، فإن كل العلم الطبيعى، المؤسس على الخبرة المشتركة لمجموعة من الملاحظين، يتبخر فى الهواء، ويتلاشى حسنا المشترك، والمجتمع والأعمال كلها أوهام، والولاء للقضايا لا معنى له. ولكن إذا كنا نعتبر القول بأن " الخبرة الإنسانية، أى مجموع أو جملة خبرات الكثيرين من الناس، خبرة موجودة "، يعد قولاً صحيحاً. إلا أنه لم يتيسر لأى فرد منا، التحقق من صحته، فى الماضى أو فى الحاضر، أو حتى فى المستقبل. لأنه ليس هناك أى فرد يستطيع أن يحيا تجربة أى فرد آخر. ومع ذلك ننظر كلنا لهذا الحكم على أنه صحيح.

قد يقول زميلى، كعادته دائماً، إن حكمه. أو قوله، يعد واحداً من الحالات العديدة لعملية التعامل بالآجل، التى يستشهد بها دائماً. فلايجب التحقق من حكمه وإنما نقبله بوصفه قابلاً للتحقق فى الآجل البعيد. ولكن التشبيه بالتعامل بالآجل هنا، يعد تشبيهاً خطيراً، طالما أدرك المرء أن التحقق الذى يقوم بالدفع الفورى، يكون دفعا فى صنيعة خبرة إنسانية، تتعلق بك أو خبرتك وخبرتى. لأن الحكم أو القول " وجود خبرة لكثير من الناس "، حكم لا يقبل التحقق أساساً فى خبرة أى فرد واحد. فإذا كانت القيمة الفورية، تعنى إمكانية تحققها، من قبل أى فرد واحد، فإن عملية الآجل، لا يمكن أن تكون صحيحة أى لا يمكن تحويلها إلى قيمة فورية، بأى عملية مقنعة، أو قابلة للإدراك، فى حياتنا الفردية، وذلك طالما أن فكرة الوجود الحقيقى لخبرة كثير من الناس، تستبعد من خلال تعريفها ذاته، الوجود المباشر لهذه الخبرة لكثير من الناس، فى خبرة أى فرد واحد منهم. إن القيمة الآجلة هنا، تكون مجرد قيمة صورية، طالما أن القيم الفورية، هى القيم التى تظهر فى خبرات الأفراد من الناس، وسوف تعنى مصداقية حكمنا فى هذه

الحالة، أننا قد وجدنا من النافع، أن نعامل ما لانستطيع التحقق منه، على أنه قابل للتحقق. وبذلك نتعامل هنا طبعاً بنظام من العملة، التى ليس لها أى قيمة فورية. إن من يستطيع التحقق من وجود واقعة وجود خبرة كثير من الناس " لابد أن يكون كائناً أشمل فكراً من الإنسان، اتحاداً لحياة عدة أفراد، أو أناس فى خبرة واحدة مركبة. وإذا كانت القيمة المؤجلة للحكم بوجود العديد من الناس، قابلة للدفع الفورى، فإن هذا المقابل النقدى لها، لن يكون فى خبراتنا الإنسانية الخاصة، المتغيرة من لحظة لأخرى، وإنما فى عالم، تكون فيه خبراتنا الماضية والحاضرة والمستقبلية، حاضرة وموضوعاً لفكر شامل، ثابت، وأبدى. ولقد استفادت العلوم الطبيعية الآن، من الاقتناع بوجود خبرة العديد من الناس، أو ما يسمى بمجمل الخبرة، وليست المسألة مجرد فكرة من اختراع الفلاسفة .

قد يجيب الزميل بأنه، قد بات واضحاً الآن، أننا، أنت وأنا، نعتقد فى وجود العديد من الناس، وبوجود الخبرة الإنسانية المجملة، لأننا، قد وجدنا من طول الخبرة وعلى المدى الطويل، تطابق هذا الاعتقاد بالفعل، مع خبرتنا الشخصية الخاصة والمباشرة، ولذلك يعد فكرة نافعة لنا. ولكن أجيب مؤكداً بأن الفهم العام، قد يشعر بالفعل، من آن لآخر، بأن هذا الاعتقاد نافع حقاً، ولكنه يميز دائماً بوضوح بين النفع والحقيقة التى ينسبها لهذا الاعتقاد. وهذا التمييز هو نفس التمييز الذى أوحى به المثال المفترض عن شهادة البراجماتى على منصة الشهادة قد أوافق أو لا أوافق أو قد أشك، فيما قلته أو فى الرأى الذى تعرضه، ولكن فى جميع الأحوال، آخذه على محمل الجد، لأنه قول بالغ الخطورة والأهمية. أما إذا قلت " لقد اكتشفت أن هذا الاعتقاد، يبدو ملائماً لى " فأنت قد وضحت لى، مجرد لمحة عن حياتك الخاصة الماضية، ولم تخبرنى عن أى حقيقة أخرى، غير حقيقة حالتك الشعورية الحاضرة. فإذا ما أكدت تعبير زميلى بأن الحقيقة ترتبط بالنفع، لأنها أثبتت أنها تكون نافعة " على المدى الطويل، أو البعيد ". أسألك مرة أخرى " متى يستطيع الإنسان أن يعرف كل الوقائع الحقيقية لهذا " المدى الطويل " للخبرة ؟ هل فى بداية هذا المدى البعيد حيث لم ينته بعد، أم فى نهايته، حيث ننسى دائماً، مثلما يحدث لكبار السن، ما كان مفيداً ونافعاً فى شبابنا ؟ ماحقيقة هذه الخبرة الطويلة ؟ أهى لحظات النشوة التى يظهر فيها كل شئ أحبه، على أنه حقيقى وصحيح، أم لحظات خيبة الأمل واليأس، التى أعلن فيها، بأنى دائماً سيئ الحظ ؟ إن

الاعتماد على "خبرة حقيقية بالمدى البعيد" يعنى الاستناد على نظرة شاملة مثالية معينة لكل حياتى الخاصة .. نظرة شاملة، لن أستطيع الحصول عليها، فى خبرتى الإنسانية الخاصة. إن أى كائن يكون لديه نظرة شاملة لكل حياتى، يرى فيها، على المدى البعيد، ما يكون نافعاً بالنسبة لى .. أقول، إن أى كائن يحصل على هذه النظرة الشاملة، إن كان هذا الكائن موجوداً بالفعل .. يكون كائناً وعيه أعلى من الوعى الإنسانى، أو مجاوز لوجود الانسان. لأنه يرى كل أفكارى وتحققاتها وبالأخص المعنى الحقيقى لحياتى.

إذن من العبث، أن يكتفى المرء بتعريف كل ما نقصده بالحقيقة، شعورنا ومشاعرنا الإنسانية بالمنفعة، أو شعورنا بالفرصة ومتعة النجاح، أو تعريفها بأى نوع من أنواع التحقق، الذى ينهار بمجرد انتهاء الحكم أو اللحظة. أو بمجموعة من التحققات التى تفنى وينتهى تأثيرها، بمجرد استخدامها. فأى موضوع منها، مجرد جزء ونحن نريد الكل. إن الحقيقة قضية فى حد ذاتها، ولابد أن نعترف بأنها قضية كبيرة، وفوق طاقتنا الانسانية، وحياتنا المحدودة، وقد اعتبرناها فى المحاضرة السابقة، قضية ميئوساً منها فكيف يستطيع هؤلاء البراجماتيون، تصور شىء لا قيمة له، ويضعونه بأنه حقيقى، بينما هو مجرد منفعة سريعة الزوال ؟ إن بحثنا عن الحقيقة، يعد عملاً وسلوكاً عملياً بالفعل، ويعنى تحصيل الحقيقة والنجاح والتحققات التى نحصل عليها، أجزاء لحظية من هذا النجاح. ولكن النجاح الذى نطلبه، نجاحاً أخلاقياً، وبالتحديد من النمط الذى يسعى إليه أصحاب الولاء، عندما يسعدون بالتضحية بكل شىء من أجل قضيتهم.

- ٦ -

ربما تتشوقون الآن، لتعرفوا كيف نستطيع الحصول على أى ضمان، للقول، بأننا نعرف أى حقيقة معينة، أياً كانت. إننا لا نسعى عن بحثنا عن الحقيقة لتحقيق مجرد نجاحات زائلة فى لحظات حياتنا، إننا نسعى، لمدنية تنأى عن الأنظار. والنجاح الذى نحظى به فى خبراتنا العابرة، نقدره ويمثل قيمة عقلية بالنسبة لنا فقط، بسبب اعتقادنا بأنه جزء من نجاح شامل ودائم، يكون متحققاً فى صورة خبرة أعلى من خبراتنا ـ

نظرة شاملة تتحد بها خبراتنا الإنسانية وتكون مشاركة فيها ولكن ما الضمان الذى لدينا، لصحة هذا الاعتقاد ؟

وأود أن أوضح لكم، كيف أفهم هذه الحالة. نحن نحتاج وحدة الحياة. وتتمثل البراجماتية التى أومن بها فى التعرف على هذه الحاجة. ولكن، لا نجد أبداً هذه الوحدة حاضرة فى خبراتنا الإنسانية إلا فى صورة جزئية، ونحصل على لمحات عن وحدة أعلى. ولكن لما كانت الوحدة الجزئية، يمكن أن تتحقق فى أى لحظة من لحظات حياتنا. فإننا نستطيع تشكيل أفكار .. أفكار قد تكون خاطئة .. عن وحدة معينة للخبرة، وتشبه فكرتنا عن أى علم، أو أى فن، أو أى جماعة، أو أى مجتمع محدود، أو عن أى قضية أخرى، أو أى اتحاد آخر لمجموعة من الخبرات لمجموعة من الناس. الآن، إذا كانت أفكارنا فى أى حالة من الحالات صادقة، فإن مثل هذه الوحدة، تكون واقعة معاشة بنجاح فى مستوى أعلى من مستوانا، وخبرة حية فى حياة، أى نظرة شاملة للحياة، يتحقق فيها ما نحتاجه، وتوافق على ولائنا، وتشبع إرادتنا العاقلة، وتحوى فى مجموعها أو كليتها كل ما نحتاجه، وكل ما نسعى إليه. وحينئذ نحيا نحن أنفسنا، وكل أفكارنا، ومساعينا، و أعمالنا فى هذه الحياة، فى نفس الوقت نستمد حياتنا منها. ولكن لنفرض أن أفكارنا عن هذا البناء لهذه الوحدة العليا، كانت أفكاراً زائفة، أو خاطئة كلها أو فى بعض من تفاصيلها. ولنفرض، أيضاً، أننا قد نظرنا نظرة خاطئة، لأى قضية من القضايا التى نؤمن بها، فإنه ما يزال هناك وجود حقيقى لمجموعة من الوقائع، التى نعرفها الآن، وندرك من خلال ملاحظتها، زيف وخطأ أفكارنا الخاصة بها، إذن لا نستطيع معرفة زيف أى فكرة من أفكارنا، إلا إذا كانت هناك خبرة معينة، ووعى بنسق معين من الوقائع. ولذلك فى هذه الحالة الواقعية للوقائع، وهذا التكوين للعالم الحقيقى، مهما كانت بنيته، يجب أن يكون موجوداً وجوداً واقعياً، مثلما يكون فى نفس الوقت جملة شاملة من وقائع الخبرة، وفكر شامل يحويها كلها.

لذلك يكون لدينا بالفعل، على الأقل فكرة واحدة صحيحة وصادقة، وبالتحديد عندما نقول : "إذا كانت وقائع العالم كائنة وموجودة على ما هى عليه، فإن العالم الحقيقى يكشف أخطاءنا ويجعل للأخطاء وجوداً واقعياً ". وعندما نقول هذا، فإننا نعتمد مرة أخرى، على نظرة شاملة أو مجمل للخبرة، يحتوى خبراتنا من ضمن محتوياته.

لأنى لا أكون مخطئاً، إلا إذا كانت أفكارى الحاضرة، عن الوقائع الصحيحة لكل عالم الخبرة، لا تتطابق مع المعانى، التى أحاول، أنا نفسى، نسبها لهذه الأفكار، فلا تكون أفكارى خاطئة، إلا إذا كانت الخبرة التى أقصد الإشارة لها، والاعتماد عليها، تحوى ضمن محتوياتها الشاملة التى أدركتها الآن إدراكاً خاطئاً. إذن فى جميع الحالات، تكون الحقيقة مملوكة بالتحديد لهذا الكل من الخبرة، الذى لن أستطيع الحصول عليه أبداً، والذى يعتمد عليه حتماً، زميلى، عندما يتحدث عن " المدى البعيد الطويل " أو عن الخبرات الإنسانية عامة.

إذن مهما كانت صحة أو كذب أى معتقد من معتقداتى الخاصة عن هذه أو تلك الواقعة فإن العالم الواقعى، الذى يفند أفكارى الحاضرة الزائفة، طالما أنها تتعارض مع مجموعه وكليته، والذى يؤكد صحتها، إذا نجحت فى تكوين علاقات واضحة مع وحدته، أقول، إن هذا العالم الواقعى، يكون المجمل أو النظرة الشاملة لكل الخبرة، أو للخبرة كلها. وهذا الكل للخبرة، يكون على صلة وثيقة بحياتى العملية، وبالتحديد طالما كان هدف حياتى، الدخول فى وحدة مع العالم كله، وبالتحديد طالما كان العالم نفسه، هو فقط هذه النظرة الشاملة لكل الخبرة، أو مجمل الخبرة، التى نسعى جميعاً لمعرفتها، وتحقيقها عندما نسلك أو عندما نتحدث.

ولكن هذا الكل الحقيقى لمجمل الخبرة، والنظرة الحقيقية لمجموع الحياة، والتعبير الحقيقى عن إرداة الحياة فى هذا الكل ولأجله، التى يعبر عنها كل حكم بالصدق، وكل فعل مخلص .. لابد أن يكون محملاً، وكلاً، لكل الوقائع، كما هى موجودة بالفعل، فى الماضى أو الحاضر أو فى المستقبل. وأعتبر هذا الكل للخبرة حقيقة أبدية. ولا أقصد بها، وكما يتصور زميلى، أن هذا الأبدى كان موجوداً فى البداية وأن حياتنا فى الزمان تأتى محاكية لهذا النظام الأبدى، وإنما أعنى ببساطة، شمول هذا الكل للخبرة لكل الأحداث الزمنية، ويحتوى فى داخله على كل التغيرات، وأنه طالما هو الكل الواحد، الذى نريده كلنا ونحتاجه، ينجح فى إكمال كل المحاولات الناقصة، والفاشلة، ويقبل كل محاولاتنا. حتى العشوائية فيها، ويحقق مسعانا ويحظى بطلبنا ونسعى إليه. ولذا يكون اكتسابه والظفر به، مكسباً خيراً، وذا قيمة عملية.

ولكن إذا ما سأل سائل، كيف عرفت كل ذلك؟ أجيب قائلاً : لقد عرفت ببساطة، أن

محاولة إنكار وجود وواقعية الكل للحقيقة، يعنى ببساطة إعادة إثباته مرة أخرى. فقد تكون أى فكرة من أفكارى خاطئة. وقد يكون أى فعل مخلص فاشلاً، أو أى قضية قد تصبح من وجهة نظر إنسانية، قضية ميئوسًا منها وفاشلة. ولكن أن ننكر وجود الحقيقة أو وجود العالم الواقعى، يعنى ببساطة، أنك كما لو كنت تقول، إن الحقيقة الكلية، هى أنه ليس هناك حقيقة كلية، وأن الواقعة الحقيقية هى أنه ليس هناك أى واقعة حقيقية على الإطلاق. فمن الواضح أن مثل هذه الأحكام متناقضة. ومن جهة أخرى، إننا نعنى بمصطلح العالم الواقعى الذى حددته لنا حاجتنا الفكرية، كل الخبرة التى نحيا فيها والتى ننجح فى الوحدة معها .

إذن للولاء ميتافيزيقاه. ويتم التعبير عن هذه الميتافيزيقا فى رؤية الأشياء، يتم خلالها، إدراك خبرتنا، بوصفها مرتبطة بوحدة حقيقية بكل خبرة .. وهى وحدة خيرة، تحقق فيها أفكارنا، معناها الحقيقى ونجاحها. وتعد هذه النظرة، نظرة صحيحة، لأنه إذا أنكرت حقيقتها فإنك تعيد إثبات نفس الحقيقة، فى صورة جديدة .

وفى نفس الوقت تعنى الحقيقة، كما تقول البراجماتية، إشباعاً لحاجة معينة. ولكننا نحتاج جميعاً لوجود أعلى من وجودنا، للمدنية التى لا تدركها الأنظار، للوحدة مع كل الحياة .. أى للأبدى، وهذه الحاجة، ليست من اختراع الفلاسفة، إنها الحاجة، التى يحسها كل أصحاب الولاء، سواء كانوا على وعى بها أم لا، وسواء كانوا براجماتيين أم لا. إن تعريف هذه الحاجة، كما فعل أنصار البراجماتية المحدثين، ورد الحقيقة أو الحق إلى المنفعة، يعنى الصراخ بحثاً عن القيمة الفورية فى عالم، لا توجد فيه قيم فورية من النوع الذى يحتاجه أصحاب الولاء ، أو الذى يفترضه كل بحث علمى افتراضاً مسبقاً، أو الذى لا تقدمه إلا وحدة خبرات جميع الأفراد فى وحدة واحدة.

وإذا كان لنا إدراك البراجماتية الحديثة فى صورة مؤسسة تجارية – وهو تشبيه دائماً ما يستخدمه زميلى – فإنى أكون ملزماً بتلخيص موقفها كما يلى : أولاً، بصراحة واضحة، إنها تعبر وتعترف بالإفلاس، طالما أن المسألة، تحتاج دائماً للدفع الفورى للحقيقة الواضحة. ثانياً إنها تتجه إلى التغير باستمرار طالما لا تميل إلى أى شئ، يبدو مطلقاً. ثالثاً إنها تقترح ببساطة، وبلغة واضحة، الاستمرار فى ممارسة أعمالنا، طبقاً لمذهب الحقيقة القديم، أو النظرية القديمة، فنقول " ومع كل ذلك، ألسنا

جميعاً، وكل واحد منا، مولع بالقيم الآجلة؟ "

ولكن فى الواقع، لا أستطيع أن أتصور أن يكون موقف أصحاب الولاء ، موقفاً مرتبكاً ويائساً كهذا الموقف. والواقع أن البراجماتيين المحدثين أنفسهم، يعدون من الناحية العملية، من أشد المحبين المخلصين للحقيقة العميقة. ولكن التعبير الصحيح، قد خانهم - فحقيقة نحن لا نعلم إلا القليل. ولكن أعتقد أن من يحيا حياة الولاء ، سواء كان من أنصار البراجماتية الحديثة أم لا، يحق له أن يقول : إن طبيعة قضيتى من طبيعة الحقيقة الوحيدة والواقع الموجود. إن حياتى، عبارة عن محاولة لتوضيح، وإظهار هذه الحقيقة الأبدية، بقدر الإمكان، فى سلسلة من الأفعال الزمنية. قد لا أخدم قضيتى خدمة صحيحة. وقد أخطأ فى إدراكها وقد أفقدها، وسط خبرات الحياة وعالم الخبرات المتغيرة. قد لا يحقق فعلى الإنسانى غايته أو يخطؤها. وقد تبدو حياتى سلسلة من الأخطاء. ولكنى أعلم أن قضيتى تحيا، وحياتى الحقة، تحجبها القضية وتنتمى للأبدى .

المحاضـــرة الثامنـــة

الـولاء والـديـــن

إذا كنا قد بدأنا هذه المحاضرات، بوضع تعريف ناقص للولاء، وفى المحاضرة السابقة قد وضعنا الأساس لتعريف جديد للولاء، فإننا فى هذه المحاضرة، نحاول تطوير هذا التعريف، واستنتاج النتائج المترتبة على علاقة الولاء بالدين. وقد يتطلب كلا العملين، نوعاً من التطوير لنظريتنا فى المعرفة .

- ١ -

لقد سبق أن قلنا بصورة عامة بأن الولاء هو التفانى الإرادى والمستمر من فرد ما، تجاه قضية معينة. وعرّفنا القضية بأنها شىء يوّحد كثيراً من الحيوات الانسانية فى حياة واحدة. وكان مرادنا من وضع هذه التعريفات، هدفاً عملياً أساساً. فلقد قصدت فلسفتنا عن الولاء أن تكون فلسفة عملية، واستخدمنا تعريفًا، لمساعدتنا على كشف غاية الحياة، والخير الأعلى الذى تستطيع الكائنات الإنسانية تحقيقه لنفسها. ولقد وجدنا، بالفعل، أن هذا الخير، يبدو متناقضاً. فلقد كان خيراً، يتم من خلاله التضحية. ثم طورنا المفهوم، إلى الولاء للولاء، وعرفنا أن بمثل هذا التعريف، وبتحديد القضية، التى تستحق كل ولاءات الناس، نستطيع توحيد وتبسيط القانون الأخلاقى التقليدى، وتحقيق كل المطالب العادلة لأخلاق فردية عاقلة، ونترك لكل إنسان حقه وواجبه، قضية خاصة بحياته الشخصية وفى نفس الوقت، نستطيع، وضع المثل الأعلى لانسجام كل القضايا الإنسانية فى قضية واحدة تشمل الكل. وبناء على هذا الأساس، نستطيع أيضاً، وضع نظرية فى الضمير.. نظرية ترى الضمير بوصفه سلطة عقلية وعامة وكلية، وفى نفس الوقت بوصفه، فردياً فى التعبير عن حياة كل إنسان، وهكذا يظل ضمير كل فرد، خاصاً به، وسره الخاص وإن كان لا يعرف مكنونه، وفى نفس الوقت، تكون غاية ضمير كل فرد، وعمله الأساسى، بلا شك، توجيه هذا الفرد، لكى يجد مكانه المتفرد فى

النظام الأخلاقى الكلى العاقل.

وبعد هذا مباشرة وضحنا نظريتنا عن الولاء، بتطبيقها على دراسة لبعض مشكلاتنا الوطنية، ثم بلغ التطبيق العملى للولاء ذروته، فى وضعنا لنظرية تتعلق، بطبيعة التدريب على الولاء، هنا ظهر لنا التناقض الحاد مرة أخرى. فلا يتحقق الولاء بالتضحية فقط، إنما بالعمل الشاق المؤلم، ومن مرارة الهزيمة. فلقد أثبتت القضايا التى بدت خاسرة وميئوساً منها فى التاريخ، أنها أكثر القضايا خصوبة وحياة. وباختصار، يتم التدريب على الولاء بوجود القادة الشخصيين وبتحويل قضايانا إلى مثل عليا، هذه القضايا التى تتغذى على النكبة والبؤس، وتتوهج بالموت والتى تجعلها الهزائم، أكثر وضوحاً، والمثل الأعلى المرغوب.

وتبين كل هذه النتائج، أن الولاء من إحدى خصائصه، أن يخدمنا من تفسير الخير الحقيقى له، فى حدود خبراتنا الإنسانية. فقط يكشف الإنسان بالفعل، وفى حدود خدمته الشخصية الخاصة، إن الولاء يشكل قدره الأخلاقى وبدونه لن ينعم بالسلام . وبمجرد امتلاك الولاء لقدراته الفعالة، قد يشعر بأنه قد حل لنفسه، مشكلته الشخصية المتعلقة بوجوده وبالغاية من حياته. ولكن بالرغم من هذا ، يظهر الولاء فى الحياة الفردية، فى صورة غامضة إلى حد كبير. إنه يقول للإنسان " إن خيرك الحقيقى، لا يمكن أن تحصل عليه، أو يتحقق، فى ظل خبرتك الإنسانية الحاضرة، تحققاً كاملاً. وأفضل ما يمكن أن تحصل عليه. يكمن فى الاستسلام الذاتى، وفى يقينك الذاتى، بأن القضية التى سلمت لها نفسك، قضية خيرة بالفعل. ولكن إذا كانت قضيتك بالفعل، قضية موجودة وواقعية، وخيرها لا يستطيع فرد واحد، أو حتى مجموعة من الأفراد تحقيقه. فإن هذا الخير الخاص بالقضية، يعد أساسا خيراً روحانياً، حتى وإن كان إنسانى التجسد. وذلك لأنه ينتمى لوحدة بين مجموعة من الأفراد، ولكل الحياة الإنسانية، التى تتعالى فوق كل حياة فردية وتسمو فوقها، والتى لا يمكن أن توجد بوصفها شيئاً ينتمى لأى مجموعة من الناس لذلك إن خيرك الأعلى، يكمن فى النظر إلى القضية، على أنها موجودة وواقعية وخيرة، وإذا ما اختفت القضية من عالمنا الإنسانى، عليك أن تتمسك بها، لأنها مازالت تحيا فى عالمها الخاص .. وإن كان بالفعل ليس عالماً منفصلاً عن الحياة الإنسانية، إلا أنه يشكل، أو يأخذ صورة تحقيق

العديد من الحيوات الإنسانية فى حياة واحدة "

ومن الواضح أن هذا الحديث الغامض عن الولاء، لا يتضمن فكراً أخلاقياً فقط، وإنما يتضمن جانباً ميتافيزيقياً أيضاً. والواقع أن الاعتبارات العملية البحتة والدراسة لحاجتنا الإنسانية، والبحث عن الحياة العملية المثالية، كلها تؤدى بنا حتماً، إلى مجال ليس بالقطع قاصراً على عالم الأنشطة الأخلاقية. وهذا المجال إما أن يكون مجرد وهم من الأوهام أو الكيانات الروحية الكائنة فى مستوى أعلى من مستوى خبرتنا الانسانية الفردية الحاضرة .

ولقد بدأنا فى المحاضرة السابقة، فى دراسة هذا العالم الأكبر من الوحدات الروحية، التى لابد أن تكون واقعية، إن كان ولاؤنا لا يقوم على الوهم. وحاولنا وضع نظرية عامة فى الحقيقة، توضح لنا أن وجود هذه الوحدات الروحية وجود واقعى، ويتم افتراض وجودها بصورة مسبقة قبل كل محاولة نقوم بها لتعريف وتحديد الحقيقة. لذلك تحولت نظريتنا الأخلاقية إلى مذهب فلسفى عام، وظهر لنا الولاء، ليس بوصفه مجرد مرشد فى الحياة، وإنما بوصفه كشفاً عن علاقتنا بالعالم، وجدنا أنفسنا ملزمين، بتعريفه بأنه عالم أبدى ووحدة شاملة لكل حياة روحية.

ولقد أطلقنا على عالم هذه الحياة الحقة، والخبرة المتحدة والأصيلة، هذا العالم الذى، إذا صح تفسيرنا فى المحاضرة السابقة، وجاء منطقياً يشمل حياتنا، ويضمها للكل، الذى يكوّن العالم الواقعى أقول إن هذا العالم، عالم أبدى لأنه ببساطة وطبقاً لنظريتنا، يحوى كل الحوادث الزمنية والمساعى فى نظرة عامة لدى وعى واحد، ويحقق كل غاياتنا وأهدافنا العقلية جميعها، ويشكل الصورة التى نرغبها جميعها، أو الوجود الذى نسعى جميعاً إليه. لأن كما قد وضحنا من قبل، هذا العالم الواقعى يكون واعياً، ومتحداً، ومعتداً بذاته، وكاملاً من خلال كثرة التضحيات المثالية، وأفعال الولاء المتباينة، التى توحدت جميعاً، لكى تحقق وجوده الكامل، وتشكل كيانه. والآن، وفى ضوء هذه الفلسفة التى قد تشكلت، أقترح تعريفاً جديداً للولاء، وأستطيع القول بأنه قد نتج من دراساتنا السابقة كلها، إن الولاء هو الإرادة، أو الرغبة فى إظهار الأبدى، قدر الإمكان، أى الوحدة الواعية الشاملة والمطلقة للحياة، فى صورة أفعال، يقوم بها إنسان، أو ذات فردية. أو، إذا فضلت أن تنظر للموضوع من وجهة ذات إنسانية فردية

وكنت مصراً، على النظر للعالم، كما نعرفه ونجده فى خبراتنا الفردية العادية، واعتبرت المذهب الميتافيزيقى، الذى عرضته، مجرد نظرية مثالية للحياة، وليست فلسفة عقلية قابلة للبرهان، فإنى لازلت قادراً، على التمسك بتعريفى للولاء، باستعارة عبارة مشهورة، من عبارات الصديق والزميل العزيز، الذى عارضته واختلفت معه فى المحاضرة السابقة. وأستطيع إعادة عرض تعريفى الجديد للولاء، بعبارات بسيطة ومباشرة، فالولاء هو إرادة الاعتقاد فى شىء أبدى والتعبير عن هذا الاعتقاد فى الحياة العملية لكائن إنسانى.

أقول، إن هذا تعريفى الجديد للولاء فى صورته الميتافيزيقية، فدعونى أزيده إيضاحاً وأبين بنوع من التفصيل، كيف جاء نتيجة مباشرة لبحثنا.

- ٢ -

وبالرغم من متابعتكم واهتمامكم، بما قد عرضته فى المحاضرة السابقة، إلا أنى متأكد من أن الشكوك قد ساورت البعض منكم، حول نظرية الحقيقة والواقع، والتى تتعارض مع نظريتى السائدة للبراجماتية الحديثة، والتى جعلتها أساساً لتعريفى الأخير للولاء. ولئن قد بدأت نظريتى من خلال الجدل، مع وجهات نظر زميلى وآرائه الحديثة بالنسبة لطبيعة الحقيقة، إلا أن الجدل دائماً ما يخفى تقديرنا لبعض جوانب المسألة التى نتجادل حولها، حتى وإن كان يساعدنا على التأكيد على أهمية جوانب أخرى ولذا دعنى أوضح الآن، وبعيداً عن الدخول فى جدل مع النظريات الأخرى، التى تناولت الحقيقة، الدافع الرئيسى، الذى دفعنى للنظر للعالم الواقعى، تميل هذه النظرة التى قد عرضتها، ولماذا أفترض أن هذه النظرة للعالم، تساعدنا على فهم أفضل لعمل وقيمة الولاء .

إن الذين يؤمنون بهذه الصورة أو تلك لهذا الوجود الروحى المجاوز لوجودنا، والذى له هذه الدلالة الهامة، دائماً ما يسألون عن كيف يصبح إيمانهم، إيمانا واضحا ويكون أقرب للبصيرة الواضحة. أيبحثون عن الأدلة على صحة هذه أو تلك القصة الخارقة للطبيعة؟ أم يبحثون بأنفسهم عن هذا الخارق للطبيعة فى خبراتهم الشخصية؟ وهل يمكن أن يوضح البحث "السيكولوجى" أسرار هذا الوجود؟ أو ربما عن طريق

بعض أنواع التدريب الصوفى الخاص، يمكن الكشف عن الحقيقة الأعلى؟ ما هو الطريق، الذى يقودنا تجاه العالم الروحى؟ ولذلك يحاول الذين يشكون فى وجود مثل هذه الوقائع والحقائق العليا، أن يتخلصوا من هذه الشكوك إما باللجوء إلى الفنون السحرية لحد ما، أو للخبرات الشخصية غير العادية، أو من خلال التحولات الصوفية فى حياتهم الخاصة والشخصية.

والآن وبغض النظر عما يقال عن المعجزات، والكشوف الصوفية، فمن الطبيعى أن تهتم فلسفتنا عن الولاء، بتوضيح الطريق للعالم الروحى، إذا ما كان هناك بالفعل مثل هذا الطريق – أى، طريق، يكون له صلة واضحة بحياتنا الأخلاقية اليومية، ويبدو لى، أن هناك بالفعل عالماً روحياً حقيقياً، وأن هناك وسيلة للبحث، يمكن أن تقودنا من مثل هذا الإيمان العملى فى العالم الأعلى، الذى يجسده الولاء فى أفعاله، إلى حدس عقلى بالتكوين العام لهذا العالم الأعلى. ولا أقول إن آرائى حول هذا الموضوع، يجب التسليم بها دون مناقشة، ولا أدعى قدرتى على رؤية، ما لا يستطيع رفاقى رؤيته، أو أحظى بصلة خاصة بعالم علوى، أستمد منه الإلهام والأسرار. ولكن أسألكم بوصفكم، أناسا مثقفين أن تبحثوا فى حياتكم العادية، وبوصفكم كائنات عاقلة، عن الأساس والحقيقة، التى تتطلب هذه الحياة وجودها.

ان ما عرضته فى ختام محاضرتى السابقة، كان عبارة عن رؤية للأشياء، التى قد تتضمنها حسب وجهة نظرى، أى محاولة للتعبير، بطريقة عاقلة، عن أين نكون فى عالمنا .

وأعتقد أن علينا أن نعترف، بأن حياتنا اليومية تعتمد على الاعتقاد بموجودات، ووقائع، نؤمن بصحتها، بالرغم من وجودها خارج مجال خبراتنا الفردية العادية، مثلها مثل أى عالم روحى فنعيش بالاعتقاد فى وجود عقولنا وعقول الآخرين، ونعتبرها وقائع حقيقية. ونقبل تقارير ووثائق وأدلة أخرى عن الحوادث والوقائع الماضية والحاضرة، ونفعل كل ذلك ونحن على يقين بأنها كلها لا يمكن البرهنة عليها، والتحقق منها فى خبرة أى إنسان. والتفسير التقليدى، لمثل كل هذه المعتقدات هو أنها قد فرضت علينا، من واقع ما، يكون – كما يقول الناس – مستقلاً تماماً عن معرفتنا، ويوجد مستقلاً

بذاته عن خبرتنا، ولذلك ربما تكون طبيعته مختلفة تماماً، عن أى أفكار إنسانية أو أى اهتمامات وانفعالات نشعر بها .

ولكن الفلسفة الحديثة - الفلسفة التى تعد البراجماتية مجرد حدث عابر فى تاريخها قد اهتمت بتحليل أساس معرفتنا وبدراسة الغاية التى تقصد معتقداتنا الإنسانية والأفكار تحقيقها وعلمتنا استحالة التعامل مع وجود أو واقع، يكون مستقلاً تاماً. وأعتقد أن البراجماتية الحديثة، وكما أفهمها، تتفق معى فى الرأى، اتفاقاً تاماً. فلا نستطيع التعامل مع عالم، لا يتصل مباشرة بخبرتنا. وإنما المسألة على العكس ، فلقد عرفنا بوجود العالم الواقعى من خبرتنا، وتم تعريفه وتحديده بأفكارنا، ويعد موضوع كل أفعالنا العملية. فى نفس الوقت، الإعلان عن وجود أى شىء واقعى، يعنى الحكم بأن له مكانه فى عالم الخبرة، سواء كانت خبرة إنسانية أو أشمل من خبرة الإنسان. إن الحكم بوجود أى شىء كواقعة أو بواقعية وجوده، يعنى الحكم بأن عبارة ما، تقولها أنت أو أنا، أو أى كائن، فى مجموعة من الأفكار المعقولة، تعد عبارة صادقة وصحيحة. ولا تعد مصداقية العبارات أو حقيقتها، حقيقة ميتة، ولا يوجد شىء مستقل تماماً عن الأفكار والخبرة، وإنما هو ببساطة، الإشباع الناجح لمطلب معين - مطلب تستطيع التعبير عنه فى صورة عبارة ما أو حكم معين والذى يتحقق فقط، عندما يكون هناك جزء من خبرة معاشة، يحوى ما يقابل هذا المطلب. وفى نفس الوقت، كل قضية، أو عبارة، أو حكم، يستطيع الفرد إصداره، يعد فعلاً، وكل فعل عقلى يتضمن فى الحقيقة حكماً بواقعة معينة. فإذا قال الابن " سوف أنهض، وأذهب إلى والدى "، فإنه نتيجة لذلك، يؤكد صحة شئ ما، عن نفسه، ووالده، وبيت أبيه، وإذا قال رائد فضاء أو كميائى، أو عالم إحصاء، أو رجل أعمال " بأن هذه أو هذه واقعة " فإنه كنتيجة لذلك يقوم بفعل ما - فعل له معنى فى الذهن، ويجسد هدفاً حياً، ثم يعلن بعد ذلك، بأن محتوى الخبرة، يمكن أن يجعل هذا الفعل، معقولاً، وناجحاً، وجديراً بأن يقبله أى إنسان.

لذلك، لا يعتبر العالم الواقعى، شيئاً مستقلاً عنا. إنه عالم مادته - محتوياته - من طبيعة الخبرة، وبنائه يناسب، ويصحح ويحقق الضمان لتحقق أفعالنا الايجابية، وتكون كل طبيعته كما لو كانت قابلة للتعبير عنها وتفسيرها، بالأفكار، والقضايا، والمعانى العقلية، بينما فى المقابل، يعطى لأفكارنا الجزئية، ولحياتنا الواعية، المعانى المترابطة والوحدة

الفكرية. وأينما كان لدى أهداف ثم فشلت فى تحقيقها فذلك بسبب عدم معرفتى الطريق الصحيح، للتعبير عن علاقتى بالواقع. من جهة أخرى وبالتحديد كلما أدركت جانباً من الواقع، أكون قد أنجزت هدفاً من أهدافى، وحققت غاية من الغايات التى أسعى إليها.

إذن لا توجد حقيقة نظرية فقط، ولا يوجد واقع خارجى، غريب فى طبيعته عن الخبرة وكل من يحيا بالفعل، كل الحياة الواعية كما ينبغى أن تكون الحياة، وبغاية عاقلة محددة، فمن الواضح أن مثل هذا الكائن يكون كائناً يفوق الإنسان من حيث درجة الوعى، ولا يعرف العالم الواقعى فقط، وإنما يكون هو العالم الواقعى. فكل من يكون واعياً، بكل محتوى الخبرة، يمتلك كل الواقع ويعد كل بحث عن الواقع ببساطة، عبارة عن محاولة لاكتشاف البنية الكلية للخبرة، التى تكون خبرتنا الانسانية، جزءاً منها واكتشاف نسق الحقيقة الذى تحتل حقائقنا الجزئية مكانها فيها، واكتشاف الحياة الواضحة المثالية التى يتحقق فيها كل فعل من أفعالنا وعندما نحاول معرفة أو اكتشاف الوجود الواقعى فإننا نحاول ببساطة، اكتشاف معنى حياتنا الفردية الذاتية. ولا نستطيع معرفة معنى حياتنا، إلا إذا كان هناك حياة واعية، تشمل وتضم حياتنا، وفيها تحقق أفكارنا معناها الكامل وأهدافها. وكل ما نفشل فى تحقيقه تحققاً كاملاً، يكون متحققاً فيها تحققاً كاملاً .

- ٣ -

بمعنى آخر عندما أفكر فى كل عالم الوقائع – العالم الواقعى – فأنا أفكر حتماً فى شىء، هو عالمى الخاص، وبالتحديد، طالما أن هذا العالم، يكون موضوعاً، لأى فكرة معقولة من أفكارى. ولكن عند تشكيل فكرة ما، عن عالمى من الوقائع، لا يعنى، وكنتيجة لذلك، أن أعطى لنفسى الحق، فى هذه اللحظة، فى أن أستخرج من الوعى الداخلى، أى أفكار حاضرة وكافية، عن تفاصيل محتويات عالمى الواقعى. فعند التفكير فى العالم الواقعى، أفكر بالفعل، وأكون مفكراً فى كل نسق الخبرة الذى ترتبط به خبرتى والذى أحتل فيه ، أنا بوصفى فرداً، مكانى المحدود والضيق. ولكن الآن، وفى هذه اللحظة، لا أمتلك أو أعرف هذا الكل. إذ يجب أن أعمل وأبذل الجهد للحصول عليه، ويجب أن أنتظره، وأكون مخلصاً ، وجاهلاً به. لذلك، باعتبارى مخلوقاً حياً، أحيا الزمان لحظة بلحظة، يجب أن أنتظر، بالفعل، الخبرة القادمة. ويجب أن أعتمد قدر إمكانى، على

ذاكرتى المعرضة للخطأ عند محاولة اكتشاف خبرتى الماضية. ولا توجد وسيلة لدى، أستطيع أن أتحقق بها من خبرتك، إلا باستخدام الاختبارات التى تعد أيضاً معرضة لقدر أكبر من الأخطاء التى نستخدمها جميعاً فى حياتنا الاجتماعية. أحتاج لمناهج علوم الخبرة، لدراسة أى وقائع، قد تقع فى مجالها وأستخدم هذه النجاحات اللحظية العملية التى تؤكد عليها البراجماتية، كلما أحاول الحصول على، تحقق محسوس واقعى لآرائى. وهكذا يكون موقفى هو موقف صائب، مثل موقف أى إنسان، أو أى طالب علم، أو أى إنسان جاهل أو متعلم. فأنا إنسان فان ومعرض للخطأ، أحاول أن أجد طريقى، قدر إمكانى، وسط أحراش وأدغال الخبرة .

ومع ذلك، كل حياتى اليومية، ومحاولاتى المتواضعة للتذكر والتنبؤ واستفساراتى الجزئية فى هذا أو ذاك الموضوع العلمى والعملى فى الحياة، واعترافى العملى بوجودكم، بوصفكم وقائع موجودة فى العالم الواقعى للخبرة، وتعريفى الخاص للقضايا، التى أكرس لها نفسى، كل هذه المحاولات التى قد نهملها أو نهتم بها، نرفضها أو نقبلها، تكون ببساطة أجزاء معقولة ومنطقية لمشروع واحد شامل وجامع للكل، ويشكل هذا المشروع المحاولة الإيجابية، التى أحاول أن أكشف بها مكانى الصحيح فى العالم الواقعى. أى المشروع الذى أحاول به اكتشاف مكانى الحقيقى فى العالم ولكن لا أستطيع تحديد وتعريف عالمى الواقعى، إلا بإدراكه فى حدود الخبرة وبلغتها. فلا أستطيع أن أجد مكانى فى العالم، إلا باكتشاف أين خبرتى من كل نسبة خبرة وأين أقف فى هذا النسق. لأن ما أعنيه بوجود واقعة ما، شىء يجده فرد ما. أو يلاحظه فرد معين، وحتى ما أعتبره واقعة ممكنة ليس إلا شىء، يمكن أن يجده فرد ما بالفعل، أى لا تكون شيئاً، إلا اذا كان من الممكن أن يكتشفها فرد ما. والمعنى الذى تكون به، واقعة فعلية يستطيع فرد ما، أن يكتشفها أو يجدها فى خبرته واقعة محددة، هو المعنى الذى يمكن أن يتم تعريفه بدوره فى صيغة خبرة حسية حية وليس مجرد خبرة ممكنة. وفى صيغة إرادة، أو هدف معبر عنه فى حياة واعية. كذلك الوقائع الممكنة، لا تكون ممكنة بالفعل إلا اذا كان هناك بالفعل شئ يمكن ملاحظته واختياره أو يمكن أن يجده فرد ما. إن كل ما هو واقعى، بعيد أو قريب ماض أو حاضر، موجود فى عقلك أو فى عقلى، واقعة طبيعية أو أخلاقية واقعة لخبرة إنسانية ممكنة، أو واقعة لخبرة أشمل من خبرة الإنسان، غرض، أو رغبة، موضوع طبيعى أو موضوع فكرى،

نظام آلى، أو نسق قيمى، أقول .. كل ما يكون واقعياً، يكون واقعياً بوصفه محتوى حاضرلدى كائن واع. لذلك عندما أسأل عن العالم الواقعى، أكون مستفسراً، ببساطة، عن ما هو محتوى الخبرة الإنسانى والأشمل من الإنسانى، الذى يمكن أن يجده بالفعل فرد ما، ولذلك بحثى عن الوقائع مهما كانت هذه الوقائع، يكون حتماً، عبارة عن محاولة، لاكتشاف مضمون خبرة العالم. إذن فى كل إدراكاتى الحسية، وفى كل العلوم، وكل حياة اجتماعية، أحاول كشف الحياة الواعية الكلية، التى تضم محتويات العالم، بوصفها محتوياتها، وتنظر إليها بوصفها خاصة بها .

ولكن ذلك ليس كل قصة مكانى ووصفى فى العالم الواقعى. لأنى لا أستطيع الاستفسار عن الوقائع بدون تشكيل أفكارى الخاصة بهذه الوقائع. وطالما كانت أفكارى صحيحة فإن أفكارى الخاصة، تكون عبارة عن عمليات إيجابية، تتفق مع الحياة الواعية للعالم. وإذا كانت أفكارى صحيحة فانها تنجح فى الاتفاق مع نفس وعى العالم، الذى تحدده. ولكن هذا الاتفاق وهذا النجاح، إذا كان فى حد ذاته، عبارة عن واقعة على الإطلاق، فإنه يكون بدوره أو مرة أخرى، واقعة لخبرة ما ولكن ليس بالطبع، واقعة لخبرتى الخاصة طالما أنى لا أجد أبداً، فى ظل حدود ومجال خبرتى الفردية، النجاح الذى يتطلبه كل بحث عن الحقيقة. إذن إذا حصلت على الحقيقة فى أى لحظة من لحظات حياتى فإن نجاحى لا يكون نجاحاً واقعياً وحقيقياً، إلا إذا كان هناك حياة واعية معينة، تشمل حياتى ومجهوداتى، وتشمل أيضاً، وقائع العالم، التى أفكر فيها، وتلاحظ بالفعل نجاحى، فى صورة نظرة شاملة ومجملة لوقائع العالم، ولجهودى ومحاولاتى لكشفها وتعريفها وتحديدها.

إذن ومجرد كشفى حقيقة العالم، أصبح أنا نفسى، وبوصفى حياة جزئية واعية ضمن محتوى المجمل الواعى لخبرة العالم، وفى وحدة ذاتية واعية مع هذا الوعى العالمى، وأحقق النجاح وأكشف الحقيقة من خلال هذه الوحدة .

ولكن من الممكن طبعاً، أن تكون، أى فكرة جزئية من أفكارى عن العالم، أو عن واقعة من وقائعه، فكرة خاطئة. ولكن الخطأ، يعد فى حد ذاته، موقفاً من مواقفى، وبالتالى يتضمن بالضرورة وبصورة أساسية، نفس العلاقة، التى تكون بين العالم وبينى، فى حالة صواب أفكارى، لأنى لا أستطيع، أن أكون مخطئاً بالنسبة لموضوع

ما، إلا إذا كنت أقصد بالفعل، وبصورة حقيقية، الاتفاق مع هذا الموضوع، وبالطريقة التى تحددها غايتى من هذا الاتفاق .

فلا يمكن أن أفشل أو أخطىء فى أحكامى، إلا بسبب غايتى الخاصة، وما أقصده من هذه الأحكام. ولا أستطيع أن أعبر عن نفسى، فى أحكام قابلة للخطأ، وفى أحكام جزئية إلا بسبب ولائى لعالم الحقيقة كله. ولا يمكن أن أتيقن من نجاحى اللحظى، إلا إذا كان من الممكن اقتناعى، بأنى قد أكون مخطئاً فى أحد هذه الأحكام، أو قد أفشل فى الاتفاق مع هذا الوعى العالمى، الذى أحاول دائماً تفسيره بطريقتى الخاصة. ولكن عندما أفشل. فإنى أفشل فى تفسير مكانى، فى نفس العالم أو وعى العالم، الذى أحاول تعريف حياته وبالتالى يكون فشلى، أينما ومتى يحدث، واقعة بالنسبة لوعى العالم. فإن أخطأت، وكنت مخلصاً، وإذا اعتقدت صواب حكمى، وكنت مخطئاً، فإن الخطأ، يكون واقعه فى وعى ما، يشمل كل محاولاتى الخاطئة فى ولائى للحقيقة، ويرى فى نفس الوقت كيف يفقدون الآن، صلتهم بالقضية الحقيقية. ولكنه يدرك فى نفس الوقت أيضاً هزيمتى المؤقتة ومحاولاتى الجزئية فى الوصول إلى الحقيقة، مكتملة تماماً، ولهم مكانهم الحقيقى فى الوحدة المفردة لوعى العالم. إذن فشلى، مثل كل فشل مخلص، يمثل نوعاً من النجاح. فهو محاولة لتحديد مكانى فى وحدة وعى العالم، لكل الحيوات الواعية. فلا أستطيع الحياة بدونها، ولا الهروب من وجودها، ولا أخطئ، إلا لأن كل أصحاب الولاء، يهبون حياتهم لقضاياهم. إذن، سواء حصلت على الحقيقة، أو أخطأت فى التفاصيل، فإن ولائى للبحث عن الحقيقة، يؤكد حقيقة وحدتى الحقيقية مع الحياة الواعية للعالم .

ولهذه الأسباب، الدعوة بأن العالم "كل" واحد، و "كل" للحياة الواعية، لا يمكن اعتبارها أو الحكم عليها بأنها خاطئة، إلا بإعادة التعبير عنها بصيغة جديدة، وتأكيدها مرة أخرى. لأن أى خطأ من جانبى بالنسبة للعالم لا يكون ممكناً، إلا إذا كنت أقصد تأكيد حقيقة ما، حول العالم، وهذا القصد الحقيقى من جانبى، لا يمكن أن يوجد إلا بوصفه واقعة، فى "مجمل للوعى"، يكون العالم الحقيقى كله موجوداً لديه.

هذه باختصار نظريتى فى الحقيقة. وهذه الأسباب التى تثبت، أن النظرية ليست

مجرد نوع من التخمين الخيالى لمعنى الحق، أو لما يجب أن يكون صحيحاً، وإنما نتيجة حتمية منطقية عن كيف يحدد كل فرد منا عاقلا أو جاهلا، علاقته بالحقيقة، وسواء كان يعرف ذلك الوضع أو تلك النتيجة أو لا يعرفها. ولقد عرضت نظريتى فى المحاضرة السابقة من خلال الجدل مع البراجماتيين المحدثين، ولكن من الواضح أن وجهة نظرهم، فى معنى الحقيقى والعميق، لا تتعارض مع وجهة نظرى، مثلما كانت وجهة نظر الشاب الروسى، فى محاضرتى الثانية، لا تتعارض مع وجهة نظرى للولاء لأن كما تذكرون أن الشاب الروسى، قد نفر من مفهوم الولاء، لأنه كان بالفعل على ولاء شديد، وعلى درجة عالية من الإخلاص. هكذا يكون الحال مع أصدقائى من البراجماتيين المحدثين، يعيدون تأكيد وإثبات صحة نظريتى فى الحقيقة، حتى عندما يحاولون إنكارها. لأن من بين ما يؤكدون، قولهم بأن نظريتهم للحق، نظرية صحيحة بالفعل، وهذا الحكم يتضمن، مثل هذه النظرة الشاملة لكل الحقائق، ومجمل لكل الحقائق.

- ٤ -

لقد تعرفنا على هذه النظرية الخاصة بالحقيقة، فى بداية مناقشتنا، لغاية عملية بحتة. وربما ظهرت النظرية بالغة التجريد وجافة، بهذه الصورة التى عرفناها بها، سبب حاجتنا لمعرفة معنى الحقيقة، ولأننا نريد أن نعرف، ما إذا كان أصحاب الولاء محقين فى افتراضهم، بأن قضاياهم الشخصية، وقضية القضايا، وبالأخص قضية الولاء الكلى، لهم أساس حقيقى. فلقد وجدنا أن الولاء، عبارة عن خدمة عملية لموضوعات مجاوزة لحياتنا. لأن قضايانا تتعالى على الظهور فى حياة الأفراد الجزئية. وإن كانت القضية، قضية حية، فإن كل حياة أخلاقية واعية، حتى حياتنا الإنسانية المتواضعة.. تتحد مع الحياة الواعية المجاوزة لحياتنا، التى نحن فى الحقيقة جزء منها، وفى هذه الوحدة طالما كنا نخدم قضيتنا بإخلاص، نكسب ونحقق النجاح هذا النجاح الذى لا تستطيع أى خبرة من خبراتنا الإنسانية، أو فرح لحظى نشعر به، أو حزن لخسارة أو هزيمة شخصية، إلا أن يوضحه أو يلقى الضوء عليه إلى حد ما، أو تحويله إلى مثل أعلى.

لقد تساءلنا، أيعُد الإيمان الذى يكنه أصحاب الولاء لقضاياهم، مجرد نوع من خلع للصفات البشرية على الطبيعة؟ لقد أعطت لنا نظريتنا فى الحقيقة، إجابة عامة لهذا السؤال العملى الملح والهام. يحاول أصحاب الولاء الحياة فى الروح. ولكن، إذا ما انتبهوا فقط لطبيعة الحقيقة المعقولة أو العقلية، يكتشفون، أن لا حياة لهم ولا يستطيعون الحياة إلا فى الروح، وأنهم يحيون فى هذه الحقيقة كمجرد لحظات جزئية عابرة لحياة واعية، كمجرد سلسلة من الحالات العقلية العشوائية، وحتى إن لم يكونوا من أصحاب الولاء. لأن كل حياة، مهما كانت جزئية وجاهلة تكون إما عبارة عن، سعى دون وعى لوحدة عاقلة، مع الحياة الكلية، التى تكون جزءًا منها، أو أنها تكون مثل حياة أصحاب الولاء، محاولة متعمدة وإرادية، للتعبير عن هذا السعى فى شكل خدمة لقضية مجاوزة لحياتنا. وكل الولاءات الناقصة وكل خدمة لقضية ناقصة أو شريرة، ما هو إلا صور جزئية لخدمة قضية الولاء الكلى. ولكن خدمة الولاء الكلى، يعنى رؤية كل مصالح واهتمامات كل الحيوات الواعية كما لو كانت واحدة، ولكى يتحقق ذلك يتم النظر لكل هذه الحيوات، مكونة لوحدة واحدة، كتلك التى تتطلبها نظريتنا فى الحقيقة، وفى نفس الوقت، طالما أن السعى للحقيقة يعد، فى حد ذاته نشاطاً عملياً، فإن ما قد عرضناه، فى نظريتنا عن الحقيقة، ما هو إلا جانب من جوانب الحياة التى يمارسها أصحاب الولاء. فكل من يسعى للحقيقة يكون على ولاء، لأنه يحدد حياته، تبعاً لحياة أخرى تتعالى على حياته وتتجاوزها. ويكون على ولاء للولاء، لأن أى حقيقة تحاول كشفها، وكانت حقيقة صحيحة، فإنها صحيحة لكل فرد، ولذلك تستحق الاعتراف بها من كل من يحيا حياة الولاء. إذن، يعتبر كل أصحاب الولاء من الباحثين عن الحقيقة، وكل الباحثين عن الحقيقة، من أصحاب الولاء، وكلهم يسعون إلى وحدة الحياة. وتشمل هذه الوحدة كل الناس، ولكنها وحدة روحية شاملة

لذلك تقابل نظرتنا للحقيقة، حاجة أخلاقية ومنطقية. فالعالم الواقعى، يعد بالتحديد العالم الذى يشعر فيه أصحاب الولاء بالألفة. ولا يعتبر ولاؤهم مجرد خلع لصفات بشرية على الطبيعة. وقضاياهم وقائع حقيقة فى العالم. ويمتلك العالم ككل، هذه الوحدة التى يسعى إليها الولاء للولاء للتعبير عن خدمته الحياة كلها.

ولكن يبقى سؤال أخير، أليس هذا العالم الواقعى، الذى يعترف كل أصحاب

الولاء بوحدته الحقيقية، فى كل أفعالهم، وتفترض كل عملية بحث عن الحقيقة وحدته، بصورة مسبقة، هو العالم الذى يعترف به الدين أيضاً؟ وإن كان الأمر هكذا، فما هى علاقة الولاء بالدين .

إن المادة الضرورية لإجابة هذا السؤال، باتت فى متناولنا، ولقد كنا نعدها بغية تحقيق هذا الغرض، وحتى تكون الإجابة بسيطة وواضحة، عندما نحتاج إليها .

- ٥ -

لقد عرفنا الولاء، بأنه إرادة أو رغبة فى إظهار الأبدى فى أفعال النفوس الفردية ومن خلالها، وعرفنا الدين .. فى أعلى صوره التاريخية (والتى تهمنا هنا فقط) .. بأنه التعبير عن كل من الأبدى، وروح الولاء من خلال العاطفة، ونشاط مناسب للخيال .

كان الدين دائماً، وفى أى صورة له، عبارة عن محاولة لتفسير عالم مجاوز لعالمنا الإنسانى ومحاولة للاستفادة منه. ولا يهمنا هنا عرض تاريخ الصورة البدائية والبسيطة للدين، وعلاقة الأخلاق بالدين فى الحياة البدائية للانسانية ويكفى القول بأن فى التاريخ، كان هناك دائماً نوع من التوتر بين اهتمامات الدين واهتمامات الأخلاق. لأن القوى العليا، قد بدت للإنسان دائماً، إما لا أخلاقية أو فاسدة. ومازال هذا التوتر قائماً لدى العديد من الناس فى يومنا. والواقع أن أعظم وأصعب إنجازات العقل الإنسانى لا يكمن فى قدرته على التوفيق بين الدين والعلم. وإنما فى التوفيق بين الدين والأخلاق وكل من لديه فكرة بسيطة عن تاريخ البشرية يستطيع أن يدرك الصعوبات التى أشير إليها. فكان إدراك العالم المجاوز لحياتنا، يتم دائماً بصورة، تخالف الصورة التى يتطلبها الولاء. إن كل من يقرأ الكلمات المسجلة، لكاتب بات اليوم منسياً، ويعيد قراءة الوصية العظيمة والمخلصة للنبى "عاموس" يستطيع أن يكتشف بنفسه، كيف تمت المواجهة الشجاعة، لإشكالية إدراك العالم العلوى، بوصفه خيراً وإنه الأصوب، من قبل واحد من أوائل الذين نظروا للعلاقة بين الدين والأخلاق وبنظرة لا تقل أهمية، عن تلك التى قد تعلمناها من أفضل المدرسين، ويستطيع أن يدرك القارئ أيضاً كيف كانت صعوبة مهمة النبى، وعندما نتذكر أيضاً مدى عظمة فكر مؤسس البوذية، وبالرغم من

المحاولات الفكرية العميقة لأصحاب الفكر الهندوسى لم يكن هناك حل أو طريقة للتوفيق بين الدين والأخلاق، إلا بجذبهما نحو شواطئ محيط الزمان الغامض واللانهائى، ثم إغراقهما فى أعماقه (وهو عمل يعتبره بوذا محققاً لخلاص العالم) فإننا نحصل على نظرة أخرى لطبيعة المشكلة. وعندما نتذكر القديس بولس، وبعد صراعه وعزلته الروحية الطويلة، قد حاول فى تعاليمه التوفيق بين الأخلاق والدين، بوضع تأويل للمسيحية، أدى إلى وجود نوع من الجدل اللاهوتى، جعل العالم المسيحى يدخل فى الكثير من الصراعات، فإننا نشعر مرة أخرى، خطورة المسألة. ولكن من الواضح طبعاً أن خبرة الإنسان المتحضر، قد ساعدته بصورة تدريجية، على التوفيق بين الحياة الأخلاقية والحياة الدينية. وطالما أن هذا التوفيق، تدعمه نظريتنا عن تكوين العالم الواقعى، فإننا مستعدون الآن لعمل مراجعة مختصرة للموقف كله .

دائماً ما يقول الناس، إن الأخلاق شىء منفصل عن الدين. وأحياناً يقول الناس ذلك من أجل حماية الدين، فيرون أن الأخلاق، يمكن أن تجعل منك، فى أفضل الأحوال، كائناً أو مواطناً مقبولاً، بينما الدين، هكذا يقول هؤلاء الناس، هو وحده الوحيد القادر، على تحقيق التوافق بينك وبين العالم المجاوز لعالمنا الإنسانى، الذى يعد وجوده وتأييده عنصراً ضرورياً للحياة الإنسانية، ولكن أحياناً يحدث نفس الشىء من أجل حماية الأخلاق وتتم المطالبة بضرورة فصلها عن الدين. فيقول البعض من الناس، طالما، أن الدين عبارة عن مجموعة من المعتقدات المشكوك فيها، والخرافات، وعواطف سامية، فمن الأفضل للأخلاق أن تظل منعزلة عن الدين. فالبائس والمحتاج يحتاج مساعدتك ويحتاج أصدقاؤك السعادة التى تستطيع توفيرها لهم، والأخلاق التقليدية، فى مجموعها شىء جيد وخير. لذلك، يقولون، تعلم فعل الخير والصواب، واترك الدين للعقول الخيالية، التى تحب الاعتقادات. معلناً التمسك بما هو إنسانى، ودع كل ما هو مجاوز لحياتنا الإنسانية.

ولأن فلسفتنا عن الولاء، تهدف إلى شىء أكبر وأكثر ثراء من مجرد تحقيق السعادة الإنسانية لبعض الأفراد، فإنها علمتنا أنه لا وجود لمثل هذا الخط الفاصل بين الإنسانى وما يبدو مجاوزاً مثلما كانت تدعى هذه المحاولات، للفصل بين مجالات الدين ومجالات الأخلاق. فأصحاب الولاء يخدمون شيئاً أكثر من الحياة الفردية. وحتى

"نيتشه" بالرغم من أنه من أنصار الفردية والأخلاق الطبيعية، يوضح وجهة نظرنا. فلقد بدأ الجزء الأخير من تعاليمه، مؤكداً على القول "بأن الله قد مات"، (وإن كان من الممكن النظر لذلك على أنه هجوم على التوحيد، وبالتالى يعتبر نيتشه من الوثنيين ومن أنصار التعدد)، ثم أضاف ملاحظته المشهورة بأن فى حالة وجود أى آلهة، فإنه استنتج أنه لا يتحمل، ألا يكون هو نفسه واحداً منها، وبذلك انتهى إلى "عدم وجود الآلهة ". ولئن بدا ذلك أنه يترك الإنسان يفعل ما يشاء، إلا أن "نيتشه" لم يترك الأمر هكذا، ووضع فى الحال، نظاماً دينياً، يتعلق بعبادة الكائن المستقبلى المثالى، المسمى بالإنسان الخارق أو " السوبر مان " والذى يعد إلهاً مثل آلهة الأولمب، أو الآلهة التى تسكن السماء. وإذا كان مبدأ التكرار الأبدى الذى قال به نيتشه مبدأ صحيح فإن "السوبر مان" لا ينتمى للمستقبل المثالى فقط، وإنما كان موجوداً منذ آلاف السنين من قبل .

وإذا كانت فلسفتنا عن الولاء فلسفة صحيحة، فإن نيتشه لم يكن مخطئاً فى قوله " بالسوبر مان ". فالسوبر مان موجود بالفعل بيننا. وليس للحياة معنى بدونه. ولكن لا يحتاج وجوده للسحر، وليس موضوعاً للخرافة. وإذا كنا نرغب التوفيق بين الدين والأخلاق، فإن من الأفضل أن نبدأ، كما قد بدأ " عاموس " بتعريف وإدراك لمعنى "الخيرية " بطريقة معقولة، بعيدة عن الخرافات، مع اعتراف بوجود عالم مجاوز لعالمنا. أو ما يفوق البشرية. وبعد ذلك، فتستطيع تعريف وتقدير وإدراك معنى الدين، الذى تكمن جذوره فى طبيعتنا الإنسانية، وبوصفه متمماً لأخلاقيتنا.

- ٦ -

الولاء عبارة عن خدمة لقضية. ولكن، كما لاحظت، أننا لا نستطيع الانتظار حتى يوضح لنا الناس أو فرد ما، خيرية القضية، ومدى الخير فيها وصلاحيتها قبل قيامنا بخدمتها. فمن الناحية العلمية، دائماً ما نعرف خيرية القضية، من خلال فعل الخدمة ذاته وأثناء خدمتها. ولذلك يبدأ الولاء لدينا جميعاً، فى صورة أولية. ففى البداية تحظى قضية معينة بإعجابنا، ولكن لا نعرف سبب هذا الإعجاب معرفة واضحة. ثم

نهب حياتنا لها طواعية .. وهنا نبدأ حياتنا الحقيقية. قد تكون القضية فاسدة بالفعل. ولكن فى أسوء الحالات، تمثل بداية الطريق نحو القضية الحقيقية. إذا تركنا ولاءنا يتطور ويتحول لخدمة القضية الكلية. لذلك أود البدء فى مناقشة الأساس الذى يمكن أن تقوم عليه نظريتى فى الولاء والذى تعمدت تأجيل مناقشة هذا الأساس الميتافيزيقى إلى نهاية المحاضرات. فالواقع أن نظرة الشباب للعالم الواقعى، وتصوراتهم عنه، قبل الشروع فى الولاء لقضية ما، تعد نظرة ناقصة. فأصحاب الولاء، يجسدون الأبدى فى أفعالهم، ولا يدركون فى الحقيقة أنهم يفعلون ذلك. ولا يعلمون، إلا أنهم قد كرسوا حياتهم، واستسلموا لقضيتهم. إذن أولى فوائد الولاء تكمن فى المسألة التى أكدنا عليها فى محاضراتنا الأولى. فإن شعرت بالولاء فى أعماقك توحدت حياتك، وحصلت على شئ، لا يمكن الحصول عليه بأى وسيلة أخرى .. أى ذاتك بوصفها تحيا حياة ترتبط بخطة معينة، وضميرك بعد أن حدده مثلك الأعلى، وقضيتك بوصفها هدفك الشخصى فى الحياة.

إذن يستطيع المرء، أن يحيا حياة الولاء، بدون أن يكون متدينًا، بصورة واضحة وعن وعى. فعندما يقصد الفرد الولاء لقضية معينة، تبدو له إنسانية ومحسوسة وعملية. ولكنها تكون فى الحقيقة كائناً فى عالم مجاوز لعالمنا، وتعنى فى الحقيقة خدمة الأبدى. ولكن ذلك لا يبدو واضحاً، للفرد العادى، وغالباً ما تكون هذه الأشياء غير ظاهرة، وكامنة، خاصة لدى من يحيون الحياة العملية، ويحققون منها النجاحات لأنهم لا يميلون إلى سبر أغوار الخيال ثم يبدأ المرء وبصورة تدريجية فى تحويل قضيته إلى مثل أعلى كلما طالت خدمته فى حياته، بالرغم من ميل البعض - كما سبق أن رأينا - إلى تقديس القضية وعبادتها .

وفى الوقت نفسه، قد يقبل الرجل فى مراحل ولائه الأولى، وطبقاً للتقاليد، ديناً معيناً وقد يعرف من هذا الدين، وجود عالم مجاوز لعالمنا. ولكنه لا يكون مدركاً لأهمية هذا الدين، أو لا يعتبره عاملاً أساسياً فى ولائه العملى. قد يكون من المؤمنين بالخرافات، أو متديناً تديناً صورياً، أو ربما يقبل عقيدته أو كنيسته، بسبب المكانة الاجتماعية أو الفائدة التى قد تعود عليه، وأخيراً ربما تكون لديه خبرة دينية حقيقية، ولكنها تظل خبرة صوفية غامضة، أكثر منها أخلاقية واضحة، أو قد تجعله محباً

وعاشقاً للجمال بصورة عامة، أكثر من كونه محباً لقضيته، ومخلصاً لها.

وربما فى مثل هذه الحالات السابقة يظل الولاء منفصلاً عن الدين. ولكنه إذا كان الولاء مخلصاً وصادقاً، فإنه يتضمن على الأقل، اعتقاداً خفياً وكامناً فى انتماء القضية لعالم مجاوز لعالمنا أو أعلى منه، وأنه يعنى على الأقل، نوعاً من التفانى اللاوعى للقضية الوحيدة والأبدية، ولكن هذا الاعتقاد يظل معبراً أيضاً عن وحدة خفية وكامنة بين الدين والأخلاق. ومثل هذه الخدمة عبارة عن طاعة لاوعية. وربما يأتى الوقت، الذى تحتاج فيه الأخلاق، للاتحاد بصورة واعية مع العقيدة الدينية، لدى المرء الذى نحاول وصف نمو ولائه، ورسم صورة لتطوره

وهذا الاتحاد كما سبق أن عرضنا، يبدأ فى الوضوح، عندما تصل العملية التى أطلقنا عليها فى المحاضرة السابقة اسم عملية تحويل القضية إلى مثل أعلى وإلى أعلى مستوياتها. ولقد رأينا، أن هذه المستويات العليا، يتم الوصول إليها فى حالة وجود قضية، التى تبدو من المنظور الإنسانى، قضية خاسرة وميئوسًا منها. فإن آمنا واعتقدنا فى القضية الميئوس منها، فإننا نعى مباشرة بأننا نبحث عن المدينة البعيدة عن الأنظار. وإن كانت القضية واقعية، فإنها تنتمى لعالم فوق إنسانى. والآن، وكما سبق أن قلنا، كل قضية، نتفانى فى خدمتها طوال حياتنا، وتكون قادرة على توحيد خططنا الحياتية تبين لنا، عاجلاً أو آجلاً، أنها قضية لا نستطيع التعبير عنها، فى أى مجموعة من الخبرات الإنسانية السعيدة واللحظية وفى النجاحات الجزئية سريعة الزوال. فالحياة الإنسانية، إذا نظرنا إليها بوصفها مجرد تدفق ولحظات تأتى وتمضى، تبدو حياة لا قيمة لها، نهر من الخبرة، ينبع من جبال الشباب ويجف فى صحارى العمر، ولا تكتسب قيمتها وأهميتها، إلا من خلال علاقاتها بالهواء، والمحيط والأعماق البعيدة للخبرة الإنسانية. إن هذه التعبيرات التصويرية البسيطة، من الممكن اعتبارها رمزاً للعلاقة الفكرية الحقيقية بين خبرتنا الشخصية والخبرة الكلية العاقلة .. تلك العلاقة التى خصصت لها المحاضرتين السابقتين.

فكل فرد يجب عليه خدمة القضية الكلية بطريقته الفردية الخاصة. لأن ذلك. وكما سبق أن رأينا، ما يتطلبه الولاء، وما يعنيه حقاً، خاصة عندما يدرك الولاء حقيقته. ولكن كل من يخدم القضية، حتماً يشعر باليأس من تحقيقها، فى عالم خبرتنا الحسية

المتواضع لأن قضيته تحمل من الخيرية ما يفوق قدرة عالمنا الزمنى عن التعبير عنها. وربما هذا ما كان يقصده اللاهوت التقليدى، عندما، أطلق عليك وعلىّ، ونحن فى حالتنا الطبيعية التى نحياها، اسم الكائنات الضائعة. إن ولاءنا العميق يكمن فى تكريس أنفسنا لقضايا، تبدو ميئوساً منها من وجهة نظرنا الإنسانية المتواضعة. من الممكن طبعاً أن يعبر المرء، عن هذا، بالقول بأن القضايا الحقة، تكون كائنة بالفعل فى عالم أعلى، وطبيعتنا الانسانية هى التى فقدت طريقها. والحقيقة أن كلتا الوجهتين من النظر لهذه الحالة، تعبران عن الحقيقة، فالولاء يعنى تحول طبيعتنا وتطور فى حياتها .

إذن القضايا التى يجب علينا خدمتها، قضايا خاسرة وميئوس منها، ولكن كما رأينا فى المحاضرة السادسة، أن الولاء للقضية الخاسرة، يصاحبه دائماً الحزن والخيال، أو التخيل، وبالتالى يعتبران، الآن، مصدر كل الصور العليا للدين الأخلاقى الحقيقى، وإن شككت فى هذه الحقيقة، عليك أن تقرأ النصوص أو كتب أى دين أخلاقى من الأديان الكبرى. واسأل سفر المزامير من التوراة والترتيلات والكتب الأخلاقية التقليدية، أو المصلين فى الكنيسة، إن مثل هذا الدين، يفسر لنا العالم المجاوز لعالمنا فى صور، يخترعها لنا، التشوق والبحث والحزن والتخيل، ولكن فى صيغة تهدف إلى تحقيق مطالب ولائنا الأعلى. لأن ولاءنا يكون لوحدة الحياة التى يتعلم وعينا الأخلاقى العميق الاعتقاد فيها، والتى تمتلك كل العالم الواقعى، وتشكل قضيته كل القضايا. فعندما نخدم الولاء الكلى، نخدم وحدة الحياة.

ولكن هذه الوحدة الحقة لحياة العالم، تكون قريبة جداً منا، وفى نفس الوقت بعيدة عنا جداً. قريبة جداً، لأننا نحيا فيها، ونستمد وجودها منها، ومعه كل قيمة بدونها نكون مثلنا مثل النهر الذى ينساب فى الصحراء، وسريعاً ما يجف. وبالاتحاد بها، نحصل على قيمتنا الفردية وأهميتها فى الكل، وللكل. ولكن نكون أيضاً بعيدين عنها، لأن خبرتنا الإنسانية، تلقى لنا مجرد لمحات جزئية بسيطة، عن تفاصيل علاقتنا بنشاطها ولكى نشعر بعلاقتنا بها، وبحيوية وقيمة هذه العلاقات، علينا أن نجعلها قريبة من مشاعرنا ومن خيالاتنا. فنشعر ونعانى عزلة حياتنا التى نحياها، بمجرد قيامنا بذلك. ولكن، لما كنا لا نعرف تفاصيل عالمنا، إلا من خلال العلوم التجريبية، وفى هذه العلوم لا تعطى لنا نظرة عامة لوحدة الحياة وإنما مجرد مادة وموضوعات لحياة عقلية،

فإننا نترك بالفعل خيالنا، ونطلق له العنان، لكى يطفئ حزننا، ويساعد فى التدريب على الولاء .

إن العلم، لا يستطيع أن يدلنا على تفاصيل نظام أو نسق الوقائع الذى ترتبط به حياتنا بالأبدى، فنستطيع أن نعرف أننا على صلة بالأبدى، ولكن علومنا، لا توضح لنا هذه الصلة .

لذلك يكون المحتوى الفعلى للأديان الخلقية، غنياً بالأساطير والتصوير الرمزى، الذى يثير العاطفة، ويحاول أن يشخص فى صورته العامة، حقيقة مطلقة، تتكون وتتشكل من الوقائع التالية : الأولى الوحدة الفعلية وخيرية حياة العالم والثانية اقترابها الحقيقى والخفى من حياتنا، وإن كنا نجهل ذلك، والثالثة ثراؤها واكتمالها من حيث المعنى، بالرغم من عدم خبرتنا بها، والرابعة اهتمامها بمصيرنا الشخصى، بوصفها كائنات أخلاقية، والأخيرة، التيقن من أننا، ومن خلال ولائنا الإنسانى الفعلى، نصبح مثل قوى تقابل الإرادة الحقة للعالم، وجهاً لوجه، وكإنسان يتحدث مع صديقه. فإذا اعترفنا بهذه الوقائع بات لدينا ما يسمى بعقيدة الدين المطلق .

طبعاً ربما نتساءل ما إذا كانت نظريتنا فى الحقيقة، وكما عرضناها، توفر الضمان الكافى لصحة هذه القناعات الدينية، وأجيبك على الفور بأنها تحقق مثل هذا الضمان. إن الرموز التى تعبر عن هذه الحقائق أو القناعات، والتى يعبر عنها دين أو آخر، تكون كلها بالفعل راجعة إلى كل أنواع الحوادث التاريخية، وإلى الدور الذى تلعبه خيالات الناس، أو القائمون على خدمة الدين. ولكن القول بأن علاقاتنا بحياة العالم، علاقات يتم إدراكها من قبل كيان مجاوز للإنسان، ولكنه يمثل حياة واعية شخصية، ترتبط به حياتنا الشخصية ذاتها، ولا تكون أكثر ثراء من حياتنا فقط، وإنما أكثر وجوداً وواقعية وأرقى وعياً من حياتنا. يبدو لى أمراً حتمياً، ونتيجة منطقية لنظريتى فى الحقيقة .

- ٧ -

وأخيراً ولكى نوجز رأينا فى علاقة الولاء بالدين. نجد أن هناك شيئين، على الأقل ينتميان لحياة العالم، إذا كانت نظريتى فى الحقيقة نظرية صحيحة. الأول، أنها

حياة ترتبط وتتحدد تبعاً لاحتياجاتنا الخاصة، والثانى أنها تحوى خبراتنا وتكملها. لذلك، وفى جميع الأحوال، تكون حياة حية وأساسية وواقعية وموجودة مثل حياتنا، وكل ما نحتاجه، تعرفه وتشعر به. فإذا ما سألت عن سبب وصفى لها، بأنها حياة خيرة، فعليك أن تعود إلى الحجج التى استخدمتها البراجماتية الحديثة، والتى سبق عرضها. فهذه الحجج توفر الضمان الكافى لصحة وصفى لها بالخيرية فلا يمكن أن تكون الحقيقة مجرد حقيقة نظرية فقط. والحق هو ما يحقق نجاح فكرة معينة. ومرة أخرى كل من يخفق فى تحقيق النجاح أو يواجهه شر، أو يشعر بعدم الرضا، يكون حتماً، ساعياً ومحدوداً لوقائع بعيدة عنه وليست فى متناوله، وبالتالى لا يكون مدركاً لها إدراكاً كاملاً. ولذلك العارف "لكل" الحقائق يكون بالضرورة قادراً على تحقيق كل الغايات العقلية. ولكن، إذا ما سألت عن لماذا تسمح حياة العالم، بوجود الشر، أو النقص أو المحدودية، أجيب على الفور، بأن المجال لا يسمح بمناقشة عامة ومستفيضة لمسألة الشر، وأحيلك إلى كتاباتى السابقة فيها. ولكن على العموم هذا التساؤل يعد تساؤلاً له قيمته، بالنسبة للطرح الذى نقول به الآن. والواقع أن نظريتنا فى الشر، ليست مجرد نوع من التفاؤل الساذج، ولكنها نظرة مؤسسة على أهم وأعمق خبرة أخلاقية مؤلمة للجنس البشرى. إن أصحاب الولاء، هم وحدهم، الذين يعرفون خيرية المعاناة، والجهل، والشعور بالنقص والخسارة والهزيمة... وهذا هو الخير الحقيقى للولاء، طالما تم النظر للقضية ذاتها، على أنها كلٌ حى. إن تحقيق السلام الروحى، ليس أمراً سهلاً. ولا نستطيع الحصول عليه، إلا من خلال الشعور باليأس والمعاناة والخسارة والجهد والعمل. ولكن عندما نشعر بقيمة القضية التى تم تعقيلها. قد تم تأكيدها، من خلال الحزن، فإننا ندرك، أن الشر يكون له على الأقل مكانه فى نظام مثالى. فكيف يكون العالم بدون الولاء، وكيف يكون الولاء بدون محنة ومعاناة؟ وعندما نتذكر أن تبعاً لهذه الوجهة من النظر، تكون كل أحزاننا أحزان "وعى العالم" نفسه وطالما أن حياة العالم يتم التعبير عنها فى حياتنا، فقد نشعر بأن حياة الولاء، بكل أحزانها، ومعاناتها، ربما تمثل الأساس الضرورى، للحصول على هذا الانتصار الروحى، الذى يجب أن ندركه، بوصفه متحققاً من وجود "روح العالم".

ولكن ربما يتساءل أحدكم: "إذا كانت إرادة العالم، تحقق فى كليتها، كل ما نسعى إليه، فما حاجتنا للسعى لتحقيق هذا الخير؟" أجيبه، بأن فلسفتنا عن الولاء

تكشف فى الحال زيف وبطلان مثل هذا القول. فبالطبع، لا تحصل "حياة العالم"، على الخير الفردى، المتضمن فى ولائى الإرادى، إلا إذا كنت على ولاء. فقد تحقق القضية الانتصار بدونى ولكن ليس بوصفها قضيتى، ولم تعتبر نظريتنا، فى أى لحظة، "أن أحيا حياة العالم"، تكون حياة مكتملة بصورة أبدية، ومنذ البداية، ثم تطلب منا بعد ذلك محاكاتها، أو تنفيذ رغباتها، أو تحقيق مطالبها وأوامرها. كما لو كنا عبيداً لها.

إن نظريتنا، ترى أن كل من كان على ولاء، يقوم بفعل فريد فى هذا الكل من الحياة، والذى أطلقنا عليه تعبيراً أو اسم الأبدى لأنه ببساطة عبارة عن النظرة المجملة لكل مجموع مراحل الحياة الماضية والحاضرة والمستقبلية، فإن لم أنجز الفعل الذى يتوجب على فعله، لشعرت حياة العالم بنقص هذا الفعل. وكل إنسان منا، يحق له مثل هذا القول. إن الأساس الذى أقمنا عليه نظريتنا فى الحقيقة، والتى أقمناها على الأفعال، والأفكار، والحاجات العملية لكل فرد منا، يعطى لكل فرد مكانه الفريد فى نظام العالم .. والفعل الذى لا يمكن لغيره أن يقوم به والإرادة التى لا تخص، ولا تعبر عنه " إن إرادتنا هى القدرة على تحقيق ذاتنا ". فوحدة العالم ليست محيطاً، نشعر فيه بالضياع، وإنما حياة تحتاج لوحدة كل حياتنا، وتعبيرها عن حياة واحدة، لقد حدد لنا الولاء هذه الوحدة، بوصفها وحدة حية ووحدة إيجابية. وحصلنا عليها من فهمنا الحقيقى لولائنا. ولا تتصف هذه الوحدة بالأبدية، إلا إذا شملت كل زمان، وكل تغيير وكل حياة وكل منا. ولذلك عندما نصل إلى مثل هذه النظرة وطالما أنها تشبع، مطالب الولاء، فإن ولاءنا يظل ذا قيمة، ومفيداً لنا وعملياً وخدمة حقيقية للقضية، إن هذا الكل "لحياة العالم " لا يقترح علينا نوعاً من الراحة الخلقية، إنه بالتحديد، عبارة عن حياة كلية من المساعى المثالية التى نحتل فيها، مكاننا بوصفنا نفوساً فردية، ولا يمكن أن نكون نفوساً حقاً، إلا إذا سعينا لإنجاز دورنا فى هذا الكل .. وهكذا، وهكذا فقط تنظر فلسفتنا للولاء إلى العالم.

ولذلك وبالتحديد طالما أن الدين، يحاول إدراك العالم بوصفه حياة شخصية واعية لمعنى روحى مجاوز للإنسان، وبوصفه حياة، تتصل اتصالاً وثيقاً بحياتنا، فإنه يكون صادقاً أبدياً. ولكن، وحتى الآن، ليس متاحاً لنا، إلا هذه النظرة العامة للعالم، بوصفه نظاماً عاقلاً، قابلاً لمعرفتنا العقلية. ولذلك، لا يعطى لنا، أى جانب من جوانب هذا

المذهب الحق بوصفنا كائنات إنسانية، فى أن نحدد بأى درجة من درجات التعيين، تفاصيل حياة العالم، إلا تلك التفاصيل التى تأتى لنا فى مجالات أبحاثنا العلمية والاجتماعية وعندما يقدم لنا الدين أثناء خدمتنا للولاء، تفسيراً لحياة العالم، فى شكل صورة فردية، فإنه لا يعطى لنا، بالفعل إلا رموزاً للحقيقة الأبدية، وكون أن هذه الحقيقة أبدية بالفعل وأن ولاءنا يجعلنا ندخل فى علاقات شخصية مع حياة العالم الشخصية التى تقدر كل فعل من أفعال ولائنا، ونحتاج فى نفس الوقت لهذا الفعل، فكل ذلك يعد أمراً معقولاً وصحيحاً. وهذا بالفعل ما يوضحه الدين توضيحاً صحيحاً. ولكن الأمثال والرموز، والأحداث التاريخية التى يستخدمها الخيال الدينى فى تصويراته.. ما هى إلا أحداث غامضة وزائلة، يكشف لنا فيها " الوجود الواقعى" للآلهة، وفى نفس الوقت يخفى عنا تفاصيل الحياة الباطنية، ولئن كانت هذه الأحداث التى أنتجها الخيال الدينى، قد شكلت على مر العصور، ومن خلال مراحل التاريخ، إلا أنها اختلفت من مكان لآخر. إن كل من يدرك الحقيقة الحية لوحدة العالم الأخلاقية والواعية والشخصية، من خلال هذه الرموز، يعتبر من أصحاب الدين المطلق، مهما كانت عقيدته الرسمية أو كنيسته. وفى نفس الوقت كل من يبحث عن التفاصيل التجريدية لهذه الرموز، ويؤكد على أهميتها، ثم يطلب منا قبول هذه التفاصيل، بوصفها صادقة صدقاً موضوعياً أو واقعياً فإنه يرتكب خطأ يبدو لى عكس الخطأ الذى سبق أن اتهمت البراجماتيين الأصدقاء، بالوقوع فيه، إن هذا الإنسان الحرفى أو الموضوعى، الذى يقرأ الرموز، بوصفها كشفاً عن البنية التفصيلية للحياة الإلهية يبدو لى، وبالتحديد، بأنه يبحث عن الأبدى، من خلال عالم معطيات الحس الإنسانى، والخيال الإنسانى. وأعتقد أن من يفعل ذلك، يبحث عن السيد المرفوع من القبر.

إن الانسان بوصفه مراقباً للوقائع الخاصة بالحس والخيال الإنسانى، يستطيع أن يقول، عن الحقيقة الحية لكل العالم الواعى إنه ليس هنا فلقد صعد. ومع ذلك، وبنفس القدر، ومن كل السماء المحيطة، هذه الحياة الواعية بذاتها أو الحقيقة، يسمع كل أصحاب الولاء من يقول لهم " انظروا فأنا معكم دائماً حتى نهاية العالم "

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالى العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل ، معتمداً المبادىء التالية:

١ - الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة الغتين الإنجليزية والفرنسية.

٢ - التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية.

٣ - الانحياز إلى كل مايؤسس لأفكار التقديم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب.

٤ - ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنبًا إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارىء فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالمين.

٥ - العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة.

٦ - الستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

الفهرست